

الانحرافات الأربعة

كيف ومتى ولماذا أضعنا الطريق؟

الدكتور

حامد العطية

الانحرافات الأربعة
كيف ومتى ولماذا اضعنا الطريق؟

د. حامد العطيَّة

الطبعة الثانية الإلكترونية
2012م
الطبعة الأولى (بيروت)
2000م

مقدّمة

قاد العرب والمسلمون ركب الحضارة والتقدم منذ أواسط الألفية الأولى وحتى أوائل الألفية الثانية من التقويم الميلادي، فقاموا بنشر عقيدة الإسلام، وكان لهم إسهامات فذة في مختلف فروع المعرفة والثقافة، ثم تضافرت عوامل داخلية وخارجية على إضعاف هذه المسيرة الحضارية، فتباطأت ومن ثم توقفت حركة التطور في المجتمعات العربية والإسلامية حتى بداية القرن العشرين حيث بدأت مرحلة يقظة هذه المجتمعات من سباتها الطويل لمواجهة تحديات البناء والتطور والتنمية.

للدول العربية مزايا وقدرات، تحسدها عليها معظم الأمم، عقيدتها الاسلامية وتراثها معين ثري بالفكر والثقافة والقيم، وتاريخها زاخر بالتجارب الباهرة، ولديها مقومات تحويل طموحاتها إلى واقع، إذ تختزن أراضيها موارد طبيعية ضخمة، من نفط وغاز ومعادن ومياه عذبة وأراض خصبة، وموقعها الجغرافي ذو أهمية استراتيجية كبرى، وعديد سكانها معتدل.

عندما تكون الرؤية واضحة والطموحات واقعية والموارد اللازمة متوفرة يفترض أن يكون احتمال النجاح كبيراً، وحتى لو تعثرت الجهود وتأخر بلوغ النتائج المرجوة فسيكون ذلك مؤقتاً لتعاود المسيرة زخمها من جديد، لكن النتائج جاءت مخيبة للأمال، وما تحقق بالفعل دون الطموح بكثير، على الرغم من بذل جهود كبيرة واستهلاك موارد ثمينة وانقضاء وقت طويل، والاحباط دفع بالكثيرين إلى حد اليأس وبعضهم إلى الجنوح للتطرف والتشدد.

يحمل العرب الاستعمار جانباً كبيراً من المسؤولية عن احباطاتهم، إذ اجتذبت المزايا الاستراتيجية والموارد الغنية للعرب أطماع الدول الغربية، ودفعتها إلى احتلال أراضيهم أو اخضاعهم لهيمنتها، وعملت الدول المستعمرة على تقاسم الأرض العربية، ورسخت انقسامها إلى دول مستقلة، وعرقلت توحيد الشعوب العربية والتعاون بينها، وحتى بعد انحسار عهد الاستعمار وحصول العرب على الاستقلال استمرت التأثيرات السلبية لسياسات الدول الغربية على معظم نظمهم السياسية والاقتصادية، وما زال الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين شاهداً على التركة الثقيلة لمرحلة الاستعمار.

لا يعزى الفشل للعوامل الخارجية وحدها، وأكثر عوامل الضعف هي داخلية أو ذاتية، ومظاهرها ونتائجها السلبية ماثلة في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه الدول، وفي فكر وسلوك الأفراد والجماعات، وديمومتها دليل على أن محاولات التخلص منها غير مجدية أو إن تلك المحاولات لم تكن جادة بالفعل.

لا يجد العرب اليوم ايجابيات كثيرة في مجتمعاتهم، والنماذج الناجحة في نظرهم غير عربية، ويدعون غالباً لا قتباس تجاربها، ولكنهم غير متفقين حول طبيعة النموذج المنشود، وهم في ذلك لا يختلفون كثيراً عن أجدادهم وأبائهم الذين شهدوا مرحلة استقلال ونشوء هذه الدول، إذ سرعان ما تبدد التوافق حول النظم التي تأسست في تلك المرحلة، وتقوض البعض منها بانقلابات عسكرية، واستأثر الحكام العسكريون أو الأحزاب الحاكمة التي أوصلتها الانقلابات إلى الحكم بالسلطة، وتعسفوا في معاملة شعوبهم، وفشلوا في التصدي للأخطار والتهديدات الخارجية وتحقيق التنمية الموعودة، وتطلب التخلص منها نضالاً طويلاً ومكلفاً وعنيفاً أحياناً، لكي يعود مسارها السياسي إلى نقطة البداية من جديد، كما يصعب التفاؤل حول المستقبل في ظل الانقسامات العميقة بين قياداتها ونخبها.

ولا يبدو مستقبل الدول العربية الأكثر استقراراً مطمئناً أيضاً، وحتى اليوم استطاعت العوائل الحاكمة فيها الحفاظ على توازن بين استمرارها في السلطة وتراثها الديني والاجتماعي وبين متطلبات التنمية والحداثة، وهذا التوازن هش ومن المحتمل أن لا يصمد طويلاً أمام ضغوط المطالب الداخلية والتحولات الخارجية، وهي غير قادرة أو مترددة في الاستجابة لتطلعات مواطنيها وخاصة نخبها المتعلمة واتاحة الفرصة لها للمشاركة في العملية السياسية.

على الصعيد الاقتصادي، تراوحت نتائج السياسات والخطط الاقتصادية والتنموية للدول العربية بين النجاح المتواضع والفشل الذريع، فقد افضت تجارب ما عرف بالاقتصاد الاشتراكي في عدد من الدول العربية إلى التصفية والخَصْخَصَة على طريق العودة أو التحول إلى الاقتصاد الحر، ولم تتمكن الدول التي طبقت أنموذج اقتصاد السوق من بلوغ مرحلة الانطلاق نحو التنمية المستدامة، ومعدلات الاستثمار والنمو في معظم الدول العربية غير كافية لتوفير فرص العمل لمواطنيها ورفع مستوى معيشة غالبيتهم فوق مستوى الكفاف وتحسين جودة الخدمات المقدمة لهم، وتقلصت القدرة الشرائية لشرائح واسعة في المجتمعات العربية بسبب الغلاء وتدني الرواتب، وتفاقمت معاناة الفئات الوسطى من أصحاب المداخيل المحدودة، وتوسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

تعاني الإدارة العربية من مشاكل بنيوية ووظيفية مزمنة ومستعصية، وعلى الرغم من ارتفاع مستويات التعلم بين المديرين والموظفين العرب واستعمال وسائل العمل الحديثة بقيت معدلات فاعليتها وانتاجيتها منخفضة، وعلاقاتها بالمستفيدين من خدماتها غير مرضية، وما زالت الأجهزة الحكومية مضرباً للمثل وهدفاً للتندُّر في تدني كفاءتها، وطول وتعقد إجراءاتها، وتقاعس موظفيها، وتفشي الفساد والرشوة بينهم، واستهانتهم بحقوق ومصالح المواطنين، والتعالي عليهم. وتتضح فداحة المشكلة الإدارية واثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية متى ما أدركنا أنَّ المؤسسات الحكومية مسؤولة عن إدارة قطاعات خدمية كبرى مثل الصحة والتعليم، وتتولى صرف المبالغ الضخمة المخصصة لها، كما أنها مختصّة بإعداد السياسات والإجراءات المنظمة للنشاطات الاقتصادية والمالية ومتابعتها، وتشرف على تنفيذ البرامج والمشاريع التنموية.

قبل البحث عن حلول لمشاكل العرب السياسية والاقتصادية والادارية والاجتماعية لا بد من تشخيص السلبيات والمعوقات، ومن الضروري أيضاً أن لا يتوقف التشخيص عند الأسباب المباشرة بل يجب أن يتعداها إلى تقصي جذورها، أي العلل الأولى أو الأساسية التي أنتجت مشاكلنا المستعصية، ويتطلب البحث عن جذور وضعنا المتأزم والمضطرب العودة في التاريخ إلى الوراء، وبالتحديد إلى مرحلة التحول الأكبر في تاريخ العرب، عندما بينت لهم رسالة الإسلام مسار الإصلاح والتطور ودعتهم إلى نبذ موروثهم الموبوء، والفرضية التي يراد اثباتها في هذا الكتاب هو أن جذور المشاكل التي تواجه العرب اليوم نتجت عن الترسبات الموروثة من عصر ما قبل الاسلام، والتي انحاز لها العرب خلافاً للمنهج الاسلامي الحضاري، وتأثروا بها فكراً وسلوكاً عبر العصور اللاحقة وحتى الوقت الحاضر.

يتضمن هذا الكتاب تصوُّراً لأربعة انحرافات رئيسية في مسيرة العرب منذ عصر الجاهلية حتى الآن، نتجت عن تحيزات أو اختيارات غير موفقة، أدت بمجملها إلى إضعاف العرب ومنعهم من تحقيق كامل أهدافهم وتطلعاتهم، وتمثلت هذه الاختيارات المصيرية فيما يأتي:

أولاً: طلب السيطرة والقوة بدلاً من تطبيق العدالة.
ثانياً: الانحياز إلى القبيلة وعصبياتها ونواميسها والابتعاد عن القبلة (الإسلامية) وقيمها وشريعتها.
ثالثاً: الإصرار على مثالية الذات العربية والتفاخر بها على حساب الموضوعية في نقد وتقويم الذات.
رابعاً: معاملة المرأة بوصفها سلعةً على خلاف ماتستحقه من حقوق واحترام باعتبارها شريكاً للرَّجل في بناء الحياة الإنسانيَّة.

لا ترتبط هذه الاختيارات بزمن محدد، بل هي ممتدة من عصر الجاهلية حتى زمننا الحاضر، فالتهالك على القوة والسيطرة وكذلك القبلية ومثالية الذات وامتهان المرأة قيم وسلوكيات نشأت قبل الإسلام واستمرت بعد انتشاره بدرجة أو بأخرى.

اعتبرت التعاليم الإسلامية العدالة قيمة إنسانية عظمى، ودعت العرب إلى نبذ التعصب القبلي والتفاخر بالنفس والآباء والأجداد وإلى احترام المرأة ومعاملتها بإنصاف، وبعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الدعوة الاسلامية ما زال الاختيار بين التسلط والعدالة قضية جوهرية في المجتمعات العربية ونظمها السياسية والاقتصادية، كما أن القبلية متجذِّرة فيها ومؤثرة في فكر وسلوك الكثير منهم، وما توقف العرب عن الإصرار على مثالية الذات والتفاخر بها، ولم يتوصلوا بعد إلى القبول بالمرأة إنسانة مكتملة الادمية.

موضوع الفصل الأول من الكتاب نزعة السيطرة والقوة والتسلط لدى العرب، وهي إحدى القيم الرئيسية لديهم منذ عصر الجاهلية وحتى الآن، إذ سعى العرب وراء كافة أنواع القوة، وتنافسوا على امتلاكها، وكان ذلك غالباً على حساب العدالة والمساواة وغيرهما من القيم الإسلامية العليا، واستمد غالبية الحكام العرب شرعيتهم الحقيقية من القوة العسكرية والأمنية وولاء الأتباع المخلصين، وبالقوة حافظوا على سلطانهم، وقمعوا الثائرين واسكتوا المعارضين، وأضعف الصراع على السلطة استقرار المجتمعات العربية ومنعتها ونموها.

القوة هي محور التنظيم السياسي والاجتماعي للقبيلة العربية، لذلك ناصب كثير من سادة القبائل الإسلام العداء، وعملوا على الحؤول دون انتشاره بكل الوسائل، وكما يتبين في الفصل الثاني فقد حافظ العرب بعد الإسلام على ولائهم القبلي، ولم يتخلوا عن العصبية القبلية، وحرصوا على التقيد بما يمليه عليهم ولاءهم القبلي من تعصب ضيق وتطبيق للأعراف والعادات المتوارثة حتى لو خالفت الشريعة والقيم الإسلامية، وهم بالنتيجة انحازوا إلى قبليتهم على حساب إسلامهم.

يتضح من الفصل الثالث بان التفاخر بالنفس والعشيرة والأصل عادة جاهلية، أفرزها التنافس والصراع بين القبائل العربية، وكان من المفترض زوالها بعد دخولها الإسلام تطبيقاً لتعاليمه الداعية إلى الأخوة والمساواة وترك التفاخر بالاجداد، لكن ترسُّبات القبلية الجاهلية حالت دون ذلك، وما زالت نزعة التفاخر وتمجيد الذات وتنزيه السّلف مؤثرة في الفكر والسلوك حتى وقتنا الحاضر، ومن مظاهرها تقليد الأجداد ومقاومة التغيير وضعف الاستفادة من تجارب التاريخ وعدم الاعتراف بالفشل والإصرار على الخطأ واستهجان النقد الذاتي.

يحلل الفصل الرابع معاملة العرب للمرأة، ومازال كثير من الرجال العرب يعارضون حصول المرأة على حقوقها، ويصرّون على سلبها أبسط حقوقها في الاختيار، ويتحايلون لمنعها من تحصيل حقها الشرعي في الميراث، ويحرمونها من حقها بالتعليم والتوظف، فهم في نظرتهم ومعاملتهم لها أقرب إلى أعراف الجاهلية منه إلى تعاليم الإسلام، ونتج عن اضطهاد وحرمان المرأة سلبيات كبيرة على المجتمعات العربية، وانعكس شعورها بالظلم والمرارة في كثرة تذمرها وشكواها واستعانتها بالمكر والتحريض لبلوغ أهدافها، ونتج عن قلة تعليمها وثقافتها غرسها الأفكار والخرافات والعقائد المحرفة والعادات الضارة في أذهان الأجيال العربية المتعاقبة.

يقدم الفصل الختامي خلاصة للنتائج والاستنتاجات، ويخلص إلى بعض التوصيات لتصحيح هذه الانحرافات، والعودة بالمسيرة إلى الطريق القويم المؤدي إلى النهوض بالمجتمعات العربية، وبشرط وجود رغبة حقيقية للتغيير واستعداد لمراجعة الفكر الموروث والسلوك السائد ونقد الذات.

الفصل الأول
التسلُّط لا العدالة

منذ العصر الجاهلي وحتى الوقت الحاضر، احتلّت القوَّة الصدارة بين قيم العرب، وكانت، ولا تزال، الحاجة إلى القوَّة وطلبها دافعاً وحافزاً رئيسياً محرِّكاً لحركة المجتمع العربي، ومكوِّناً لتركيبته ونظامه، ومؤثراً أساسياً في العلاقات بين جماعاته وسلوك أفراده .وهذه ليست صفة خاصة بالمجتمع العربي تميزه من بقية المجتمعات البشرية، إذ إنها موجودة في جميع المجتمعات بدرجات متفاوتة، ومن المرجَّح ظهورها أثناء مرحلة الصيد والرَّعي من مراحل تطوُّر الجنس البشري. ففي تلك المرحلة التي دامت حوإلى أربعين ألف سنة والتي سبقت اكتشاف الزراعة وتأسيس المدن والمجتمعات الكبيرة، كانت القوة هي الأساس المؤطِّر والمحدِّد لمكانة الأفراد والعلاقات فيما بينهم، وعاش البشر في تلك المرحلة في جماعات صغيرة، وكان أقواهم وأكثرهم مهارةً في الصيد يقودهم أثناء الصيد والدفاع عن الجماعة ومنطقتها، ومقابل ذلك كان يستأثر بأفضل الطرائد، وله حصة الأسد من موارد الجماعة ونسائها. وأثناء هذه المرحلة التي دامت زمناً طويلاً يفترض أن البشر اكتسبوا خلاله العديد من القيم والعادات مثل تمجيد القوة، وبخاصَّة القوة البدنية، واحترام الأقوياء والخشية منهم، وهيمنة الأقوياء على الضعفاء، واستحواذهم على الثروات والممتلكات، وحصولهم على مكانة اجتماعية أعلى وتفضيلاً في المعاملة، ونتج عن ذلك أيضاً تسلط الرجال على النساء، وإن كان بعض الباحثين يعتقد أنَّ الوضع مختلف في الجماعات التي اعتمدت في تحصيل غذائها على جمع الجذور والثمار بدرجة أكبر أو بدلاً من الصيد.

فرضت الزراعة التي لم تكتشف إلاَّ قبل حوإلى عشرة آلاف سنة درجة أعلى من التعاون والتنسيق بين الناس ممَّا كان مطلوباً وممارساً أثناء مرحلة الصيد والرعي، إلا أنها لم تلغِ علاقات القوة وقيمها التي اتخذت أشكالاً وأنماطاً جديدة أكثر تعقيداً بين الجماعات الكبيرة التي تأسست بفضل الزراعة، واستندت المدن، ومن ثم الدول والامبراطوريات ومؤسساتها السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، على هيكلية القوة وتوزعها بصورة غير متساوية بين طبقات المجتمع وأفراده.

واجهت المجتمعات الإنسانية، منذ أن وضعت أقدامها على أول درجة من سلَّم التطوُّر الحضاري قبل عشرة آلاف سنة، مهمة صعبة ومعقَّدة، ألا وهي كيفيَّة التعامل مع طلب القوة وتسلُّط الأقوياء من جهة وتوق الآخرين إلى العدالة وسيادة القانون من جهة ثانية، فرفضت النظم الاستبدادية وجود تعارض بين التسلُّط والعدل مؤكِّدة أنَّ التسلُّط حق من حقوق الأقوياء ونتيجة منطقية لكونهم يمتلكون القوة وأنهم وحدهم جديرون بتحديد مفهوم العدالة وكيفية تطبيقه. أمَّا النظم الديمقراطية فسعت إلى تقليص تسلُّط الأقوياء وترشيده، بوساطة القانون والمشاركة الواسعة لأفراد المجتمع في مناقشة الشؤون العامة والتأثير في القرارات الخاصة بها، وذهبت الأفكار الفوضوية إلى أبعد من ذلك عندما دعت إلى إلغاء التنظيمات التسلُّطية المستندة إلى القوة مثل الدولة والكنيسة. أما في المجتمعات العربية فلم يكن العرف القبلي الجاهلي كفيلاً بتحقيق العدالة ومنع التسلّط، وجاء الإسلام ليضع العدالة المتمثِّلة بالشرع والناتجة عن تطبيقه فوق القوة، بحيث تكون القوة تابعة ومسخَّرة لتحقيق هدف العدالة، ولكن -وكما سيتضح في هذا الجزء من البحث -تعثر تطبيق الأنموذج الإسلامي، عندما اعتمد الحكام والحكومات المتعاقبة -منذ وثوب الأمويين إلى سدة الحكم -على القوة بوصفها قاعدةً أساسية لترسيخ سيطرتهم وفرضها، وأعطوا ذلك أولوية مطلقة على جميع الاعتبارات الأخرى بما فيها العدالة.

العصر الجاهلي

كان المجتمع العربي الجاهلي رعوياً، ويُعَدّ المجتمع الرعوي حلقة وسيطة بين مجتمع الصيد وجمع الغذاء البدائي ومرحلة المجتمع الزراعي، وظهر إلى الوجود بعد تدجين بعض الحيوانات، وكان التنظيم الاجتماعي الرئيسي للمجتمع في تلك المرحلة هو القبيلة، والقبيلة مجموعة من الأسر المنتمية إلى أصل واحد، ويشدها بعضها إلى بعض شعور العصبية أو التعصب لقبيلتها، وينظم العرف القبلي غير المكتوب واجبات الجماعات والأفراد ومسؤولياتهم داخلها، وكذلك العلاقات ما بين القبائل إلى حدٍّ ما، ومن هذه الواجبات والمسؤوليات نصرة أفراد القبيلة ضد أعدائها، الغزو والغنيمة والسبي، ومشاركة العشيرة في تحمل جريرة فرد من أفرادها، والثأر، والقصاص، والدخالة، وإكرام الضيف وغير ذلك.

بسبب قسوة البيئة الصحراوية وندرة الموارد الطبيعية، وبخاصَّة الماء والكلأ الضروريين لمعيشة البدوي وقطعانه، تصارعت القبائل العربية، وكانت الغلبة للأقوى الذي حمى لنفسه ولقبيلته مصادر المياه والمراعي الجيّدة، واستعمل هذه القوة في غزو القبائل الأخرى وسلبها، وفرض الأتاوات السنوية عليها. وكان من الطبيعي أن تكون القوة المعيار أو القيمة الأساسية للتنظيمات الاجتماعية، والمكانة والعلاقات والفكر والسلوك، كما يمكن الافتراض بأن قيماً أخرى عديدة تفرَّعت من هذه القيمة الأساسية، وهي قيم مهمة أيضاً، مثل الذكورة أو الرجولة، والشجاعة، والمهارات القتالية، والفروسية. كما ارتبطت بقيمة القوة قيم أخرى ارتباطاً وثيقاً، مثل قيم الفصاحة والبلاغة ونظم الشعر والخطابة، وحتى القيم «الراقية» التي تبدو متسامية على الاعتبارات الفجة للقوة وطبيعتها المادية، مثل الكرم والدخالة والمروءة تم توظيفها في خدمة القوة، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار القوة القيمة الأساسية للمجتمع الجاهلي.

طبَّق العرب، في مرحلة ما قبل الإسلام، قاعدة البقاء للأصلح، بشكلها البدائي، حيث احتكموا إلى القوّة لتحديد مَنْ يستحق البقاء، والأقوياء هم الذين تسيّدوا قبائلهم، وخرجوا فائزين في لعبة الصراع على موارد العيش والبقاء ووسائلهما. أما الخاسرون، وهم الضعفاء أو المستضعفون، فقد كان مصيرهم موالاة الأقوياء وأتباعهم، أو الاستعباد أو المجاعة أو القتل، وفي الغالب كان التنافس بين الجاهليين قاسياً وعنيفاً ودموياً.

وصف جعفر بن أبي طالب أحوال الجاهلية لملك الحبشة النجاشي بما يأتي:

"أيها الملك، كنا أهل جاهليَّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف".

يشير هذا الوصف إلى حالة مضطربة، تميل إلى البدائية والعنف، وتهمنا هنا بالذات العبارة الأخيرة التي تشير صراحة إلى سيطرة الأقوياء، وهيمنة مبدأ القوة والتسلُّط. وقدَّم الشاعر زهيربن أبي سلمى، في أحد أبيات مُعلّقته، دليلاً آخر على أهمية القوة واكتسابها بوصفها ضرورةً من ضرورات البقاء في المجتمع الجاهلي :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يُهدَّم ومن لا يظلم الناس يُظْلَم

فالجميع إذاً بحاجة إلى القوة التي يرمز لها السلاح، وإذا لم تكن لدى الفرد قوة يدافع بها عن نفسه وأهله وماله فإن مصيره الحتمي الضياع أو الهلاك، وليس أمامه في الواقع سوى خيارين: إمَّا أن يكون منتصراً أو مهزوماً، سيداً أو تابعاً، ظالماً أو مظلوماً، فإذا لم يتسلَّط على الآخرين تسلَّطوا عليه وسلبوه ما عنده حتى حياته، ولا يوجد خيار ثالث يخرج عن حتمية هذه الثنائية الاجتماعية.

دامت بعض الصراعات القبلية زمناً طويلاً، بلغ أربعين سنة في حالة حرب البسوس بين تغلب وبكر المتفرعتين أصلاً من قبيلة واحدة هي ربيعة، وكان الدافع من ورائها خلاف حول السيطرة على أراضٍ للرعي، بعد أن بادر كليب إلى احتكار هذه المراعي لأبله، وحرّم على غيره الاستفادة منها، واشتعلت الحرب بعد حادث عقر الناقة المعروف. كما استمرت حرب داحس والغبراء التي نشبت بين عبس وحلفائها من جهة وبني ذبيان من جهة أخرى عشرات السنين، وبدأت الحرب على أثر خلاف حول رهان على سباق للخيل، ولكن سببها الحقيقي هو تعسف زهير بن جذيمة العبسي، وهو سيد غطفان، وفرضه أتاوة سنوية على قبيلة هوازن تدفعها له في سوق عكاظ.

إذا كان التوتُّر والتنافس والقتال سمات مميِّزة للعلاقات بين القبائل العربية في الجاهلية، فإنَّ الحالة الاستثنائية هي السلم والتحالف فيما بينها. ونظراً لكثرة الصراعات والثارات المستمرة بين القبائل، برزت حاجة ماسة إلى السلم ولو لمدّة محدودة أثناء السنة، فاستنَّ العرب عرفاً يمتنعون بموجبه عن الاقتتال وسفك الدماء في الأشهر الحرم، لينعموا بفترة سلام، يستردون فيها أنفاسهم، ويحجون إلى أصنامهم، ويرتادون الأسواق الموسمية فيبيعون ويشترون، وكان التزامهم بهذا العرف قوياً حتى أن الرجل يلقى قاتل أبيه فيعرض عنه ويمسك نفسه عن الأخذ بثأره.

ولجأت القبائل العربية إلى عقد التحالفات في ما بينها، من أجل تنمية قوّتها وتحقيق مصالح قتالية مشتركة، ولم تكن لهذه التحالفات قيمة كبيرة في فترات السلم، ولم تساعد في خلق أجواء من الأمن والاستقرار والتعايش بدرجة تكفي لتكوين تجمعات قبلية كبيرة وديمومتها لفترات زمنية غير قصيرة، فدولة كندة مثلاً نشأت على أساس تحالفات قبلية، لكنها تقوَّضت عندما تغيرت هذه التحالفات وتفككت، وأدت الصراعات داخل دولتي سبأ وحضرموت إلى تدهور المدن والقرى فيهما والتعجيل بانهيارهما، وحتى مملكتي الغساسنة والمناذرة في شمال الجزيرة العربية كانتا ضعيفتين، وخضعتا للدولتين: الرومانية والفارسية. شجع الصراع بين القبائل العربية وعجزها عن توحيد صفوفها الطامعين من جيرانها الأقوياء على محاولة السيطرة على أراضي الجزيرة العربية والاستيلاء عليها، وفي بعض الفترات الزمنية نجح الروم في احتلال مناطق واسعة من شمالها، فيما امتدَّ الاحتلال أو النفوذ الفارسي إلى شرقها وجنوبها حتى بلغ اليمن، وبعد استيلاء الأحباش على اليمن استعملوها قاعدة انطلاق لتسيير جيوشهم إلى الحجاز، ولولا وعورة وسط الجزيرة وضآلة مواردها لطالت أيادي المحتلين جميع ربوعها.

القيم المرتبطة بالقوة والسيطرة

ارتبطت القوة بالثروة ارتباطاً وثيقاً، وكان سادة القبائل الأقوياء هم الأكثر ثراءً، وكان معيار الثروة في البادية ملكية الماشية من إبل وخيل، وفي الحواضر النقود والأراضي والعبيد، وجمعت الثروات في البادية من الرعي والغزو والسلب وفرض الأتاوات، وكان للسادة حصة الأسد من أسلاب الغزو، والقوة ضرورية من أجل المحافظة على هذه الثروات من الأعداء المتربّصين للاستيلاء عليها، وكذلك للاستحواذ على مراعٍ جيدة ومصادر مياه غزيرة، وكان الغنى أيضاً صفة ملازمة للسيادة في القبائل المستقرة في الحجاز واليمن وشمال الجزيرة العربية. ويشير برهان الدِّين دلو إلى الأهمية القصوى للمال في تحديد زعامة مكة والوجاهة فيها فقد أثرت قريش، وبالتحديد نخبة من عوائلها، بفضل التجارة، فأصبح تجارها الأغنياء هم سادتها، و"كان يدير دار الندوة (الملأ) كبار التجار والمرابين وزعماء الأسر الغنية ".[1]

---

[1] برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الاسلام، التاريخ الاقتصادي الاجتماعي الثقافي السياسي، بيروت: دار الفارابي، 1989، الجزء الثاني، ص 364 .

وتتضح أهمية الثروة من الأبيات التالية للشاعر الجاهلي عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرُّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليه
وإن أمسى له حسبٌ وخير
ويقصيه الندي وتزدريه
حليلته وينهره الصغير

عاش أغنياء العرب حياة ترف ورفاه وبذخ وإسراف، ولبسوا الملابس الفاخرة والناعمة، وتناولوا ألذَّ الأطعمة، وابتنوا الدور الفارهة، وأثَّثوها بأغلى الأفرشة، واتخذوا زوجات عديدات، فكان لهم ندماء وحشم وخدم وعبيد وإماء، في الوقت الذي كانت فيه غالبية العرب تعيش عيشة كفاف أو فقر مدقع، يموت العديدون منهم كلما حلَّ بهم قحط أو جدب، ولجأ بعض منهم إلى وأد بناتهم وأولادهم خوفاً من الفقر، وما يجرُّه من عار عليهم، نتيجة امتهان بناتهم البغاء، واضطرارهم إلى الاقتراض من المرابين بفوائد فاحشة أو التذلل إلى السادة الأغنياء للحصول على عطائهم. وكان منهم مَنْ يفضِّل الموت جوعاً على مذلة سؤال الآخرين، فيقومون بإغلاق أبواب بيوتهم على أنفسهم في أيام القحط حتى يهلكوا جوعاً، وعرف ذلك بالاعتفاد، وهذا دليل آخر على أهمية القوة وما يرتبط بها من قيم مثل الثروة والسمعة.

كانت الثروة وسيلة فعَّالة بيد الأثرياء لكسب ولاء الآخرين من خلال تقديم العطايا والهبات لهم، وحاول سادة قريش، من دون جدوى، إغراء رسول الإسلام بالتخلي عن دعوته مقابل أن يؤمِّروه عليهم وما يوفره ذلك من قوة وثروة، واشترى السادة والأقوياء ألسنة الشعراء بالمال، فكانوا يهبونهم الأموال مكافأةً على مدحهم ولثنيهم عن التفكير بهجائهم، كما ارتبطت قيمة الكرم ارتباطاً قوياً بالقوة والسيطرة، فمن البديهي أن يكون الغني هو الأقدر على ممارسة هذا العرف النبيل، أما الفقير فبالكاد كان قادراً على تحصيل كفاف يومه وسدّ رمقه ورمق عياله، وامتاز الكريم بمكانة رفيعة بين قبيلته وسمعة طيبة بين أفرادها، وكل ما كان يعزز مكانة الرجل الاجتماعية ويرفع من ذكره لا بدَّ من أن ينعكس إيجابياً على قوته ونفوذه، فكان الغني الكريم يكسب الثناء والولاء نتيجة كرمه، وأوضح أشهر كرماء العرب حاتم الطائي لابنته هذه الحقيقة، أي الارتباط بين الكرم والسيادة، بعد أن لامته على إسرافه في الكرم:

يقولون لي: أهلكت مالك فاقتصد
وما كنت، لولا ما يقولون، سيِّدا

فهو يؤكد لها ولغيرها من اللائمين بأنه لولا كرمه لما اعترف له الناس بالسيادة، وبفضل كرمه عمت سمعته أطراف الجزيرة، وصار مضرباً للمثل في الكرم حتى يومنا الحاضر.

وميَّز الإسلام بين نوعين من العطاء والكرم :الأول يصنعه الإنسان طلباً للمكانة الرفيعة والسمعة العطرة بين الناس، ويحصل على جزائه وثوابه كاملاً في هذه الدنيا من خلال مديح الناس له وعلوّ مكانته بينهم، وهذا الكرم مدفوع بأغراض ذاتية ودنيوية بحتة، ويختلف بالتالي عن النوع الثاني الذي دعا إليه الإسلام، وهو العطاء والكرم لوجه الله ومن أجل مرضاته، ولا جدال في أن الكرم الجاهلي كان من النوع الأول المرتبط باعتبارات الحصول على القوة والمكانة.

نظراً لأهميَّة القوَّة عند العرب، وضعوا الرجال الشجعان في مرتبة اجتماعية عالية، ونظروا إليهم بخوف ممزوج بإعجاب واحترام بالغين، وهذا أمر مفهوم ومسوَّغ، لأن وجود هؤلاء الشجعان ضرورة يفرضها التناحر والتصارع بين القبائل، فهم أشبه بأسلحة الدمار الشامل في زمننا، رادع فعال للذين يفكرون بالاعتداء على القبيلة، وسلاح فتاك في حروبها، وكان هؤلاء الأبطال الشجعان، كما تصفهم المأثورات الشعرية والروايات المتناقلة، يتسابقون إلى ساحات الوغى متقدِّمين الصفوف،

ويشكلون طلائع المهاجمين أو المدافعين، ويحثون الآخرين على اللحاق بهم، وهم أول من يتصدَّى لمبارزة صناديد الأعداء، وربما قتلوا منهم في المبارزات ما يكفي لإرهاب بقيتهم ودفعهم إلى التراجع أو حتى الانكسار، وكانت قوة أفراد قبيلة ما وشجاعتهم تقاس بشجاعة أبطالها وإقدامهم، وقد كان لمقتل أبطال الكفار من قريش في معركة بدر تأثير حاسم على نتيجتها، وتعرض هؤلاء الكفار لصدمة كبيرة بعد مقتل بطلهم في واقعة الأحزاب أو الخندق، وساعد مقتل أحد زعماء اليهود في واقعة خيبر في انتصار المسلمين.

برز بين شجعان العرب في العصر الجاهلي بطل ظلَّ اسمه مشهوراً حتى اليوم، بل قد يكون هو أكثر الجاهليين شهرةً، ولا يزال العرب يرددون اسمه، ويضربون به المثل في الشجاعة والإقدام، وهو عنترة بن شدَّاد. وكان عنترة هذا ابن أمة سوداء، استعبده قومه وفقاً لعادتهم في استعباد أبنائهم من الإماء، ولكنه تمكَّن بفضل شجاعته وبطولاته من الارتقاء من المكانة المتدنِّية والوضيعة للعبيد السود إلى مرتبة السيد المقدم المطاع في قبيلته، التي أصبحت معتمدة عليه في معاركها، وتحرر بذلك من أداء الأعمال المرهقة التي يكلف بها العبيد عادة مثل رعي الإبل والعناية بها والخدمة. وتؤكد قصة عنترة على الأهمية الكبرى لقيمة الشجاعة المرتبطة بقيم القوة والسيطرة والسيادة في المجتمع الجاهلي، وهذا ما أكدته أيضاً أشعار الجاهليين، التي مدحوا فيها الشجعان، وتغنوا ببطولاتهم، وأطنبوا في ذلك إلى حدِّ المبالغة، معبرين بذلك عن عمق احترام مجتمعهم للشجاعة والأبطال، ولم يختلف العرب الجاهليون في ذلك عن غيرهم من الأقوام القديمة مثل البابليين والفرس والإغريق والرومان الذين وضعوا أبطالهم في مراتب رفيعة، بل رفعوهم إلى مصاف الآلهة أو أشباه الآلهة.

نظراً لأهمية القوة القتالية في الدفاع عن القبيلة وممتلكاتها، حرص أفرادها على تعلُّم وسائل القتال وفنونه وإتقانها، مثل: ركوب الخيل والمبارزة والكر والفر واستعمال الأسلحة المختلفة، مثل السيف والرمح والرمي بالنشاب، وقام الرجال بتدريب الفتيان من أفراد القبيلة على هذه الفنون، واهتموا بذلك إلى حد كبير لكي يجهِّزوا جيلاً جديداً من المقاتلين، وكانت المشاركة في القتال الفارق الرئيسي بين الرجال والفتيان، وربما دفع ذلك بعض الفتيان إلى الاستعجال بالمشاركة في المعارك في وقت مبكر وقبل اكتمال قدراتهم البدنية ومهاراتهم القتالية.

لأن الرجال وحدهم شاركوا في القتال كان من الطبيعي أن تكون للرجولة أو الذكورة قيمة اجتماعية مهمة، فمن المؤكد أن مكانة الذكور في المجتمع الجاهلي كانت أعلى بكثير من مكانة الإناث، بل لا مجال للمقارنة، إذ اختص الذكور أنفسهم بالممتلكات والموارد والحقوق، فيما حرمت الإناث منها، ومارس الرجال سلطات كاملة وسيطرة شبه مطلقة على أفراد عائلاتهم من الإناث، وسُمِّي الأب برب الأسرة، واقتران اسمه بالأرباب أو الآلهة أكبر دليل على عظمة مكانته ورفعتها. فقد سيطر على أفراد عائلته، وتصرَّف بهم وبمقاديرهم كما شاء، لا يُسأل ولا يحاسب على ذلك، مهما تعسف بهم أو قسا عليهم، وكان يحقُّ له عرفاً أن يئد أولاده خشية الفقر أو غير ذلك، وبالأخص البنات منهم .وترتبط عادة وأد البنات بقيمة القوة أيضاً، فمن الواضح أن المولودات الإناث هنّ أقل الأفراد قوة على هيكل القوة في المجتمع الجاهلي، بل إنهن معدومات القوة، والجميع متسلطون عليهن، والإناث بشكل عام أقل قوة من الرجال لأنهن لا يمتلكن مقومات القوة الرجولية مثل القوة البدنية، ولا يشاركن في نشاطات الرجال التي يستمدون منها قوتهم وسيطرتهم مثل القتال والفروسية والكرم، وكان الرجال في الجاهلية يحرمون النساء من الميراث، لذا كانت حاجة المجتمع إلى المولودات الجدد هي بأقل درجة نسبية، وبخاصَّة في أوقات القحط والعسر وضيق الحال، وبالتالي تركوا تقرير مصيرهن إلى آبائهن، وربما دفع الفقر الآباء إلى وأد أولادهم من الذكور، ولكن احتمال حدوث ذلك أقل بكثير من وأد البنات.

بالإضافة إلى القوة البدنية، والشجاعة، ومهارات القتال، والثروة والرجولة كان لسان المرء إحدى وسائل القوة والمكانة في المجتمع الجاهلي، واكتسب العديدون قوة بفضل مهاراتهم اللغوية، وفصاحتهم، وقدراتهم الشعرية والخطابية، وحصلوا على حظوةٍ خاصة لدى ملوك العرب وأمرائهم وسادتهم، الذين اتخذوا من بعضهم ندماء ومرافقين، واستقبلوهم بحفاوة في مجالسهم وأغدقوا عليهم العطايا والأموال، واسترضوهم بالهدايا القيِّمة ليحصلوا على مديحهم ويأمنوا هجاءهم، وحرص العرب، وبخاصة سادتهم، على تنمية مهارات أولادهم اللغوية، فكان عرب المدن مثلاً يرسلون أولادهم إلى البادية ليخشوشنوا ويتعلموا الفروسية والفصاحة والشعر.

عكست موضوعات الشعر الجاهلي قيم ذلك العصر، ومن أهمها بالطبع قيم القوة والسيادة والتسلُّط، وما يرتبط بها أو يتفرَّع منها من قيم وعادات وتقاليد، وبالتالي فقد حفلت قصائد الشاعر الجاهلي بمدح قبيلته وسادتها وأبطالها، وبيان عراقة أصلها وكرم أهلها ونخوتهم وبلائهم في المعارك، وغالباً ما كان المديح مبالغاً فيه إلى درجة تمجيد النفس والأهل وتنزيههم عن الأخطاء والمثالب، والهدف من ذلك إعلاء مكانة القبيلة بين القبائل، الأمر الذي يدفع قبائل أخرى إلى طلب ودها ومهادنتها والتحالف معها ويرهب أعداءها ويدفعهم إلى التردد في التعرض لها أو منافستها على الماء والكلأ. ومن ناحية أخرى كان سلاح الهجاء المصلَّت من قبل الشاعر الجاهلي لا يفوقه تأثيراً سوى أسلحة القتال، فكان يسلق بشعره أعداء القبيلة، ويذم أصلهم، ويحقر سادتهم، ويسخر من أبطالهم، ويشخص عيوبهم، ويكشف عن هزائمهم وكل ما يجر الخزي والعار عليهم، ولا يتوانى في ذلك عن الإسفاف أحياناً فيسب ويلعن ويشنع، لذا فقد كان الهجاء أشد ما يخيف سادة العرب ويحسبون له ألف حساب، وقد دفع بعض الشعراء ثمناً باهضاً لتجرئهم على هجاء الملوك والسادة مثل عروة بن الورد الذي قتل بسبب ذلك، ونظراً لأهمية الشعر والشعراء استمع لهم الناس في الأسواق الموسمية مثل عكاظ، وحفظ الناس الشعر وردَّدوه، كما تجلَّت أهميته في تعليق بعض القصائد العصماء لأشهر الشعراء على الكعبة، وهي المعروفة بالمعلَّقات.

القوة والتنظيم القبلي

انعكست قيم المجتمع الجاهلي على هيكل القبيلة وتنظيمها، حيث احتلَّ الأقوياء من سادة القبيلة وأثريائها المرتبة العليا، واستحوذوا على جميع مصادر القوة ووسائلها، من رئاسة وأموال وقطعان ماشية وأسلحة، وتمكنوا بفضل هذه القوة من إحكام سيطرتهم على أفراد القبيلة وشؤونها، وحصروا جميع سلطات اتخاذ القرار بأيديهم، بما في ذلك القرارات الخاصة بالقتال والتحالف والصلح والارتحال والاستقرار وغير ذلك، وكل من يجرؤ على مخالفتهم أو عصيانهم يعرض نفسه للعقوبة، واكتسب هؤلاء السادة مكانة متميِّزة داخل قبائلهم، واضعين أنفسهم فوق بقية أفراد القبيلة، فإذا خالفوا العرف القبلي لم يعاقبوا بالشدة عينها التي يعاقب بها المخالف أو المسيء من غير السادة، كما أن دية قتلاهم تفوق بكثير ديات الآخرين، ويتضح هذا التمييز في النظرة والمعاملة بين السادة وما دونهم في سلوك عمرو بن هند الذي حلف بأن يقتل مئة من بني دارم ثأراً منهم لقتلهم أخيه سعد، ونفذ وعده بالفعل، فكانت المعادلة الثأرية هي أن سعد بن هند يساوي مئة من بني دارم، كما تفاخر عمرو بن كلثوم في معلقته بقتل عمرو بن هند لمجرد أنه أساء معاملة والدته، فقال:

إذا ما الملكُ سامَ الناسَ خسفاً

أبينا أن نقر الذل فينا

بالإضافة إلى قوَّتهم الشخصية ومهاراتهم القتالية وأعوانهم الكثيرين اعتمد السادة في حماية مراكزهم ومصالحهم، على أولادهم وأقاربهم، ولأن للسلطة والقوة قيمة عليا، كان من الطبيعي أن يشتدَّ التنافس عليها، وأن يحاول الأقوياء تسلّق الهرم الاجتماعي إلى قمته وإزاحة من يقف في

طريقهم، ويتم ذلك داخل القبيلة باستعمال طرق التنافس السلمي ووسائله، مثل اقتناء الثروات من ماشية وعبيد، وشراء النفوذ، وعقد التحالفات، وبذل العطاء، والكرم، واجتذاب مدح الشعراء وتجنُّب هجائهم، والاستبسال في القتال وغير ذلك. ويروى أن مثل هذا التنافس كان موجوداً داخل قريش قبل الإسلام بين بني هاشم وبني أمية من بني عبد مناف. ومن الممكن أن يحتدم الصراع حول السيادة أو الرئاسة داخل القبيلة إلى حد العنف وإراقة الدماء، وإذا لم يستتب السلم سريعاً، وتعود اللحمة إلى صفوف القبيلة، فإن من المحتمل أن تنشطر إلى فئتين متصارعتين، حيث تعمد الفئة المنشقة إلى الانفصال عن القبيلة والاستقلال تحت قيادة جديدة، وتجدر الإشارة إلى أن انقسام القبائل إلى قبائل ووحدات أصغر ظاهرة متكررة في المجتمع الجاهلي، وظلت مستمرة في المجتمعات القبلية حتى وقتنا الحاضر، وهي نتيجة حتمية لطبيعة المجتمع البدوي وظروف الحياة في البادية وبالتحديد ندرة موارد العيش ووسائلها والبقاء فيها بشكل عام وفي أية منطقة جغرافية محددة بالذات، حيث تصبح هذه الموارد غير كافية للجميع بعد ازدياد عدد أفراد القبيلة، فيشتد التزاحم والتنافس حول هذه الموارد المحدودة، والذي يؤدِّي بدوره إلى الانقسام، وبذلك تحافظ كل وحدة قبلية على كثافة سكانية تتناسب مع وفرة الموارد في ديرتها.

بالمقارنة بهؤلاء السادة كان أفراد القبيلة العاديّون لا يمتلكون صوتاً أو تأثيراً على القرارات المصيرية للقبيلة، والتي يتخذها السادة، ولم يكن السادة يستشيرونهم في هذه الأمور، وكانت قرارات الحرب والسلم تفرض عليهم فرضاً، فلا يجرأون على معارضتها، وإلاَّ تعرضوا لغضب السادة ونقمتهم، بما في ذلك الطرد من القبيلة وفقدان حمايتها وكل المزايا والفوائد المرتبطة بذلك، وبالتأكيد فقد كان أفراد القبيلة من غير السادة أقل قوةً وأقل ثراءً، وكان همهم الأول والأخير تأمين معاش أسرهم، واضطرَّهم ذلك أحياناً إلى كسب رضا السادة طمعاً في عطائهم وكرمهم؛ وذلك من خلال إبداء مظاهر الولاء لهم وتعظيمهم، وكانوا هم أول ضحايا المجاعات والأوبئة والحروب وآخر المستفيدين في أيام الرخاء، ويستدل على ضعف مكانتهم من تأكيد ظافر القاسمي أنَّ عرب الجاهلية كانوا يتركون المريض والكبير والضعيف ويرتحلون عنهم عندما تقلُّ موارد العيش[2]، وهم في ذلك لا يختلفون عن الأقوام البدائية، مثل بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا.

شغل العبيد الطبقة الأدنى من المجتمع القبلي الجاهلي تحت سادة القبيلة وفقرائها، ولم يمتلك هؤلاء أيَّ نوع من القوة، بل كانوا هم من جملة وسائل قوة السادة ومواردهم، الذين امتلكوا مطلق الحق في التصرُّف بهم، وبالإضافة إلى تسخيرهم في الأعمال اليدوية الشاقة التي يستنكف من أدائها أحرار القبيلة، استخدمتهم بعض القبائل مثل قريش في تشكيل قوة عسكرية من المرتزقة، كما تاجر بهم بعض السادة، واتجر بعضهم الآخر بأجساد الاماء وحصلوا أجورهن.

نشأت، في موازاة المجتمع القبلي الجاهلي، وحدات صغيرة متفرّقة تكونت من أفراد القبائل المبعدين والمطرودين من قبائلهم لأسباب شتى، وكان ولا يزال الإبعاد عن القبيلة والأهل من أشدِّ العقوبات في العرف القبلي منذ أن فرضت هذه العقوبة على قابيل جزاء قتله أخيه، فإذا تمرَّد الفرد على أعراف القبيلة أو اقترف جريرة مرات عديدة وأصرّ عليها فإن سادة القبيلة يحكمون عليه بالطرد منها، ويسمَّى الطريد بالخليع، ويعلن قرار الخلع على الناس في المواسم والأسواق العامة، واضطرَّ هؤلاء الخلعاء المنبوذون إلى اللجوء إلى حماية قبائل أخرى أو الالتحاق بجماعات الصعاليك، وهي جماعات منظمة أو شبه منظمة مثل جماعة الصعاليك تحت قيادة عروة بن الورد، وكانوا يغيرون على القبائل ويقطعون طرق القوافل فينهبون ويسلبون لتحصيل معاشهم، ولم يختلف الوضع داخل هذه الجماعات عن القبائل من حيث سيطرة القوي وتقدمه في السلطة والمكانة على الآخرين.

---

[2] ظافر القاسمي، الحياة الاجتماعية عند العرب، بيروت: دار النفائس، ص 26.

الإسلام: العدالة بدلاً من التَّسلُّط

جاء الإسلام بعقائد ومبادى وأخلاقيات وأوامر ونواهٍ للفكر والسلوك تناقض الكثير من قيم المجتمع الجاهلي وأعرافه وعاداته وتقاليده، وتنسف قيمة التسلُّط لتضع محلها قيم العدالة والمساواة، فالإسلام أمر بالعدل والإنصاف، ومعاملة الجميع بالقسط، أي بالعدل، حتى لو كانوا من الأعداء، ودعا إلى المساواة وعدم التمييز في المعاملة على أساس القوة أو الحسب أو النسب لأن الجميع متساوون كأسنان المشط، وكل نعمة هي من عند الله واختبار للإنسان، وأكرم الناس عند الله هو أتقاهم، وألغى الإسلام امتيازات المكانة الوراثية للسادة والأقوياء، إذ الكل لآدم وآدم من تراب، ولم يعترف بحقهم في السيطرة على الضعفاء واستضعاف الناس، وأكد على تطبيق الشرع أو القانون على الجميع بالتساوي، بل إنه قلب العرف الجاهلي رأساً على عقب فارضاً على الرقيق نصف عقوبة الحر من السادة وغيرهم آخذاً في نظر الاعتبار في خطوة غير مسبوقة في تاريخ البشرية ظروف حياة الرقيق وما يتعرض له من ضغوط صعبة وما يستدعيه العدل من تخفيف للعقوبة على المخالفة الصادرة عنه. وفي الوقت نفسه توعد السادة الأقوياء الظالمين بأشد العقوبات في الدنيا والآخرة، ومنع كل إساءة لاستعمال القوة من قبل الأقوياء مثل الربا والرشوة وكنز الذهب والفضة، وتفضيل الأقارب والأعوان والمحاسيب، وحرّم كافة مظاهر القوة التي تفاخر وتباهى بها الأقوياء المتسلِّطون، وميزوا بها أنفسهم عن الآخرين مثل التبذير، فوصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين، والتبذير هو كل نوع من الإسراف في الاقتناء أو الاستهلاك مثل تشييد القصور والدور الفخمة، ولم يعد باستطاعة الأقوياء إظهار ثرواتهم من خلال لبس الملابس الحريرية الفاخرة وتناول الطعام بآنية من فضة أو ذهب، كما ذَمَّ المتكبرين والمختالين والفخورين، وحثَّ على التَّواضع ونصرة المظلومين وتحرير الأرقَّاء.

سدَّد تحريم الإسلام للغزو والسلب والنهب ضربة قاصمة إلى كيان المجتمع البدوي الجاهلي، إذ عدَّه لصوصية وعدواناً وإفساداً في الأرض، يعاقب مرتكبها بأشد العقوبات، وكانت تلك خطوة كبرى نحو قلب حياة الأعراب في البادية، وذلك من خلال التخلص من مشاعر العداء والتقاتل بينهم تمهيداً لبناء مجتمع التعاون والتآخي، وجاءت شعائر الإسلام الأخرى، من وضوء وطهارة، لتدفع البدوي بعيداً عن نمط حياته الذي اعتاد عليه وتحبِّب له الاستقرار.

أما قيم الجاهلية وتقاليدها التي لم يلغها الإسلام، مثل الكرم والفروسية والشجاعة والفصاحة والشعر، فقد اشترط أن تستفيد منها الجماعة وليس الفرد وحده، فالكرم يجب أن يكون تقرُّباً لله وعوناً للمحتاجين من المسلمين، والجهاد للدفاع عن الأمة، ولا يجوز للمقاتل أن يستعمل قوته ومهاراته في العدوان على الآخرين.

باختصار، سعى الإسلام إلى إلغاء تسلُّط الأقوياء في المجتمع الجاهلي، ودعا إلى تقويض قاعدة القوة التي استندوا إليها معتبراً التسلط وطلب القوة من أجل ذلك سبباً رئيسياً للتخلّف الاجتماعي والظلم والحرمان، وكان ذلك المدخل الرئيسي لخطة ومنهج التغيير الاجتماعي والاقتصادي للدعوة الإسلامية التي تهدف إلى استبدال المجتمع الجاهلي المتخلّف بمجتمع جديد مبني على أسس العدل والمساواة والمسؤولية الجماعية. ولم تخف على سادة المجتمع الجاهلي أهداف الدعوة الإسلامية، فانبروا لها أولاً بالمعارضة الكلامية النشطة والاستهزاء بها وبالرسول وتكذيبه واتّهامه بمختلف التهم الباطلة. وعندما فشلت هذه الوسائل لجأوا إلى قوة السلاح، وقاد هذه الحملة الشعواء ضد الدين الجديد سادة قريش الذين أغاظهم وصف وتحليل الإسلام لإجحاف السادة بحق الضعفاء والمستضعفين وانطباقهما تماماً على ممارساتهم، وخشوا من أن تقوض تعاليم هذا الدين الأساس المادي والمعنوي لمراكزهم الاجتماعية ومصالحهم التجارية والعقارية، وتحرمهم من مصادر قوتهم وثروتهم مثل الربا والتكسب من الدين واستغلال الأرقاء وبيع أجساد الإماء، وأحسُّوا بدنو الخطر منهم بعد أن

اجتذب الدين الجديد ضعفاء قريش من عديمي الحيل والقوة ومواليها وعبيدها، ولم تترفع صفوة قريش من أمثال أبي سفيان وأبي جهل عن استخدام جميع الوسائل الدنيئة من إرهاب وتعذيب ومقاطعة اقتصادية ومحاولات اغتيال وقتل ومؤامرات وحروب في سبيل قمع الدعوة الإسلامية. وفعلت كل هذا لأنها، كما وصفها طه حسين، تزدري القيم وتبيح لنفسها كل شيء[3]: " كان السادة من قريش على أقلِّ تقدير ينظرون إلى الدين على أنه وسيلة لا غاية، وإلى هذه الأوثان على أنها أسباب لكسب الرزق وبسط السلطان لا أكثر ولا أقل، وكان السيد من قريش رجلاً، أثراً، شديد الطمع، بعيد الهمة، عظيم المكر، داهية."

كان سادة قريش إذاً حريصين على مكانتهم وسلطانهم وثرواتهم وليس على دينهم وأوثانهم إلاَّ لكونها وسائل للاسترزاق، لذا تصدّوا بجميع الوسائل لإفشال الدعوة، وعمدوا في بادىء الأمر إلى محاولة إيقاف الدعوة وصرف صاحبها بالطريقة التي يفهمونها واعتادوا عليها، فقد تصوروا مخطئين بأن أهداف الرسول لا تختلف عن أهدافهم، وهي اكتساب القوة والتسلط والمكانة الاجتماعية، لذا عرضوا عليه الملك والسيادة عليهم مقابل تخلِّيه عن الدعوة، لكنه رفض، فلجأوا إلى المقاطعة والحصار الاقتصادي، ولما فشلت هذه المحاولة أيضاً تحول سادة قريش إلى العنف والقسوة، وصبُّوا جام غضبهم وانتقامهم على الضعفاء والعبيد الذين آمنوا بالدين الإسلامي، وشارك بعض السادة في عمليات التعذيب والقتل، ولم يمض وقت طويل حتى بدأوا بالتفكير ثم بالتَّخطيط لاغتيال الرسول، وكان مصير ذلك الفشل أيضاً، وتزامن ذلك مع هجرة الرسول والمسلمين إلى يثرب.

في يثرب، أو المدينة المنورة، شيَّد الرسول نظاماً اجتماعياً جديداً على أساس مباديء الإسلام وقيمه، ووضع قواعد الحكم والسلطة، فالكل راعٍ ومسؤول عن رعيته، والأمور شورى بين المسلمين، والعدل أساس الحكم، والظلم إذا دام دمَّر، وأفضل الجهاد كلمة حق في حضرة سلطان جائر، والمؤمنون مطالبون بالتصدِّي للظالم، وبأن لا يهابوا وصفه بصفته ومخاطبته بـ "يا ظالم" لأن البديل هو خراب الأمة، بل عليهم إيقافه عند حدّه، وطبَّق الرسول مبدأ أخوة المؤمنين على المهاجرين والأنصار متجاوزاً في ذلك العصبية القبلية والعائلية ذات السلبيات المعروفة إلى المجال الرحب والأوسع للتآخي بين الغرباء حسباً ونسباً والمتآخين فكراً وعقيدة ومصيراً، وتلك كانت خطوة عبقرية لم يسبق لها مثيل في التاريخ، نسفت العصبية القبلية، بل جميع أنواع العصبيات، من جذورها، وأعادت بناء التنظيم الاجتماعي في مجتمع المدينة المنورة، والعلاقات بين المسلمين، وكذلك العلاقات بينهم وبين غير المسلمين على قواعد متينة من السلم والإلفة والتعايش والتعاون في خدمة المصالح المشتركة.

طوال هذه المدَّة لم يهدأ بال كفار قريش، فسعوا لزعزعة مجتمع المدينة المنورة من الداخل بالتآمر مع اليهود، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، فعمدوا إلى القتال، وفي موقعة بدر نجح المسلمون على قلّتهم في تجاوز حواجز الخوف التي غرسها المجتمع الجاهلي في صدور الضعفاء والمستضعفين، وانتصروا على جيش مكة، ثم توالت انتصارات المسلمين حتى تم لهم فتح مكة، وتأمين شروط الاستقرار والديمومة للكيان الإسلامي. ويبدو أن بعض سادة قريش وغيرهم تحولوا بعد هزيمتهم النهائية إلى أسلوب المنافقين المبني على قاعدة: «إذا لم تستطع التغلب عليهم التحق بهم»، وكانت صفوف المسلمين في المدينة تضمُّ عدداً من المنافقين، الذين كانوا يكيدون للإسلام

---

[3] طه حسين، الفتنة الكبرى، 1، عثمان، القاهرة: دار المعارف، 1996، الطبعة الحادية عشرة، ص81 .

والرسول والمسلمين، وخذلوهم عند المجابهة، ولكن الرسول عاملهم معاملة حسنة وتلطف بهم آملاً في اهتدائهم[4].

كانت إنسانية العقيدة الإسلامية واضحة ودعوتها صريحة إلى تأسيس مجتمع جديد يستبدل علاقات القوة والتسلط بروابط التآخي والمساواة والتعاون، إلا أنَّ القيم الجاهلية كانت متغلغلة في نفوس البعض، ومسيطرة على فكرهم وسلوكهم، فاستمرُّوا في التفكير وإبداء الرأي والتصرف وفقاً لقيم الجاهلية وتقاليدها، وجاهد الرسول في سبيل إزالة هذه الرواسب من نفوس المسلمين، وتصدى لجميع الانحرافات الفكرية والسلوكية بالنصح والوعظ والتصحيح، فعندما اختلف مسلمان أحدهما مهاجر والآخر أنصاري، وكادا يقتتلان، نهاهما عن ذلك، مبيناً لهما وللجميع بأن هذا التصرف وأمثاله من بقايا عصبية الجاهلية النتنة، وعندما بدرت من أحدهم ملاحظة عنصرية تحقِّر السود وبَّخه ودعاه إلى تقويم نفسه وفكره، وعندما سمع بأن رجلاً من الأزد استعمله على الصدقة يقول "هذا لكم، وهذا أهدي لي" صعد على المنبر وقال: "ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي، ألا جلس في بيت أمه أو أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده لا ينال أحدكم منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة، يحمله على عنقه.."[5]، وبهذه الموعظة البليغة والموقف الصريح الواضح حذَّر الرسول من استغلال المناصب للحصول على المنافع الشخصية من أموال ومكانة وتسلط، وهذه أمثلة قليلة على جهاد الرسول المستمر من أجل إزالة القيم والعادات السلبية الموروثة من عهد الجاهلية، ولكن وعلى الرغم من هذا الجهد العظيم ووضوح العقيدة الإسلامية وتسامي قيمها على قيم الجاهلية كان منظر أسلاب القتلى من كفار قريش أقوى جذباً وأشد تأثيراً على نفوس بعض رماة المسلمين الموجودين فوق جبل أحد، فخالفوا أوامر الرسول بعدم ترك مواقعهم حتى انقضاء المعركة؛ الأمر الذي أدى إلى هزيمة المسلمين، وبرزت القيم والاعتبارات الجاهلية في اعتراض بعض المسلمين على صلح الحديبية وعلى تأميره لزيد بن حارثة وفي ما بعد لابنه أسامة على قوات المسلمين.

عصر الخلافة الإسلاميَّة

ظهرت العصبيات القبلية، وأطلَّ رأس مبدأ القوة والسلطة على المجتمعين في السقيفة لاختيار خلف للرسول بعد وفاته، وشهد الاجتماع أول خلاف رئيسي بين المسلمين، وكان موضوع الخلاف الخلافة، فادَّعت كلٌّ من جماعتي المهاجرين والأنصار بأنها الأحقُّ بالخلافة، واحتدم النقاش بينهما، واستند الأنصار في دعواهم على أنهم أووا المسلمين ونصروا الرسول بعد أن هاجر إليهم، ومن الواضح أنَّهم كانوا يفكرون بوصفهم مجموعة أو فئة ضمن جماعة المسلمين، ولم يستنكر المهاجرون هذا التفكير الفئوي بل أكدوا على أحقيتهم هم بالخلافة لأنهم السابقون إلى الإسلام والمهاجرون المضحون بأموالهم وديارهم، واقترح الأنصار حلاًّ وسطاً هو أن يتولى الخلافة شخصان أو أميران أحدهما من المهاجرين والثاني من الأنصار، إلا أن المهاجرين رفضوا ذلك، ولو لم يكن الاستحواذ على السلطة مهماً بالنسبة للطرفين لرضوا بحلول وسط مثل إمارة ثنائية أو حتى جماعية على غرار الملأ في قريش.

---

[4] A. J. Rustum and C.K. Zurayk (Eds).1940. **History of the Arabs and Arabic Culture**. Beirut: American Press, p. 61.

[5] احمد عبد الرزاق احمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، دراسة عن الرشوة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص21 .

دلّت مداولات السقيفة، وحدّة التنافس بين المجتمعين فيها على منصب الخلافة، على أهميَّة القوة والاستحواذ عليها إن لم يكن لفرد على وجه التحديد فلفئةٍ معينةٍ من دون غيرها، علماً بأنَّ الإسلام فرض شروطاً عديدة وصعبة على ممارسة السلطة داخل المجتمع الإسلامي إلى درجة كان يتوقع معها أن يتردَّد الكثيرون منهم في قبول السلطة تخوّفاً من عدم استطاعتهم الإيفاء بهذه الشروط، وإذا كان اجتماع السقيفة قد نجح في اختيار أبي بكر خليفة على المسلمين فإنه عجز عن إرساء الأسس المقبولة لتداول السلطة في النظام الإسلامي وتوضيحها، وهذا ما أكدته الخلافات الدموية التي نشبت في ما بعد.

كانت الردة ثاني تحدٍ كبير للنظام الإسلامي بعد اختيار خليفة الرسول، ويشير شكري فيصل إلى أن الردة شملت سكان العديد من المناطق في أطراف الجزيرة ووسطها باستثناء المناطق التي شهدت ظهور الدعوة وانتشارها في البدء[6]، وأُطلقت تسمية الردة على فئتين خرجتا على النظام الإسلامي، ضمت الأولى أتباع أدعياء النبوة مثل مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية، وهؤلاء فارقوا الإسلام في اعتقادهم بنبوَّة هؤلاء الأدعياء الذين استعملوا دعوتهم من أجل الحصول على القوة والتسلُّط على الناس، أما الفئة الثانية فضمَّت الذين رفضوا دفع الزكاة للخليفة أبي بكر، وكانوا يدفعونها في السابق إلى الرسول، ووصفها رستم وزريق بأنها تمرُّد سياسي قبلي لجماعات التزمت بجميع التعاليم الإسلامية ما عدا دفع الزكاة[7] .وجهت الخلافة الجيوش لمحاربة الفئتين، وانتصرت عليهما، وأرست دعائم الخلافة بذلك، وظلت وصمة الردة تطارد المرتدين حتى بعد عودتهم عن الارتداد، إذ رفض الخليفة أبو بكر استعمالهم في حروبه، وخفف الخليفة عمربن الخطاب من هذا الحظر، ولكنه لم يُلغَ حتى تولى عثمان بن عفان الخلافة.

وسَّعت الفتوحات في العراق وفارس والشام ومصر من دائرة سلطات الخلافة، وأضافت إليها أهمية وخطورة أعظم بكثير مما كانت عليه في بدء عهد الخلافة، وازداد ثقل مسؤوليات السلطة، وقويت إغراءات القوة والتملك والتسلُّط، وبخاصَّة بين قادة الجند والولاة، وأحسَّ الخليفة عمر بن الخطاب بالأخطار والأطماع التي تتربّص بنفوس المسلمين وما يمكن أن تؤدي إليه من خلافات ونزاعات عندما وضعت أمامه غنائم القادسية فبكى، الأمر الذي أثار دهشة عبد الرحمن بن عوف الذي سأله عن سبب ذلك، فأجابه: "ما أوتي هذا قوم قط إلا أورثهم العداوة والبغضاء". وكان عبد الرحمن بن عوف أحد المسلمين الذين طالبوا الخليفة عمر بتقسيم الأرض المفتوحة بينهم، فلا يبقي منها شيئاً لبيت المال أو لأهلها، ويروى عنه قوله: "ما الأرض بعلوجها إلا ما أفاء الله علينا"[8]، والعلوج جمع علج وهم الرجال غير العرب.

لم يعامل المسلمون سكان الأراضي المفتوحة بالتساوي، فبينما عفوا عن الأقباط الذين انتفضوا عليهم في الاسكندرية بعد الفتح، استعبدوا العراقيين والفرس الذين قاوموهم، ونتيجة ذلك كان العراق المصدر الأساسي للسبي، وباع صغار القواد والجند حصصهم من السبي للحصول على نقود يعتاشون بها [9]، وأساء بعض المسلمين معاملة هؤلاء المسترقين، وفي إحدى الحالات وثب الأسارى المسترقون على سيدهم فقتلوه، ثم انتحروا جماعياً [10] ، وفي الشام استولى الفاتحون على أملاك الحاكمين ووزعوها على السكان، كما تركوا الأملاك الزراعية الخاصة لأصحابها شريطة دفع الجزية، أما في العراق فصادروا أملاك الأكاسرة واحتفظوا بها أملاكاً للمسلمين، واستمرُّوا في

---

[6] شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، بيروت: دار العلم للملا يين، 1981، ص 43.

[7] Rustum and Zurayk, op.cit. p.87.

[8] عبد الرحمن الشر قاوي، علي إمام المتقين، القاهرة: مكتبة غريب، ص 98.

[9] شكري فيصل، مصدر سابق، ص 43.

[10] المصدر نفسه، ص 200 .

تحصيل ضريبة الحرزة من المزارعين الفرس، ومقدارها أربعة دراهم على كل شخص، ويسوّغ أحد المصادر هذا الإجراء تسويغاً غريباً، فيقول: إنَّ الضريبة "كانت من الثبات والاستقرار في نفوس القوم بحيث لم يجد الفاتحون سبباً لإلغائها" [11].

كانت إغراءات السلطة والثروة قوية، ولم يتمكن بعضهم من مقاومتها، فكثرت الشكاوى من انحرافات القادة والولاة، وبادر عمربن الخطاب إلى إقصاء خالد بن الوليد عن قيادة الجيش لئلا يفتتن به الناس، كما استدعى الصحابي أبا هريرة، واليه على البحرين، وفرض عليه تقديم نصف ماله الخاص إلى بيت المال، وكما سنرى فإن الانحرافات تفاقمت في عهد الخليفة عثمان، وخلص طه حسين من ذلك إلى أنَّ الفتوحات الإسلامية كانت لها نتائج إيجابية وسلبية، ومن نتائجها السلبية إضعاف الدولة الإسلامية إذ "كان (الفتح) مصدر ضعف لأنه أخضع لها كثرة من الناس لا يؤمنون بها... ولأن المال الذي جُني لها أيقظ منافع كانت نائمة" [12].

وفي الواقع لو تفحصنا الظروف التي تمت فيها الفتوحات ونتائجها بشكل عام لأمكن التوصل إلى استنتاج مفاده أنَّ سلبياتها أكثر من إيجابياتها، وأساساً فإن الله لم يختر الإسلام ديناً للناس ولم ينزل الوحي من أجل قسر الناس على دخول الإسلام وإنشاء امبراطورية مترامية الأطراف يحكمها المسلمون من عرب أو غيرهم، وإنما الهدف من الوحي والرسالة هو هداية الناس بالكلمة والموعظة الحسنة إلى الطريقة القويمة في الحياة على المستويين الفردي والجماعي، وجاء توقيت هذه الفتوحات في مرحلة الضعف التي انتابت النظام الإسلامي بعد وفاة الرسول وارتداد أعداد كبيرة من المسلمين وظهور أدعياء النبوة؛ الأمر الذي يدل على ضحالة اعتقاد الكثيرين من المسلمين وضآلة معرفتهم بالإسلام وتعاليمه، وبخاصَّة البسطاء منهم الذين اتبعوا المضلين، وهؤلاء كانوا أحوج إلى الدعاة والفقهاء منهم إلى الفتوحات، كما أن الفتوحات نفسها أدخلت إلى الإسلام عنوةً أو بالترغيب أو لمجرد تفادي دفع الجزية أعداداً كبيرة من سكان البلاد المفتوحة، أصبحوا يشكلون مع المشكوك في إيمانهم من المرتدين والمنافقين كثرة في صفوف المسلمين، أضف إلى ذلك أنَّ الفتوحات أثقلت كاهل الدولة الإسلامية بمسؤوليات جديدة لم تكن مؤهَّلة ومهيأة لأدائها، وبالتحديد إدارة شؤون الأراضي المفتوحة وسكانها؛ الأمر الذي اضطرها إلى تكليف الأجانب غير المسلمين من نصارى ومجوس بهذه المسؤوليات، كما أدت الفتوحات إلى نشوء طبقة مرفهة من الأثرياء بين صفوف الصحابة، وعادت بعض مظاهر الترف إلى الظهور، فلبس بعضٌ منهم مثل عبد الرحمن بن عوف وابنه الحرير، وشيَّد بعضهم مثل معاوية بن أبي سفيان القصور الفخمة، وأكثروا من التزوج بالنساء، وتسروا بالإماء، واقتنوا أعداداً كبيرة من الأرقاء، وحمَّل طه حسين هذه الطبقة من الأثرياء المترفين المسؤولية عن الفتنة الكبرى التي حدثت في ما بعد، وأدَّت إلى انشقاق المسلمين والتقاتل بينهم وسيطرة الحكام الدّينويِّين [13]، وأكد أنَّ "الفتنة كانت عربية، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء" [14] وهكذا ساهمت النتائج غير المرغوب بها، من وجهة نظر الإسلام والملتزمين به والحريصين على استمرار دعوته وانتشارها، في انقضاء عصر الخلافة الراشدة واستبداله بعهد الحكومات السلالية التسلُّطية من أموية وعباسية.

---

[11] المصدر نفسه، ص 82.

[12] طه حسين، الفتنة الكبري، 2، على وبنوه، القاهرة: دار المعارف، ص 156.

[13] طه حسين، الفتنة الكبري، 1، عثمان، مصدر سابق، ص 106 .

[14] المصدر نفسه، ص 109.

كثرت حالات إساءة استعمال السلطة في عهد الخليفة عثمان بن عفان، ويصفه المؤرخون بأنه كان متحيِّزاً إلى أقاربه، فاختار منهم ولاته، وكان ليِّناً مع هؤلاء الولاة على عكس سيرة الخليفة عمر، ولم يحاسبهم حساباً دقيقاً، الأمر الذي أثار حفيظة ونقمة العديدين من المسلمين الذين استوطنوا البلاد المفتوحة. واجه الخليفة عثمان مسألة صعبة في بداية عهده، وهي كيفية التعامل مع عبيدالله بن عمر الذي قتل ثلاثة أنفس من ضمنهم بنت أبي لؤلؤة انتقاماً من قتل أبي لؤلؤة والده الخليفة عمر، وقرر عثمان عدم الاقتصاص من القاتل والاكتفاء بالدية التي دفعها من ماله، وعلّق طه حسين على ذلك بأن "في هذا العفو ما يشبه أن يكون تمييزاً بين المسلمين، تمييزاً بين العربي وهو عبيدالله وبين الأعجمي وهو الهرمزان" [15] ويُذكِّر هذا التصرف بالعرف القبلي الذي يميِّز بين السادة وغير السادة في العقوبة.

تأسست في عهد الخليفة عثمان سابقة التصرف بالأموال العامة للأغراض السلطوية أو الشخصيَّة، ومنح الخليفة بعض الصحابة مبالغ ضخمة، فيروى أنه أعطى الزبير بن العوام يوماً ستمئة ألف درهم وطلحة بن عبيدالله مئتي ألف درهم، وكانا من أقل الناس حاجةً إلى العطاء؛ إذ ترك طلحة ثلاثين مليون درهم، وقُدِّرت تركة الزبير بعشرات الملايين أيضاً. كما أغدق عثمان العطاء على أقربائه حتى استاء الناس من ذلك، فخطب فيهم متحدّياً: "لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام"[16] وتجدر الإشارة إلى أن بني أمية والعباس ومَنْ خَلَفهم حتى الوقت الحاضر أعطوا لأنفسهم الحقّ في التصرُّف بالأموال العامة بالطريقة نفسها، واستخدموها في تدعيم حكمهم وشراء الموالين ولمنفعتهم الشخصية.

أدَّى التعامل الاعتباطي وغير المتأنِّي مع المعارضة إلى ازدياد حدتها وتوسع نطاقها، وأبرز مثال على ذلك معاملة المعارضين من أهل الكوفة، فعندما اعترض عدد من أهل الكوفة على تصرُّفات واليهم سعيد بن العاص، بادر الوالي، وبموافقة من الخليفة، بنفيهم إلى الشام، ولكن والي الشام، معاوية بن أبي سفيان، خاف من تأثيرهم على أتباعه، فأعادهم إلى الكوفة، حيث نفاهم سعيد بن العاص مرة ثانية إلى الجزيرة، وبعد انقضاء مدَّة من الزمن أظهر المنفيون استعداداً للعودة عن معارضتهم فسمح لهم بالعودة إلى الكوفة، وهناك طردوا واليها سعيد، وفرضوا على عثمان تولية آخر محله.[17]

دلّت هذه التطورات والاضطرابات التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان في داره على وجود مشكلة خطيرة في المجتمع الإسلامي، لم تفلح السياسات الرسمية في حلها أو التقليل من آثارها. وفي تقديري أنَّ هذه المشكلة تكمن في عودة النزعة إلى القوة والتسلط ومظاهرهما من سلطة وأملاك وأموال إلى النفوس، ولكن تحت غطاء شرعي مختلق، وكان ذلك على حساب تطبيق مبدأ العدالة الإسلامي، ولكن هيمنة هذه النزعة وأصحابها لم تتم إلا بنهاية خلافة الإمام علي بن أبي طالب.

بويع الإمام علي بالخلافة في الوقت الذي كان يتجاذب المجتمع الإسلامي تياران رئيسيان: التيار الديني الملتزم، الذي يريد العودة بالنظام الإسلامي فكراً وسلوكاً إلى عهد الرسالة والنبوة عندما كان الالتزام بمبادى الإسلام وقيمه في أعلى درجاته، وكان المسلمون آنذاك متآخين ومتراحمين ومتراصي الصّفوف، وقد ضم هذا التيار خيار الصحابة الذين لم تشغلهم مغريات الفتوحات وما جلبته من ثروات ونعيم وترف عن جوهر الدعوة والعقيدة، وانخرط في التيار الثاني جميع المتهافتين على القوة واللاهثين وراء السلطة، وهم الطامعون بالخلافة ليس حبَّاً في نشر الدعوة وخدمة

---

[15] المصدر نفسه، ص 67 .

[16] المصدر نفسه، ص 167 .

[17] المصدر نفسه، ص 110 و111.

المسلمين وإنما للتحكم بالرقاب والسيطرة على بيت المال والتصرف بالثروات التي تجبى إليه، والتي فاقت تصور العرب الذين اعتاد غالبيتهم العظمى على عيش الكفاف. والتيار الثاني دنيوي وإن تمسَّح بالدين واستتر به ورفع شعاراته، لأنه يرى أن طبيعة البشر بشكل عام تتصف بالضعف والميل للشهوات وعبادة القوة، وأن نظام الحكم وسياساته وتعامله مع الناس يجب أن يعكس هذه الوقائع الماديَّة ومتطلباتها لا القيم المثالية، ويتناقض هذا الفكر مع دعوة الإسلام إلى الميل بالنفس عن الشهوات وتهذيبها وصقلها وتعويدها على الفضائل في السرِّ والعلن انطلاقاً من الاعتقاد بقدرة النفس البشرية على بلوغ درجة من الانضباط الذاتي تمنعها من اقتراف المنكرات، والتي سميت بـ«الظلم»، لما تنطوي عليه من ظلم للنفس أو للغير مثل الشرك، الذي عرف بأنه «ظلم عظيم»، والقتل والسرقة والزنا وغيرها، وتحثها على الأعمال الحسنة والعدل. وتصدَّر التيار الدنيوي التسلطي معاوية بن أبي سفيان، وانحازت إليه فلول أتباع الجمل وغيرهم، ولم يحاول معاوية إخفاء نزعته القوية إلى السلطة والتسلُّط ومظاهرهما منذ استلامه ولاية الشام، إذ يذكر أحد المؤرخين بأنه"اتخذ القصور والزينة والرقيق واصطنع وسائل الرفاه من العيش". [18] وعندما سئل عن ذلك أجاب بعذر واهٍ، وهو أن التشبه بملوك الروم ضروري لفرض هيبة المسلمين على أعدائهم. ومن بين القلة الذين تصدوا لمعاوية الصحابي أبو ذر الغفاري، الذي أنكر عليه تسمية مال المسلمين بمال الله ليجيز لنفسه التصرُّف به كما يشاء، وخاطبه بخصوص بنائه قصر الخضراء قائلاً: "إن كنت إنما بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، وإن كنت إنما بنيتها من مالك فهو السرف".

سعى الإمام علي لإيقاف انتشار التيار الدنيوي - التسلطي ومقاومة تأثيراته الضارة على نفوس المسلمين، وفي مدّة خلافته القصيرة اهتمّ بالدرجة الأولى بتأسيس حكم إسلامي نموذجي مبني على العدل لا التسلُّط، في المركز والولايات والأمصار، وأصرَّ على معاملة المسلمين بوصفهم أفراداً تامي الحرية والمسؤولية لا خرافاً مسيَّرين يقودهم الحاكم كما يشاء، وقد أسس الإسلام هذا المبدأ عندما حمَّل كل فرد مسؤولية الاختيار بين الكفر والإيمان، فرفض الإمام علي إجبار الناس على بيعته، فامتنع بعض منهم عن ذلك، ولم يقيِّد حرياتهم الشخصية وذلك بمنعهم من السفر، على الرغم من شكه في نواياهم، وواظب على معاملة الرعية وفقاً لهذا المبدأ الإسلامي بعد استلامه الخلافة، ولم يثنه عن ذلك كثرة الطامعين بالخلافة وخصومه وتفاقم الأخطار على الخلافة، وحرص على عدم إجبار الناس على القتال في حروبه الدفاعية، فإذا لم يلبوا دعوته ألغى الحملة المخطط لها، ولم يأمر بسوق الناس إذا لم يكتمل نصاب الجيش كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب عند تسيير الجيش لفتح العراق وبلاد فارس[19].

لجأ الإمام علي إلى الوسائل السلمية لتسوية الخلافات مع الذين عارضوه، وأرادوا السيطرة على مقاليد المسلمين عنوةً، فأرسل الوفود إليهم لمحاججتهم وثنيهم عن العصيان والقتال، وحفلت رسائله إليهم بالموعظة والنصح والدعوة إلى الاحتكام إلى دين الله وتعاليمه، وتعمَّد أن لا يبدأ بالقتال بل ينتظر حتى يبادر الآخرون فيضطر آنذاك للقتال دفاعاً عن النفس، والتزم بذلك في واقعة الجمل وحروبه مع جيش معاوية بن أبي سفيان، ولم يقاتل الخوارج إلا بعد قطعهم الطريق وقتلهم الأبرياء، وإثبات الحجة عليهم من قبل ابن عبَّاس[20]. بالإضافة إلى ذلك، رفض الإمام رفضاً قاطعاً استعمال القوة ووسائلها المتنوعة لاجتذاب الناس وكسب ولائهم ومعاقبة المعارضين، فكان يقسم الأموال بين الناس، ثم يكنس بيت المال إعلاناً للجميع بأن المهمة تمت، ولم يبق فيه ما يمكن استخدامه لأغراض الحاكم السلطوية أو الشخصية، وبيَّن لأتباعه أنَّ استعمال الأموال العامة للتأثير على آراء الناس

[18] القاسمي، مصدر سابق ص 116.

[19] شكري فيصل، مصدر سابق، ص 93 و94 .

[20] محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، بيروت: دار الأضواء، 1986، ص 57 ،61.

واختياراتهم، وبالتحديد من أجل تعزيز جبهة الموالين للحكم وإضعاف جبهة المعارضين، هو نوع من الجور، فبعد أن فارقه كثير من الناس، وفرّ بعض أتباعه غير المخلصين إلى دنيوية معاوية، نصحه بعض أصحابه باستعمال الأموال لاستمالة قلوب الناس فرفض قائلاً: "أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟ لا واللّه لا أفعل ما طلعت شمس ولاح في السماء نجم"؛ وذلك في الوقت الذي كان معاوية فيه يجتذب إليه ضعاف النفوس بالأموال والوعود. واغتيل الإمام علي، وهو لا يملك من نقود سوى سبعمئة درهم[21].

أبدى الإمام علي نفوراً قوياً واحتقاراً واضحاً للقوة والسلطة، وما تشتمل عليه من تسلُّط على الناس، فعندما وجده أحد أصحابه يصلح نعليه استنكر ذلك، فرد عليه الإمام بأن إصلاح شسع نعليه أهم في نظره من السلطة والقوة، ولولا أن ممارسة السلطة فيها مصلحة ومنفعة للناس لما رضي بها. وفي قول مأثور من أقواله يعرِّف القوة بأنها نقيض الحق، ويبين ما يجب أن يكون عليه دور الحاكم المسلم في التعامل مع الرعية: "القوي عندي ذليل حتى آخذ الحق منه، والذليل عندي قوي حتى آخذ الحق له"، وهذا ما يهدف له الإسلام من تطبيق العدل ونصرة الحق، إذ أراد قلب هرم القوة والتسلط الجاهلي، فيرفع الذليل ويهبط القوي حتى يتساويان في المكانة والحقوق والواجبات، فلا يبقى بعد ذلك تمايز في القوة وإمكانية لتسلُّط أحد على غيره.

أخطأ العديد من المسلمين في تحليل سياسات الإمام علي وفهمها، فعزوها إلى عدم التيقن والتردد في الموقف وقلة الحزم، وذلك لأنهم حكموا عليها بمعياري القوة والتسلط الجاهليَّين لا بمعياري العدالة والحرية الإسلاميين، وللسبب عينه انفض الكثيرون عن الإمام علي الذي ساوى بين القرشيين وغيرهم، والعرب والموالي، وانحازوا إلى معاوية بن أبي سفيان طمعاً بالجاه والحظوة عنده، ولم يستح بعضهم من وصف تذبذبهم بين الجبهتين بالعبارة التالية: كنَّا نصلي خلف علي ونأكل على موائد معاوية. والجدير بالذكر أن بعض المستشرقين الذين اعتادوا قياس النجاح بالمقاييس المادية البحتة مثل النصر والسلطة من دون اعتبار كبير لشرعية الوسائل وعدالتها توصلوا إلى النتيجة نفسها والحكم بضعف خلافة الإمام علي.

بعد اغتيال الإمام علي انهار آخر السدود الكبرى أمام التيار الدنيوي-التسلطي، النابع من ترسبات الجاهلية، والمتسربل بحلة إسلامية، ونجح الأمويون بما لديهم من خبرة وبراعة في امتلاك القوة ووسائلها والحفاظ عليها وتسييس الناس في امتطاء هذا التيار، وقيادته وتوجيهه في خدمة مصالحهم، منفذين وصية سلفهم وقائدهم العقائدي أبي سفيان بأن "يتلقفوها تلقف الكرة".

الحكم الأموي

أعاد الحكم الأموي وسياساته للقوة قيمتها الجاهلية، وتسلط الأمويون على رعاياهم بطريقة لم يعرفها العرب حتى في أيام الجاهلية عندما كان سادة القبائل يستشيرون أتباعهم، ولهم ندوات ومجالس يحضرها الناس، ويبدون فيها آراءهم، ويسدون نصائحهم لأصحاب القوة والسلطة، وكان العُرف القبلي رادعاً للتطرف والتعسف في ممارسة القوة، ولكن الحكم الأموي أدخل مفهوماً جديداً للقوة، إذ جعلها مطلقة ورفعها فوق جميع القيم الأخرى، بما فيها الدينية، وفرضها أساساً للتنظيم الاجتماعي وللعلاقات الاجتماعية، وتميز منهجهم في التسلُّط بالصفات الآتية:

أولاً، جاهر الأمويون بحقيقة كونهم طلاب قوة وسلطة منذ بداية عهدهم، ويروي المؤرخ ابن عبد ربه في العقد الفريد مقاطع من خطبة لمعاوية بن أبي سفيان في أهل الكوفة بعد استتباب الأمر له يعبِّر فيها عن ذلك بصراحة بالغة، فيقول:

---

[21] طه حسين، الفتنة الكبرى، 1، عثمان، المصدر سابق، ص 154 .

"يا أهل الكوفة، أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكني قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا إن كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدميَّ هاتين"[22].

وفي هذه الخطبة تصريح واضح بأن هدف معاوية من القتال هو السيطرة على رقاب المسلمين الملتزمين بالصلاة والزكاة والحج.

ثانياً، بعد استلامهم الملك بطريقة غير مشروعة، تسلَّطوا واحتكروا لأنفسهم جميع السلطات، ورفضوا إشراك، حتى ولو فئة قليلة من المسلمين، في الحكم، وقد حمل الفيلسوف ابن رشد معاوية بن أبي سفيان كامل المسؤولية عن قلب النظام الإسلامي واستبداله بحكم استبدادي، وكل ما نتج عن ذلك من فوضى واضطراب[23]، واعترف معاوية نفسه بتسلُّطه عندما قال: "نحن الزمان فمَنْ رفعناه ارتفع، ومَنْ وضعناه اتضع " [24] وبهذا القول ادَّعى معاوية لنفسه قدرات إلهية مزاحماً الله عز وجل، الذي هو الزمان يُعزُّ مَن يشاء ويذل مَنْ يشاء .وأعلن عبد الملك بن مروان صراحة عدم استعداده لسماع نصيحة أحد أو مشورته عندما قال: "والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه"، وأصرَّ ابنه الوليد على أن تراعي الرعية ما يفرضه التفاوت في السلطة والقوة بين الحاكم الأموي وأتباعه من شروط في أسلوب التعامل والتخاطب مما يتناسب مع مقام ملك لا حاكم مسلم فقال: "إنكم كنتم تخاطبون مَنْ كان قبلي من الخلفاء بكلام الأكفاء، وتقولون: يا معاوية ويا يزيد... وإني أُعاهد الله لا يكلمني أحد بمثل ذلك إلا أتلفت نفسه، فلعمري إن استخفاف الرعية براعيها سيدعوها إلى الاستخفاف بطاعته والاستهانة بمعصيته" [25] .ووصف حاكم أموي آخر، وهو الوليد بن يزيد، الطبيعة التسلطية والمتعالية للحكم الأموي، وتلك شهادة من أهلها في البيتين الآتيين :

ونحن المالكون الناس قسراً

نسومهم المذلة والنكالا

ونوردهم حياض الخسف ذلاً

وما نألوهم إلا خبالا

ثالثاً، اعتمد حكام بني أمية على قوة السلاح والإرهاب في تأسيس ملكهم والمحافظة عليه، وفرضوا موالاتهم وطاعتهم على الجميع، وعاقبوا بشدة كل من عارضهم أو انتقدهم، وتبرز هذه القواعد الثابتة لأسلوبهم في الحكم في وصية معاوية بن أبي سفيان إلى سفيان بن غامد الغامدي حين أرسله إلى العراق: "أقتل مَن لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، واضرب كل ما مررت به من قرى". ولم يسلم من بطش قواته التي أرسلها إلى اليمن حتى الأطفال الرضع، وعندما تجرأ الصحابي حجر بن عدي ورفاقه على الاعتراض على والي معاوية كان مصيرهم السجن والإعدام، ودفن أحدهم حياً، وكان آخر أعماله التسلطية والاستبدادية أخذ البيعة عنوةً لابنه يزيد، ووفقاً للنتيجة التي خلص إليها طه حسين فإنَّ موالاة معاوية كانت الطريقة الوحيدة لتجنب تعسفه[26]:

---

[22] ابن عبد ربه، العقد الفريد، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987، ص 171.

[23] نجوى قصاب حسن، الفكر الاجتماعي عند العرب، دمشق: جامعة دمشق، 1982، ص 150 .

[24] الثعالبي، لطائف اللطف، بيروت: دار المسيرة، 1980 ص 33. نقله على زيعور .قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، بيروت: دار الطليعة، 1982 .

[25] إمام عبد الفتاح إمام، الطاغيه دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، 1994 .

[26] طه حسين، الفتنة الكبرى،1، عثمان، مصدر سابق، ص 187.

"علَّمهم معاوية أن طاعة الأمراء فرض لا ينبغي التردد فيه أو الالتواء به، ومَنْ لم يُعطِ الطاعة لا أمان له".

سار يزيد بن معاوية على منهاج أبيه القمعي، مبتدئاً بقتل حفيد الرسول الإمام الحسين بن علي وأهله وأصحابه في واقعة الطف؛ وذلك بسبب امتناعه عن تقديم البيعة، وبعد فشل ثورة المدينة المنورة استباحتها قواته فقتلت سكانها الأبرياء، واغتصبت نساءها، والتزم المروانيون بهذا الأسلوب، فيروى أن عبد الملك بن مروان قال: "ألا إني لا أُداوي داء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم قناتكم"، كما عكست ذلك تصرفات الولاة الأمويين وإجراءاتهم، فالحجاج بن يوسف الثقفي واليهم على العراق قتل أكثر من مئة ألف نفس، ومات وسجونه ملآنة، وحتى عمر بن عبد العزيز، الذي كان حكمه استثناءً على المنهج الأموي، نفذ أمراً للوليد بن عبد الملك بجلد خبيب بن عبدالله بن الزبير لأنه تنبأ بسقوط دولة الأمويين، فمرض على أثر ذلك ومات[27]، واتبع ولاة الأمويين في شمال افريقيا الأساليب نفسها، ومن ذلك استعباد خمس البربر بعد إسلامهم، في تحريف صارخ للتعاليم القرآنية؛ الأمر الذي أدى إلى تذمُّر البربر وانتفاضتهم[28]، واستعمل الحكام الأمويون الجواسيس لمراقبة سلوك الولاة والقضاة وعامة الناس في البلدان تحت ستار نظام البريد.

رابعاً، بالإضافة إلى استعمال القوة، اعتمد الحكام الأمويون على المال لضمان طاعة الرعية وولائها، فأغدقوا على أتباعهم المطيعين والمخلصين الأموال والعطايا من دور وأراضٍ وحرموا الآخرين منها، وذلك استناداً إلى دعوى بأن الحاكم ظل الله وخليفته في الأرض، وبما أن المال مال الله، فإذاً من حق الحاكم، وفقاً لادّعائهم، أن يتصرَّف بموارد بيت المال كما يشاء، وبالفعل اقتطعوا لأنفسهم حصَّة كبيرة منها لتنمية ثرواتهم الشخصية، والصرف على قصورهم وحاشيتهم ومظاهر الترف والبذخ، واستعملوا الباقي لترسيخ حكمهم. ومن المعروف أن معاوية بن أبي سفيان اشترى ولاء الكثيرين من رؤساء القبائل العربية، ويعدّه المؤرخون أول من رشا في الإسلام، وواليه المغيرة بن شعبة أول من ارتشى [29] .وبذل عبيدالله بن زياد، والي يزيد بن معاوية، الأموال والوعود لتحويل ولاء أهل الكوفة من الإمام الحسين إلى يزيد، ويتبين من القول التالي لعبد الملك بن مروان العلاقة الجذرية بين الحاكم والمال والرجال كما يراها الأمويون: "الملك لا يصلح إلا بالرجال والرجال لا يقيمها إلا الأموال" [30] وحتى عمربن عبد العزيز اعتبر الأموال أحد الأركان الأربعة التي يستند إليها السلطان.

خامساً، رفع حكام بني أمية السلطة السياسية فوق الدين وتعاليمه، وسعوا إلى استخدام الدين لخدمة مصالحهم، وكان معاوية بن أبي سفيان أول من استنَّ سب الصحابة، عندما أمر بسب الإمام علي في خطب الجمعة، وباستثناء مدة حكم عمر بن عبد العزيز التزم كافة الحكام الأمويين بهذه البدعة، التي أدَّت إلى تفريق صفوف المسلمين، كما لم يكترثوا بالتعاليم الدينية في قراراتهم وسلوكهم، فهان عليهم وعلى ولاتهم قتل أحفاد الرسول والتمثيل بجثثهم، واستباحة المدينة المنورة، وهدم الكعبة بالمنجنيق، وفرضوا الجزية على الذين أسلموا بحجة أنهم فروا من الجزية إلى الإسلام أو أن بيت المال بحاجة لجباية هذه الأموال، وتدخلوا في أمور العقيدة الإسلامية، والمثال على ذلك قتل خالد بن عبدالله القسري للجعد بن الدرهم لأنه نفى الصفات عن الله جل وتعالى، ولم يتردد معاوية بن أبي سفيان في

---

[27] إمام عبد الفتاح إمام، مصدر سابق، ص 212 .

[28] أحمد الصاوي، الأقليات التاريخية في الوطن العربي، القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر،1989، ص 58 .

[29] أحمد عبد الرزاق أحمد، مصدر سابق، ص 12 .

[30] حسن فلاح الكساسبة، المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية (الدواوين)، الكرك، الأردن: جامعة مؤتة،1992، ص 49.

الاعتراف بزياد ابن أبيه أخاً له وابناً غير شرعي لأبي سفيان، وللتخلص من تبعات تسلطهم وجورهم تبنوا مذهب القدريين، فادعوا بأنهم مسيرون لا مخيرون في قراراتهم وتصرُّفاتهم، وبالتالي فإنهم لا يتحملون وزر ظلمهم وجورهم، وشجَّعهم على ذلك بعض الفقهاء الذين قدَّموا غطاءً شرعياً لمثل هذه المواقف والتصرفات. ويروى أن الوليد بن عبد الملك تساءل يوماً إن كان الحاكم مثله يحاسب على أعماله، فأحضر أخوه يزيد أربعين شيخاً أكدوا له أنَّ الحاكم مثله لا يحاسب ولا يعذَّب[31]، ومن قبل ذلك حصل قرار معاوية بن أبي سفيان بالاعتراف بزياد ابن أبيه أخاً غير شرعي على مصادقة ثمينة من أم المؤمنين عائشة عندما كتبت إلى زياد ابن أبيه رسالة: "من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان" [32]، ولا شك في أن بني أمية استقبلوا بارتياح ورضى فتوى عبدالله بن عمر التي قال فيها: "إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر" [33] وخالف بذلك سنة الخليفتين أبي بكر وعمر بخصوص وجوب مقاومة الحاكم الجائر، الذي أجاز عمر قتله.

سادساً، سعى بنو أمية إلى إعادة تنظيم المجتمع الإسلامي على أساس معيار القوة والقرب من السلطة وأصحابها، فوضعوا على قمّة الهرم الحكام، ويليهم في المكانة أقاربهم، ومن ثم ولاتهم، فسادة القبائل العربية من أنصار بني أمية، والعرب الذين اعتبروهم أشرف وأعلى مرتبة من المسلمين غير العرب، خلافاً للمبادىء الإسلامية التي نصَّت صراحةً على المساواة بين المسلمين، واحتلَّ الأرقاء المرتبة الأدنى بعد الموالي، ونتيجة لهذا التقسيم الطبقي الاجتماعي المبني على مبدأ تفاوت القوة والمكانة ضعفت الأخوة الإسلامية بين العرب وغير العرب، وعادت العصبية القبلية إلى سابق عهدها الجاهلي، الأمر الذي أدى إلى حدوث صراعات قبلية مثل التي نشأت بين القبائل القيسية واليمانية، وبعثت العديد من عادات الجاهلية وتقاليدها مثل التعالي على أصحاب الحرف، والاستنكاف عن أداء الأعمال اليدوية وتفضيل مهنة التجارة وامتلاك الأراضي والعقارات، الأمر الذي أدى إلى الاعتماد بدرجة عالية على غير العرب والعبيد في الزراعة والحرف والعمل اليدوي، كما استعاد الشعراء مكانتهم القديمة، وحظوتهم لدى الحكام وأصحاب النفوذ والأثرياء، وارتزق العديد منهم بالمديح.

باختصار عاد للقوة بريقها الذي سعى الإسلام إلى إطفائه، وفاقت هذه القوة ما كان متوفراً لها لدى العرب الجاهليين، ولم تؤدِّ هذه القوة المطلقة إلى تسلط الحكام واعوجاجهم بشكل مطلق فحسب، بل أفسدت عامة الناس أيضاً، وحرفت الكثير منهم عن المنهج الإسلامي في تطبيق العدالة والمساواة وعدم التسلط، وخلص طه حسين من ذلك إلى الاستنتاج الآتي حول تلك الحقبة من التاريخ العربي - الإسلامي[34]:

"هذه الدولة الجديدة لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريقَ الدول قبلها، فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات".

ولكنَّ في تقديري لم يكن الانحياز إلى نظام القوة -التسلطي بعد الدعوة الإسلامية حتمية تاريخية، بل كان انحرافاً وتراجعاً عن البديل العملي والأفضل الذي قدمه الإسلام.

---

[31] إمام عبد الفتاح إمام، مصدر سابق، ص 211 .

[32] طه حسين، الفتنة الكبري، علي وبنوه، مصدر سابق، ص 205 .

[33] ابن عبدربه، العقد الفريد، نقله محمد طه بدوي، حق مقاومة الحكومات الجائرة، القاهرة: دارالكتاب العربي، ص 24.

[34] طه حسين، الفتنة الكبري، علي وبنوه، مصدر سابق، ص 155 .

احتوت الأسس التي شيد عليها بنو أمية ملكهم على عناصر الضعف والتفكك والانحلال الكامنة التي أدَّت به في النهاية إلى التدهور والسقوط، فاعتماده مبدأ احتكار القوة والتسلط غذَّى أطماع القوة لدى الناس، التي سعى الإسلام إلى تقليصها وتهذيبها بالعدل، إذ فتح تطبيق هذا المبدأ الباب على مصراعيه أمام الطامعين بالقوة، فما دامت السيادة المطلقة للأقوياء من دون اعتبار للعدل والحق، فإن بإمكان أي شخص حتى وإن لم يمتلك الحق الشرعي بالخلافة ولا يتوفر فيه الحد الأدنى من الصفات والشروط أن يطمح إلى السلطة، وكل من رجحت قوته كان هو الفائز بالسلطة.

قاد لجوء الأمويين المتكرر إلى التعسف والقمع في التعامل مع المعارضة إلى دائرة مغلقة ودموية من العنف، مزقت المجتمع الإسلامي وأضعفته، ونافس الأمويين على السلطة الطامعون بها الذين أرادوا إزاحتهم عنها والحلول محلهم، وكذلك المعارضة الدينية التي نشط فيها الهاشميون والخوارج، والمعارضة العرقية أيضاً وبالأخص في فارس وشمال أفريقيا، واستغل دعاة العباسيين بعض فصائل هذه المعارضة، ونجحوا في توظيفها لإنهاء الحكم الأموي .وفي أثناء عهدهم الذي كان قصيراً بحساب أعمار السلالات الحاكمة حقق الأمويون بعض الإنجازات، ولكنهم وفي الوقت نفسه حرفوا مسيرة الدعوة الإسلامية، وعطلوها عن بلوغ هدفها في تأسيس النظام الإسلامي المبني على أساس المبادىء والقيم السامية.

العهد العباسي

انتفض العبَّاسيون على الأمويين، وأزالوهم عن سدة الحكم، وجلسوا محلهم، ليس احتجاجاً على قواعد القوة والتسلُّط التي استند إليها الأمويون، وإنما لمجرَّد الاستئثار بالسلطة، واعتمد العباسيون بعد وصولهم إلى الحكم السياسات والأساليب الأموية نفسها في احتكار القوة وفرض سيطرتهم على الرعية، والتخلص من المنافسين والمعارضين. وتجدر الإشارة إلى أن أبا العباس السفاح هو الذي لقب نفسه بذلك عندما خطب بالناس قائلاً: "استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير"، ثم أثبت للجميع أنَّه جدير بهذا اللقب، فركز جهوده في البدء على التخلُّص من فلول الأمويين، بقسوة ووحشية مفرطة، إذ يروى أنه بعد قتله عدداً من بني أمية أمر بلفهم في بساط، ثم جلس عليه وتناول طعامه، ولم يتورَّع عن المثلة بالموتى خلافاً لتعاليم الإسلام عندما أمر بإخراج حكام بني أمية من قبورهم وجلد رممهم وحرقها.

بعد التخلُّص من بقايا أعداء الأمس التفت العباسيون إلى الحلفاء الذين قد يفكرون بمزاحمتهم على السلطة أو المطالبة بنصيب منها، وكان التحالف الذي أوصلهم إلى الحكم غير متجانس، ضم عدداً من بني هاشم الذين يؤمنون بأنهم أحق بالخلافة من الأمويين والعباسيين، والموالي الذين ساءتهم معاملة الأمويين، ولم يتردد العباسيون في البطش بالهاشميين واغتيال القائد الفارسي أبي مسلم الخراساني.

نظراً لاتساع رقعة الدولة العباسية، اتخذ حكام بني العباس الوزراء والحجَّاب والكتبة وغيرهم من الإداريين لتصريف أمور الدولة وتنظيم شؤونها في المركز، بالإضافة إلى الولاة والقضاة وغيرهم في الأمصار، إلا أنهم كانوا متخوفين وحذرين من هؤلاء الإداريين، وكانوا مستعدين ذهنياً ونفسياً لتصديق الأقاويل والوشايات حول طمع وزرائهم وولاتهم بالسلطة، وتآمرهم عليهم، وقلة إخلاصهم، وكان تعاظم قوة البرامكة وازدياد نفوذهم السبب الرئيسي في نكبتهم، التي خسروا فيها جميع مصادر قوتهم من مناصب ونفوذ وأموال، وصارت تلك سنَّة لدى الحكام العباسيين، فالوزراء يستبدلون، وأحياناً يقتلون، وغالباً ما تصادر أموالهم.

وإذا كانت القوة بشكل عام تجتذب الناس وتستهويهم، فإن القوة المطلقة التي استأثر بها السلاطين العباسيون، ومارسوها، كانت مغرية جداً، ونتجت عن ذلك صراعات دموية داخل البيت العباسي، فقد تنافس الأخوان الأمين والمأمون على الحكم، وتقاتلا، ثم حوصر الأمين في بغداد، وانهزم وقتل،

واغتيل المتوكل نتيجة مؤامرة اشترك فيها ابنه، وقتل حكام عباسيون آخرون على أيدي قواد جيوشهم.

واجه العباسيون معارضة مستمرة، لا تقل شدَّةً وعنفاً عن التي واجهها الأمويون، وتنوَّعت هذه المعارضة بين سياسية ودينية وطائفية واجتماعية وعرقية، وكانت المعارضة المسلحة هي الطريقة الوحيدة المتاحة أمام الناس للتعبير عن احتجاجهم أو رفضهم للسياسات العباسية، ففي شمال افريقيا نجح الفاطميُّون في نشر دعوتهم ومن ثم في تأسيس مملكة نافست العباسيين، واقتطعت جزءاً غير يسير من أراضي الدولة العباسية، وانشغلت الجيوش العباسية في الشرق بقمع حركات الزنادقة، وثار القرامطة معبِّرين عن رفضهم للنظام السياسي والاجتماعي للدولة العباسية، وقدموا بديلاً له، فبدلاً من الحكم الفردي للخليفة العباسي شكَّلوا نوعاً من القيادة الجماعية، وألغوا الملكية الفردية احتجاجاً على الفوارق الطبقية الكبيرة في ملكية الأراضي والثروات، ودعوا إلى تعميم حق العمل والتعليم، وإلى المساواة بين الرجل والمرأة، كما ثار الزنج الذين عملوا في المزارع والممالح في جنوب العراق بسبب ما تعرَّضوا له من استغلال واضطهاد ودعوا إلى تحرير السود.

اعتمد العباسيُّون بالدرجة الأولى على جيوشهم في قمع الثورات وحفظ الأمن، وعلى عكس الأمويين فضَّلوا استعمال غير العرب في قواتهم، فاعتمدوا في البدء على الفرس، ثم استبدلوهم بالأتراك، فبعد أن أوقف المعتصم العطاء للقبائل العربية استقدم عشرات الآلاف من الأتراك، وأدخلهم في جيشه، واضطر على أثر ازدياد شكاوى أهل بغداد من تصرفاتهم وقلة انضباطهم إلى بناء مدينة خاصة بهم في شمال بغداد، وهي سامراء، وسنحت للقادة الأتراك الفرصة للتحكم بالخلافة بعد استعانة أفراد الأسرة العباسية بهم في حسم صراعاتهم الداخلية حول الحكم، وكان ذلك خطأً فادحاً كلف العباسيين الكثير، وساهم بصورة رئيسية في انهيار دولتهم، إذ أخلَّ العباسيون بمبدأ احتكار القوة والسلطة وعدم السماح للغرباء بالنفوذ إلى الدائرة العليا الضيِّقة التي تضم الحاكم وولي عهده وأفراد عائلته الأقربين، وهو المبدأ الذي سار عليه الأمويون والحكام العباسيون الأوائل، وبعد أن ذاق القادة الأتراك طعم القوة المطلقة استساغوه، وصار العديد من الحكام العباسيين في العصر الوسيط خاضعين أو شبه مسيرين من قبل هؤلاء القادة، الذين لعبوا دوراً فاعلاً في تحديد مصائر العديد من الخلفاء العباسيين، إذ أنهم قتلوا المتوكل والمعتز، وسمَّموا المنتصر، وخلعوا المستعين والمهتدي، ونصبوا المعتمد والمكتفي، وكانت تلك البداية الحقيقية لانهيار قوة بني العباس وأفول حكمهم، حتى لم يبق لهم في النهاية سوى مظاهر السلطة وشكلياتها، مثل الدعاء لهم في خطبة الجمعة وسك النقود بأسمائهم.

بالإضافة إلى الجيش، استعمل العبَّاسيون الشرطة في حفظ الأمن الداخلي، ووظَّفوا الجواسيس لمراقبة أقوال الناس وتصرفاتهم، وكان السياف من أبرز رموز دولتهم، وهو الجلاد المكلَّف بقطع رقاب الناس أو إيقاع عقوبات الحدِّ عليهم بقطع الأيدي أو الأرجل والضرب بالسياط، ولا تكاد رواية عن حكام تلك الحقبة تخلو من ذكره، فهو إما حاضر في مجلس الخليفة أو موجود في مكان قريب من مجلسه بحيث لا يتأخر عن الحضور إذا استدعاه، واقترن نداء "يا سيَّاف" بسيرة الخلفاء العباسيين اقتران حكمهم بالعاصمة بغداد، ولا شكَّ في أنَّ مجرَّد مثول السياف كان كفيلاً ببث الرعب وإدخال الهلع على قلوب أشجع الرجال، الذين سيترددون طويلاً قبل إغضاب السلطان، أو حتى تعكير مزاجه، مما قد يدفعه وفي سورة غضب إلى أمر السياف بقطع رأس المسيء. ويتبين من بعض هذه الروايات التاريخية أن عملية الإعدام كانت تنفذ في مجلس الحاكم، وعلى مرأى منه ومن بقية الحاضرين، حيث يقوم السياف بإحضار السيف والنطع، والأخير هو جلد يفرش على الأرض تحت المحكوم عليه، وفي بعض الأحيان كان الشخص المتهم أو المشكوك به «يعرض على السيف» لإجباره على اتخاذ موقف محدد، وإعطائه فرصة أخيرة للاختيار بين طاعة الحاكم وإبداء الولاء له أو الإعدام، ووجد بعض الحكام العباسيين أن عقوبة قطع الرأس ليست كافية للتنكيل بأعدائهم

وإرهاب معارضيهم، فتفننوا في طرق الإعدام، ودفنوا بعض المحكومين أحياءً داخل جدران أو تحت الأرض ليموتوا جوعاً وعطشاً أو اختناقاً، وأحرق آخرون بالنار، وانتقم المتوكل من محمد بن عبد الملك الزيات لسبب تافه بأن أمر بصنع تنور من حديد فيه مسامير بحيث لو تحرك شخص داخله لدخلت المسامير في جسمه، ثم سخن التنور على النار، ووضع فيه ابن الزيات. أما العقوبات الأخف من الإعدام فقد تراوحت بين سَمْل الأعين وقطع الألسنة وجدع الأنوف وصم الأذن إلى الجلد والسجن، وكان للوزراء سجون خاصة بهم، وكذلك قادة الشرطة، وكان دخول هذه السجون أيسر بكثير من الخروج منها، كما عامل موظفو الدولة الناس باستعلاء وتعسف؛ إذ يشير حسن فلاح الكساسبة مثلاً إلى أنه "في أيام هارون الرشيد كان عمال الخراج يظلمون الناس، ويقيمونهم في الشمس، ويضربونهم الضرب الشديد"[35].

حققت القوة العسكرية والشرطة لبني العباس السيطرة على رعاياهم، ولكن درجة هذه السيطرة تفاوتت حسب القرب من المركز، فالسيطرة المركزية الشديدة أدَّت إلى هروب المعارضين إلى التخوم، فأصبحت الدولة تدريجياً مكونة من مركز منيع ومستقر نسبياً تحيط به دوائر أو حلقات أقل استقراراً وانقياداً كلما ابتعدنا عن المركز واقتربنا من الحدود، وتدريجياً خرجت هذه المناطق البعيدة عن السيطرة المركزية واستقلَّت عن الدولة العباسية أو أصبحت شبه مستقلة، وعندما اقترب الخطر المغولي كانت سيطرة العباسيين تقتصر على المناطق القريبة المحيطة بعاصمتهم، لذا لم تجابه المغول مقاومة كبيرة، كما أن قادة وأفراد الجيش العباسي من الأتراك لم يبدوا حماساً في الدفاع عن العباسيين، بل إن بعضهم تخلى عن أسياده العباسيين وانضم إلى المغول بني أعمامهم الذين أغروهم بالأمان والوعود.

لم يختلف العباسيُّون عن الأمويين في اعتبار أموال المسلمين في بيت المال ملكاً خاصاً، فاستعملوها في مكافأة الأعوان المخلصين، وحرموا منها الآخرين، وكان رضى الحاكم كفيلاً بانتشال الإنسان من وهدة الفقر ورفعه إلى مصاف الأغنياء، كما أن غضبه عليه له تأثير معاكس بالضبط، وصرف العباسيون أموالاً كثيرة على وسائل ترفهم وملذاتهم، وتزخر السجلات التاريخية بالروايات عن ذلك.

لم يغفل العباسيون أهمية الدين بوصفه مصدراً من مصادر القوة والسلطة، وحرصوا على إثبات أن سلطتهم نابعة منه، وذلك بادعائهم أنّهم الأحق بالخلافة لقرابتهم من الرسول، والخليفة ليس مجرد حاكم دنيويّ، بل هو أمير المؤمنين، وحامي الدين، والمدافع عن المسلمين. وشجَّعهم ذلك على التدخل في أمور العقيدة، فانتصروا لهذا المذهب أو ذاك، وأدنوا فقيهاً وفضلوه على غيره، وأيدوا اعتقاداً معيناً وعاقبوا كل مَنْ خالفهم عقاباً شديداً، ولضمان سيطرتهم التامة في هذا المجال حصر الحكام العباسيون بأنفسهم سلطة تعيين القضاة.

وجد الفقهاء ورجال الدين والقضاة أنفسهم في وضع حرج، فإمَّا مسايرة الحكام وممالأتهم للتكسب من رضاهم واتقاء شرهم، أو الإصرار على المواقف المستقلة والمبدئية وبالتالي المخاطرة بإغضاب الحكم وتعريض أنفسهم لانتقامهم وتعسفهم، ووصف الغزالي محنة العلماء في ذلك الزمان، والذين تجاذبتهم مغريات القوة والجاه والمال من جهة والعلم من أجل المعرفة وخدمة الناس من جهة أخرى، فكتب:

"وكنت في الزمان أنشد العلم الذي به يكتسب الجاه وأدعو إليه بقولي وعلمي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي"[36].

---

[35] حسن فلاح الكساسبة، مصدر سابق، ص 49 .

[36] نجوى قصاب حسن، مصدر سابق، ص 85 و86 .

وكما هو الحال في العصر الأموي عكست النشاطات الأدبية والثقافية في العهد العباسي القيم السائدة، وركز الكثير من العاملين في هذه النشاطات جهودهم على تحصيل موارد القوة والعيش والبقاء ووسائل ذلك، فجلس الشعراء على أبواب الحكام والولاة ينشدون رضاهم وعطاءهم بقصائد المديح ورسائله وهجاء خصومهم ومنافسيهم، وتعيَّش الكثير منهم من منادمة أصحاب السلطة والنفوذ والثروات، واشتغل الكتَّاب في الدواوين. أمَّا الذين تجرأوا على إبداء الرأي الحر والمستقل وأحياناً معارضة المواقف الرسمية فقد تعرَّضوا للمضايقة والإبعاد والسجن، ولقي بعضٌ منهم حتفهم بسبب ذلك، فبينما تكسب الشاعر المتنبي من مدح الحكام والولاة أحرقت كتب عبدالله بن المقفع وقتل بتهمة الزندقة، وهي تهمة كانت تلصق أحياناً بالمعارضين لتسويغ قتلهم.

لم يتمكن العديد من العلماء والأطبَّاء والفلاسفة من ممارسة أعمالهم ونشاطاتهم الإبداعيَّة، وإعداد مؤلفاتهم، وتنفيذ تجاربهم، وبناء مراصدهم، وتعليم طلابهم من دون رعاية الحكام العباسيين أو الفاطميين أو غيرهم في تلك الحقبة، وكما يتبيَّن فإن هذه الرعاية كانت غالباً مشروطة، وقد يتحول رضا الحاكم فجأةً إلى غضب ونقمة، وبسبب ذلك تعرَّض بعض العلماء البارزين مثل ابن سينا وابن رشد للاضطهاد والمطاردة والتهديد، واضطر العديد منهم إلى الاعتماد على الأعمال اليدوية البسيطة مثل النسخ لتحصيل أرزاقهم؛ الأمر الذي شغلهم عن التركيز على البحث والمعرفة، ولأنهم كانوا غالباً غير بعيدين من مراكز السلطة فقد أدرك بعض منهم أهمية القوة والسلطة في مجتمعاتهم، ويظهر ذلك جلياً في تحليل ابن خلدون لتوزيع القوة أو الجاه كما يسميه:

"الجاه متوزِّع في الناس ومترتِّب فيهم طبقة بعد طبقة... فقد تبيَّن أنَّ الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرُّف في من تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع، والتسلط بالقهر والغلبة".

اختلف توزيع الجاه أو القوة في المجتمع العباسي عمَّا كان عليه في العهد الأموي، وأهم فارق بين النظامين الاجتماعيين فقدان العرب لامتيازاتهم على غيرهم من المسلمين أثناء العهد العباسي، وربما شعر العرب بأنهم أُبعدوا عن مركز السلطة، وبخاصةٍ في العصرين الأوسط والأخير من هذا العهد، وبأنَّ الأتراك تقدموا عليهم في الحظوة والمناصب والنفوذ، وبشكل عام توزع المجتمع العباسي إلى أربع طبقات أو فئات رئيسية وفقاً لمعيار القوة، وجلس الخليفة العباسي على قمّة الهرم، وتحته مباشرة شريحة صغيرة ضمت أفراد عائلته وأقربائه، وتأتي بعدها مباشرة طبقة «الخاصة»، التي تكونت من أصحاب السلطات المفوضة والنفوذ والثروة في المجتمع مثل الوزراء والقادة والولاة والقضاة وكبار الفقهاء المقرَّبين ورؤساء التجار وكبار الأثرياء والإقطاعيين، وهي ليست طبقة أرستقراطية بكامل معنى الكلمة، لأن الحسب والنسب والمناصب والثروة الموروثة لم تكن قاسماً مشتركاً بين الجميع، وكان من الممكن لأحد أفراد هذه الطبقة أن يفقد مكانته فيها بطرده من وظيفته أو مصادرة أمواله بقرار علوي، فيهبط إلى الطبقة الأدنى منها وهي طبقة «العامة»، وكما يستدلُّ من تسمية الأخيرة تكونت هذه الطبقة من عامة الناس، الذين لا يمتلكون قوة أو نفوذاً بسبب منصب أو ثروة أو صلات اجتماعية، وتشمل هذه الفئة صغار التجار والكسبة وأصحاب الحوانيت والحرفيين والفلاحين، واحتلَّ العبيد والإماء، وهم عديمو القوة، الدرك الأسفل من هيكل القوة من المجتمع العباسي، كما ضم هذا المجتمع جماعات هامشية مثل العيارين والشطار، الذين خرجوا على قيم المجتمع، فامتهنوا الأعمال الممنوعة مثل اللصوصية والاحتيال، وشكلوا أحياناً تنظيمات مؤقتة بهدف رص صفوفهم، واستغلوا مراحل ضعف السلطة والاضطرابات الداخلية للحصول على المكاسب وفرض أنفسهم على الناس.

لم تختلف الدول الأخرى التي عاصرت الدولة العباسية مثل الفاطمية في شمال أفريقيا والأموية في الأندلس عن الدولة العباسية في اعتمادها على القوة والتسلط في إرساء حكمها وتثبيت قواعده، فعلى سبيل المثال يروى أنَّه بعد دخول معز الدين الفاطمي مصر سأله الناس عن حسبه ونسبه،

فأخرج دنانير من جيبه ونثرها فوق رؤوسهم قائلاً: هذا حسبي، ثم استلَّ سيفه من غمده قائلاً: هذا نسبي.

العهد التركي

حكم الأتراك المنطقة العربية أغلب الحقبة التاريخيَّة الواقعة ما بين سقوط الدولة العباسية والقرن العشرين، وأثبت الانتصار المغولي الهمجي على العباسيين وغيرهم أهمية القوة العسكرية وأولويتها على جميع الوسائل الأخرى للقوة، فلا شك في أن المغول وعلى عكس المسلمين كانوا أقواماً بدائيين، غير متحضرين، لا يمتلكون إلا النزر اليسير من وسائل الحضارة والثقافة والتمدن ومقوماتها، إلا أن نظام القوة لديهم كان أفضل من النظام العباسي المهترىء، الذي تمَّ ترقيعه بالمرتزقة، وانهزمت الدولة العبَّاسية لأن محور المجابهة بينها وبين المغول كان القوة العسكرية بعد إهمال العبَّاسيين لمصادر القوة الكامنة في النظام الإسلامي ومبادئه في تطبيق العدل وإحقاق الحق والمساواة والشورى.

لم يكتف المغول بهزيمة الجيوش العباسية، واحتلال مدن المسلمين وأراضيهم، بل عمدوا إلى أسس القوة ووسائلها ومصادرها في المجتمع، فأتلفوها أو هدموها، لئلا يتمكن قادة هذا المجتمع وأفراده من لملمة قواه وإعادة بنائه، ومن بين إجراءاتهم التخريبية قتل الخليفة العباسي وأهل بيته وأعوانه وقادة الجيش، وذبح أعداد كبيرة من السكان، وإحراق القصور والمكتبات والدور، وطرح الكتب في الماء.

انتبه الأوروبيون الذين كانوا يعيشون في عصورهم الوسطى المظلمة إلى ضعف النظم العربية ـ الإسلامية وتصارعها، فتحرَّكت أطماعهم إلى الاستحواذ على ثرواتها، والسيطرة على طرق تجارتها، واحتلال مراكزها الدينيَّة، فبدأوا حملاتهم الصليبية، ونجحوا في السيطرة على مناطق شاسعة من بلاد مصر والشام، وعجَّلت تلك الحملات في نهاية الدولة الفاطميَّة في مصر، وذلك عندما استنجد الفاطميون بالأيوبيين ضد الفرنجة، الأمر الذي أدى إلى استيلاء الأيوبيين على مصر، وفي الوقت الذي كانت الجيوش الصليبية توسع رقعة احتلالها استمرَّت الخلافات والصراعات بين الممالك والدويلات المحلية، وتحالف بعض الحكام مع الأعداء الأجانب ضد منافسيهم المحليين، كما فعل أحد أمراء الأيوبيين وحكام آخر الدويلات العربية في إسبانيا قبل إجلائهم منها، وأثبتوا بذلك أنَّ الحفاظ على القوة والسلطة أهم لديهم من جميع القيم والمبادىء.

بالقوة استولى الأتراك العثمانيون على الحكم، وبالقوة حافظوا عليه وتسلَّطوا على العرب، فالجيش كان وسيلتهم الرئيسية في حماية امبراطوريتهم من الأعداء الخارجيين، وقمع الثورات والانتفاضات المحلية، وتأديب العصاة من الولاة، وانصبَّ اهتمام الإدارات المحليَّة على ضبط الأمن، وجمع الضرائب وفرض التجنيد الإجباري، واصطفى السلاطين العثمانيون وولاتهم الأعوان والمحاسيب، ووزَّعوا عليهم الإقطاعات الكبيرة مقابل مساعدتهم في حفظ الأمن وجباية الضرائب، وادَّعى العثمانيون الخلافة متجاوزين النصوص التي تحصرها بقريش، وأثبتوا أنَّ منطق القوة أكثر إقناعاً من جميع الأسانيد والحجج في استصدار الفتاوى المناسبة من رجال الدين، الذين أصبح الكثير منهم موظفين لدى الدولة العثمانية، ولم يتردد الحكام العثمانيون في وضع اعتبارات القوة والسلطة فوق الشريعة والتعاليم الدينية، فأصدروا قانوناً أجازوا فيه للخليفة قتل أفراد عائلته وحتى إخوانه الذين يخشى منهم على ملكه، وبالفعل فقد أقدم سليمان القانوني على قتل ابنه الأكبر الأمير مصطفى لهذا السبب.

تحوَّل العرب إلى مواطنين من الدرجة الثانية بعد أن فقدوا الخلافة وتقدَّم عليهم الأتراك في الحقوق والامتيازات، وتعرَّضوا للظلم والقهر والتنكيل والحرمان، وتخلفت اقتصاديات المنطقة

العربية بعد أن فقدت استقلالها، وأصبحت مجرد ولايات في الدولة العثمانية، تجبى منها الضرائب، ويساق منها المجندون، وكانت الدولة العثمانية، كما وصفها أحد المؤرخين، الامبراطورية الوحيدة التي لم تسهم في إغناء الحضارة الإنسانية، فقد اتصف عهدها بالتخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعلمي، فأغلقت المدارس والمستشفيات والمكتبات والمراصد أبوابها، ونضبت الإنجازات العلمية والثقافية، وانخفض الإبداع الأدبي، وندرت المؤلفات الدينية القيمة، وأصبحت اللغة العربية لغة محليَّة بعد أن كانت لغة الدولة والدواوين في العصر العباسي، وحلت محلها اللغة التركية التي أقبل المتعلمون من العرب على تعلمها وإتقانها.

وقع الحكام العثمانيُّون في الخطأ العباسي عندما استعانوا بالمرتزقة في تشكيل جيوشهم، ومع أنهم اختاروا مرتزقتهم منذ الصغر، وطبعوهم على الولاء لآل عثمان مثلما درَّبوهم على فنون القتال، إلا أن المماليك الانكشارية كسروا في النهاية طوق العبودية العثماني، وجنحوا إلى الاستقلال والانفصال في حكم ولاياتهم، وعندما حكم هؤلاء الأرقاء العربَ تسلطوا عليهم إلى حدّ الاستعباد، ففرضوا عليهم الضرائب الباهضة، وشرعوا جلدهم بالسياط عقاباً على الكبيرة والصغيرة، وعندما عجز فلاحو مصر عن دفع الضرائب الباهضة استولى محمد علي على أراضيهم، ثم أجبر الذكور من سن الثامنة حتى السبعين على المشاركة في أعمال السخرة الزراعية، وقبل انهيار الدولة العثمانية طالبت ثلة من أعيان العرب ومثقَّفيهم بمساواتهم في الحقوق والامتيازات، ولكنَّ الأتراك رفضوا ذلك، وردوا بإعدام العشرات منهم، واغتنم العرب نشوب الحرب العالمية الأولى وضعف الموقف العسكري للعثمانيين، فساندوا الحلفاء وساعدوهم في طرد القوات العثمانية من الحجاز وفلسطين وسوريا.

رسخ العهد العثماني في ذهنية العرب ونفسيتهم بشكل عام احترام القوة، وتبجيل أصحاب القوة والسلطة والنفوذ، والتوق إلى القوة باعتبارها غاية بحدِّ ذاتها، ووسيلة لبلوغ أهداف إيجابية أخرى، وتقبلوا سيطرة الأقوياء بوصفها سُنَّة من سنن الحياة، وتقرَّبوا إليهم بالطاعة والولاء والتملق والهدايا والرشاوي، للحصول على حمايتهم ومساعدتهم، وفي المراحل التي ضعفت فيها السلطات العثمانية لجأوا إلى الزعماء المحليين من شيوخ قبائل ورؤساء أحياء وأعيان وأزلامهم من «الشقاة»، ودفعوا لهم الأتاوات مقابل الحماية.

عهد الاستقلال

أزاح المستعمرون الأوربيون العثمانيين وحلّوا محلهم مؤكِّدين بدورهم مبدأ سيادة القوة وتسلط الأقوياء، وعدَّ المحتلون الجدد المناطق العربية وسكانها وثرواتها غنائم حرب، ونقضوا وعودهم بمنح العرب الاستقلال، ورزح العرب عقوداً طويلة من القرن العشرين تحت السيطرة المباشرة، أو غير المباشرة لهم، عبروا في أثنائها عن رفضهم لذلك بالاحتجاجات والمظاهرات والانتفاضات المسلحة، ولكنهم في الوقت نفسه استفادوا من أجواء الحرية المحدودة تحت ظل حكومات الاحتلال أو الانتداب في إنشاء الأحزاب السياسية والنقابات، وإصدار الصحف، والتمرس على الحرية، إلا أن هذه الأنشطة السياسية كانت مقصورة على فئة المتعلمين من سكان المدن، وظلت نظرة المواطن العادي إلى السلطة وأصحابها مشوبة بالخوف والتوجس، ولم يتخلص من التصور السلبي للسلطة باعتبارها شراً يفضل الابتعاد عنه إن أمكن، لأن حضورها عند باب بيته لا يهدف عادة إلاّ لتبليغه بدفع ضريبة أو غرامة، أو الحجز على ممتلكاته أو إلقاء القبض عليه.

عبَّرت حكومات الاستقلال عن التزامها بمبدأ القوة، وإصرارها على التفرُّد بالقوة والسلطة، وذلك من خلال حرصها الشديد على حماية الحدود المصطنعة التي رسمها المستعمرون، وأثبتت أنَّ هدف الوحدة العربية مجرَّد شعار أجوف، وكان من أوائل اهتماماتها تأسيس جيوش ضخمة، وأجهزة شرطة وأمن داخلي، واستعملت هذه الجيوش بالدرجة الأولى لحماية النظم العربية من التهديدات

الداخلية والحركات الانفصالية، وبرهنت نتائج حرب 1948م مع العصابات الصهيونية المحتلة لفلسطين أنَّ القوات المسلحة العربية لم تكن مهيأة وقادرة على مقارعة الأعداء الخارجيين.
ظلَّ التوق إلى القوة والسلطة وكذلك الخوف منهما يمتزجان في النفس العربية، ويؤثران على فكرها وسلوكها بدرجة كبيرة، وبالأمس هلل العرب لليابان المنتصرة على روسيا القيصرية، لأنها آسيوية وبالتالي أقرب إليهم، وأعجب بعضهم بألمانيا النازية ونظامها الفردي التسلطي، وفرحوا بانتصاراتها العسكرية على محتلي بلادهم من المستعمرين، وحلموا بعقد التحالفات معهم ضد الأعداء المشتركين، وأسهم تركيز الدول العربية بعد الاستقلال على بناء جيوشها وتسليحها في تحريك أطماع بعض القادة العسكريين بالاستيلاء على القوة السياسية، ونتيجة لذلك حدثت انقلابات عسكرية ناجحة أو محاولات إنقلابات في معظم الدول العربية. وعندما استلم القادة العسكريون الحكم استغنوا عن شكليات الديمقراطية السياسية، فألغوا الدساتير الدائمة واستبدلوها بدساتير مؤقتة، وحلوا المجالس النيابية، واستعاضوا عنها بمجالس «وطنية» أو «شعبية» معظم أعضائها من التابعين أو المحسوبين على النظام الحاكم. وفي بعض الحالات تبنَّى الحكام أو أنشأوا حزباً أو تنظيماً سياسياً واحداً، وأجبروا الناس بالترغيب والترهيب على الانضمام إليه، وسوَّغ بعض هؤلاء القادة فقدان الحريات في بلدانهم بدعوى أن أمية شعوبهم وجهلها يجعلانها غير قادرة على ممارسة الحرية والاختيار، أو أن الحرية هدف لا يمكن بلوغه إلا بعد تحقيق الوحدة بين الدول العربية، وهكذا تحقق نصف ما دعا إليه محمد عبده في مقال منشور في مجلة الجامعة العثمانية في 1901م بأن يحكم الشرق «مستبد عادل»؛ إذ من المؤكد أنَّ هؤلاء الحكام مستبدون إلا أنهم ليسوا عادلين، وإذا كانت "النظم السياسية للعالم العربي قد وضعت بشكل مؤكد للدور القوي للشخصية تاريخياً وحضارياً"، كما كتب البزاز[37]، فإن أصل هذه المشكلة، أي النظم الاستبدادية، هو الميل القديم - الجديد للقوة والتسلط الذي يتصف به الجميع عموماً، من حكام أقوياء وشعوب مستضعفة على حد سواء.
بغض النظر عن اختلاف الحكام حول الأهداف والسياسات والشعارات، وكونهم من «التقدميين» أو «المحافظين»، وانحيازهم إلى المعسكر الاشتراكي أو الرأسمالي أثناء مرحلة الحرب الباردة، فإنهم متفقون في التزامهم بمبدأ سيادة القوة وتسلط الأقوياء، وفي نظرتهم إلى القوة بأشكالها المختلفة من سياسية وعسكرية واقتصادية وإدارية باعتبارها أعظم قيمة اجتماعية، لذا فإنَّ شاغلهم الأول لا يزال احتكار القوة والمحافظة عليها، وعدم التفريط بها، ولأنَّ أكثرهم وصلوا إلى السلطة بالقوَّة المسلحة، واعتمدوا عليها في حماية مناصبهم ونظمهم، فقد اهتموا بها إلى حد كبير، ولضمان عدم حدوث انقلابات ضدهم اصطفوا من جيوشهم قوات خاصة، اختاروا قادتها وضباطها وأفرادها بعناية فائقة، مشدّدين بالدرجة الأولى على الإخلاص والولاء لهم، وكلّفوها بحراستهم، ثم أغدقوا عليها الأموال والعطايا، وسلّحوها بأفضل الأسلحة وأحدثها، ودربوها أحسن تدريب، لتكون رادعاً لبقية فصائل الجيش والشعب عن التفكير بالنهوض ضدهم، واستخدموها بالفعل لهذا الغرض وبنجاح كبير.
وللأغراض الأمنية نفسها، اعتنى الحكام بقوات الشرطة والأمن السرّي والمخابرات، فاختاروا للإشراف عليها من الأقارب والأعوان والأزلام أكثرهم إخلاصاً وولاءً ومصلحةً في بقاء النظام واستمراره، واهتموا بتنظيمها تنظيماً جيداً، ثم عمدوا إلى تشكيل عدة أجهزة أمنية، حتى لا يكون هنالك جهاز واحد قوي وقادر على التآمر على النظام، وأطلقوا أيدي أفراد هذه الأجهزة في مراقبة المواطنين، والتجسس عليهم، والقبض عليهم، وزجّهم في السجون الأمنية لمدد غير محددة، وممارسة التعذيب عليهم، واستخراج الاعترافات منهم، وعقد المحاكمات السرية والصورية لهم، والحكم عليهم وفقاً لقاعدة: أشدُّ العقوبات لأبسط المخالفات السياسية، ليرتدع بذلك كل من يفكر

---

[37] حسن البزاز، المنهجية السياسية للعقل العربي، عمان: دار البشير،1994، ص 84 .

بالمعارضة. وإذا كان العربي في أثناء العهد العثماني ينتابه الخوف من السلطة مرات معدودة في السنة الواحدة، وذلك عند حضور الجند لتحصيل الضرائب وسوق المجندين، فإن رعبه من أنظمة الحكم العربية دائم، يغفو ويفيق عليه يومياً، وإذا سها عنه مدَّة ذكرته به طرقة مفاجئة على باب بيته، والمحظوظون من العرب هم الذين يعيشون وتنقضي حياتهم، ولم تزرهم المخابرات أو الأمن أو يستدعون أمامها مرة واحدة، وهم قلة، وقد ولدت هذه الإجراءات الأمنية المشددة غروراً واعتداداً بالنفس لدى بعض القادة، من الرعيل الأول، مثل نوري السعيد، الذي تبجَّح قبل انقلاب تموز 1958م في العراق وقتله ثم جر جثته على قارعة الطريق بأنه"لم يولد بعد الإنسان الذي يستطيع اغتيالي" [38]. ولكن الذين جاؤوا بعده استفادوا من هذا الدرس، وكانوا أكثر احتراساً وحذراً وغروراً وتعجرفاً.

اتخذ الحكام العرب البطانات والحاشيات من الأتباع والمحاسيب والمرافقين، واختلفت تكوينة هذه البطانات حسب توجهات الحاكم وانتماءاته، فإذا كان قبلياً فهم عادة من أفراد قبيلته والقبائل المقربة لها، وإذا كان طائفياً اختارهم من أفراد طائفته، واستغل هؤلاء حظوتهم وقربهم من مركز السلطة في ممارسة النفوذ وجمع الثروات، ومن الطبيعي أن يتعرض هؤلاء المقربون المحسودون إلى نقمة الحاكم فيما لو بدر منهم انتقاد أو معارضة، بما في ذلك التشريد ومصادرة الأموال والسجن والقتل، ولا تختلف نكبات الموالين المعاصرين جذرياً عن نكبات وزراء بني العباس مثل البرامكة.

استعمل الحكام العرب الوظائف العامة وسيلةً من وسائل بناء نظام القوة والتسلط وتمتينه، فوظفوا الأتباع والمخلصين والمحاسيب في المناصب الإدارية العليا، ليكونوا رقباء لهم على الجهاز الإداري، وليسخِّروا موارده المالية والبشرية والمادية في خدمة أهداف النظام، ولأن هؤلاء الإداريين الكبار يشبهون أو يتشبهون بأولياء نعمهم في نمط التفكير وأسلوب الإدارة، فقد عمدوا أيضاً إلى التركيز على الولاء والطاعة والإخلاص في اختيار مرؤوسيهم في الإدارات الوسطى والإشرافية، وبالنتيجة أصبح النفاق والوصولية لا الجدارة أسرع الطرق للترقية وأقصرها.

ولأنَّ الأولوية المطلقة في الأهمية هي للبقاء في السلطة والتسلط سخَّرت الأنظمة العربيَّة جميع الموارد العامة من أجل ذلك، ولم تختلف في تعاملها مع الأموال العامة كثيراً عن تعامل الحكام الأمويين والعباسيين، فأثرى العديد منهم ثراءً فاحشاً أهَّلهم لتصدر قوائم أثرى أثرياء العالم التي تعدّها سنوياً مجلة فورتشن الأمريكية، في الوقت الذي يحرم الكثيرون من مواطنيهم من فرص العمل والخدمات الأساسية. واستخدمت الأموال العامة أيضاً في مكافأة الموالين، فأصبح من المعتاد أن يفوز المقرَّبون بالمقاولات والمناقصات والعطاءات والعقود بغضِّ النظر عن الاعتبارات الموضوعية، وامتدَّت أيدي الحكام إلى الأراضي العامة والموارد الطبيعية الأخرى، فسيطروا عليها استناداً إلى قوانين المستعمرين العثمانيين، التي عدَّت الأراضي العامة ملكاً حكوميَّاً، وتصرَّفوا بها كما شاؤوا. والجدير بالذكر أن الصهاينة المحتلين لفلسطين استندوا إلى القوانين نفسها في مصادرة الأملاك العامة لشعب فلسطين، وقام الحكام العرب بتوزيع مساحات كبيرة من الأراضي الحكومية على الأعوان والمحاسيب ثمناً لولائهم، فخلقوا طبقة إقطاعية طفيلية، وحولوا الفلاحين العاملين عليها إلى شبه أقنان، ثم جاءت بعد ذلك الحكومات العسكرية و«التقدمية» لتستولي عليها، وتعيد توزيعها بطريقة مرتجلة وغير مدروسة على الفلاحين من دون أن تحدث تأثيراً يذكر على أوضاعهم الاجتماعية والمعيشيَّة.

بعد أكثر من نصف قرن من الحكم الوطني، لا تزال اقتصاديات معظم الدول العربية ضعيفة، فالدول النفطية منها لم تنجح في تنويع اقتصادياتها، وتقليل اعتمادها على العوائد النفطية، ولا تزال الزراعة القطاع الاقتصادي الرئيسي في معظم الدول العربية غير النفطية، ومع ذلك فقدت هذه الدول اكتفاءها الذاتي في الإنتاج الزراعي، وأصبحت غالبيتها تستورد نسبة كبيرة من احتياجاتها من

---

[38] مجيد خدوري، عرب معاصرون، ادوار القادة في السياسة، بيروت: الدار المتحدة للنشر،1973، ص 83.

المحاصيل الزراعية، حتى بلغت قائمة تكاليف هذه المستوردات أرقاماً ضخمة تثقل كاهل اقتصاديات هذه الدول، وتقلِّل من الموارد المالية التي يمكن تخصيصها لمشاريع التنمية، وساءت أحوال الزراعة في بعض الدول العربية مثل السودان والصومال بسبب الحروب الأهلية إلى حدِّ المجاعة، كما تنذر الدراسات الحديثة بأنَّ موارد العرب المائية القليلة مهددة، والسبب الرئيسي هو نظام القوة والتسلط، الذي سخَّر قدرات الأمة العربية من أجل حماية النظم السياسية لا المصالح الوطنية لشعوبها وضمان مستقبلها، فاستهان بالعرب وحقوقهم في المياه الجيران مثل تركيا وأثيوبيا والعدو الصهيوني.

توالى إصدار خطط التنمية الخمسية والسنوية في الدولة العربية، من دون نهاية منظورة، أو أمل بإعلانٍ قريب بتحقق أهداف التنمية، أو على الأقل بلوغ مرحلة الانطلاق نحو التنمية، وكان للاعتبارات السياسية والأمنية تأثير واضح في إعداد هذه الخطط واختيار مشاريعها، الأمر الذي تسبَّب في إهدار الكثير من الموارد على مشاريع ذات قيمة إعلامية أكبر من فوائدها الاقتصادية وحاجة السكان لها، فأدخلت الصناعات الثقيلة مثلاً قبل تهيئة الطاقات المحلية لنقل تقنياتها وتطبيقها، وتدريبها على إدارتها وتشغيلها، ومن دون دراسة كافية لجدواها الاقتصادية وكانت نتائج تجربة بعض الدول العربية في تسيير الأنشطة الاقتصادية، مخيبة للآمال، وبعد عدة عقود من الخسائر المالية، وانخفاض الكفاءة، وتدني جودة المنتجات ارتأت هذه الحكومات العربية بيع شركات القطاع العام ومصانعه إلى الشركات العالمية والمستثمرين المحليين.

وبالمقارنة بذلك حققت قطاعات البناء والتشييد نجاحات ظاهرة للعيان في إنجاز الصروح العمرانية، مثل المباني العامة وقصور الدولة والمتاحف والنصب التذكارية والمكتبات والنافورات وتماثيل الحكام، لأنَّ هذه المشاريع حظيت باهتمام الحكام ومتابعتهم لقيمتها الإعلامية.

اهتمَّ الحكام بالإعلام من أجل خلق الصورة والانطباع المرغوبين عنهم في أذهان الناس، ولضمان ذلك منعت حرية الإعلام أو قيدتها، فأغلب الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى المقروءة والمرئية رسمية أو شبه رسمية، تمتلكها الحكومات أو أعوانها، وامتدت نشاطاتهم الإعلامية إلى الدول الأجنبية التي توجد فيها حرية إعلامية فأسسوا الصحف ومحطات التلفزة، ووظفوا فيها العديد من الإعلاميين العرب، ومن أبرز مهام هذا الإعلام الرسمي بقاء صورة الحاكم ماثلة في عيون الناس وأذهانهم، فلا تكاد تخلو نشرة أخبار أو صفحة أولى من صورة له وتقرير مطول عن نشاطاته وأقواله، ووفقاً لهذه الصورة الإعلامية المزينة أو الملفقة فإن الحاكم العربي معصوم، لا يخطيء ولا يقول شططاً، وكل قراراته صائبة، ولم يعترف حاكم عربي بخطأ، ولم يعتذر عن تقصير، وهو يستحق الاحترام والتبجيل من الجميع، فأتباعه يسلمون عليه باحترام شديد مقبِّلين يده أو كتفه، ويركعون أو ينحنون أمامه، وكل من تجرّأ على انتقاده مجنون أو عاق يستحق السجن أو خائن مصيره الإعدام، ويتبارى المرتزقة من الإعلاميين في استنباط أسماء وصفات له تميزه عن غيره من القادة والزعماء، مثل الأوحد والعظيم والمهيب والعزيز، وهو في الوقت نفسه رحيم رؤوف برعيته، له مجلس يستقبل فيه الناس ويستمع إلى شكاواهم ويتقبل عرائضهم واسترحاماتهم، وفي كل عيد أو مناسبة وطنية يعفو عن بعض المسجونين أو يخفف من مدد محكوميتهم، وساهم تسخير الاعلام لتعظيم صورة الحكام والترويج لنظمهم في حدوث كوارث قومية، فمن أجل الحصول على مكاسب إعلامية أخلَّت بعض النظم العربية بمبدأ السرية الضروري لحماية برامجها التسليحية - على عكس الكيان الصهيوني الذي لا يزال يخفي وينكر وجود أسلحته الذرية - ومن الأمثلة على ذلك إعلان الإعلام المصري في عهد عبد الناصر عن وجود برامج لصناعة الصواريخ، ولا يستبعد أن يكون ذلك قد ساعد جهود الصهاينة لإيقاف هذه البرامج، وتهديد الخبراء الأجانب العاملين فيها، ودفع العراق ثمناً باهظاً بسبب تبجح إعلام النظام البعثي الزائل وكشفه عن برامجه التسليحية.

ولأن الإعلام الرسمي يضخم ويبالغ، ويختلق إن تطلَّبت الأمور، ردود فعل الجماهير لأقوال الحكام وخطاباتهم، استنتج بعض المحللين بأن العرب رعاع عاطفيون، تهيجهم الشعارات، ويتأثرون بالأقوال، ويغلبون العواطف على العقل والمنطق، ومن هؤلاء أنيس صايغ الذي وصف العرب بأنهم "أكثر شعوب العالم تأثراً بالخطابة، فهم شعب عاطفي بالطبيعة، والشعب العاطفي تتلاعب به الكلمات المتأنقة، وتهيّجه التعابير الجياشة، وتثيره العبارات الحادة، والانفعالات النفسية أثناء الخطابة، وهم شعب يقدس الكلمة، ويحيط لغته بقداسة."[39]

في ظل نظام القوة العربي الجديد ظهر للوجود نوع من الأدب سمي بالأدب الوطني أو الجماهيري، والتسمية غير دقيقة لأن موضوعات هذا الصنف من الأدب ذات صلة بأهداف النظم الحاكمة وتستغل القضايا الوطنية لهذا الغرض، فعادة ما يركز هذا الأدب على مدح النظام الحاكم، واستعراض إنجازاته، والتضخيم من قيمتها وبالأخص الإشادة بدور الحاكم في قيادة البلد، وازدهار اقتصاده وسعادة مواطنيه، وفي بعض الدول العربية يضطهد الأدباء والكتاب الذين يرفضون الإسهام في هذه النشاطات الأدبية والثقافية.

وفي تقديري لا يجوز تحميل النظم كل المسؤولية عن هذه الأوضاع كما يرى محمود الناكوع: "قامت الصفوة العسكرية، وخلال نصف قرن من الزمن، بسحق وتحطيم الفكر والمفكرين، وشملت عمليات السحق الإنسان والمجتمع والقيم، وقامت تلك الصفوة بتشريد وقتل أو تعذيب أهل الفكر والإبداع في أشرس مؤامرة تعرَّضت لها المنطقة العربية، وكانت نتيجة كل ذلك هذا الانهيار والفساد والانحطاط الذي يتخبط فيه الوطن العربي"[40].

وإذا كانت هذه الصفوة العسكرية استطاعت الوصول إلى الحكم بالقوة، فإنها لم تنجح بالقوة وحدها في إدامة تسلطها، فمن المؤكد أن أصحاب السلطة في الماضي ضربوا بأيدٍ مسلحة بالسيوف والرماح، وفي الزمن المعاصر بالبنادق والمدافع والأسلحة الكيماوية، ولكنهم وجدوا أتباعاً مخلصين أثبتوا أنَّه كما يكونوا يولَّى عليهم، وأنَّ الملوك على دين أتباعهم أولاً، والعكس صحيح، ومن هؤلاء الأتباع المفكرون الذين أكدوا أنَّ السيف أو القوة أصدق أنباءً من الكتب، وهي الحد الفاصل بين أصحاب القوة والمحرومين منها، كما بنى هؤلاء الحكام شرعية نظمهم على فتاوى الفقهاء الطامحين إلى القوة، أو المبهورين بها بحكم تدريبهم الاجتماعي وما اكتسبوه من قيم، الذين أفتوا بعدم أهميَّة الطريقة التي يصل بها الحاكم إلى الحكم، سواء كانت شرعية أم غير شرعية، بمبايعة أصحاب الحل والعقد أم بحد السيف، وفي جميع الأحوال فإن على الرعية واجباً شرعياً بضرورة الاعتراف بالحاكم، وعدم التفكير بالإطاحة به، والامتثال لأوامره التي لا تخالف الشرع، ولم يلتفت إلا قلة من العرب لتحذيرات الأئمة وبعض الفقهاء من طاعة الحكام المتجبرين، وتأكيدهم على ضرورة معارضتهم بالطرق السلمية وغيرها، لأن وجودهم في الحكم يؤدي حتماً إلى نتائج وخيمة، أو حتى إلى كوارث، وأوضح الأمثلة على ذلك من تاريخ العرب الحديث التفريط بحقوق شعب فلسطين، وحربا الخليج المدمرتين، وصدقت هذه التحذيرات بشأن استكبار الحكام الجائرين ووضع أنفسهم فوق القوانين، وحتى فوق التشريعات الإلهيَّة، فهم بالتالي أنداد لله، وعدم الامتثال لهم مدخل للشرك والطغيان لأن موقفهم وكما عبَّر عنه أحد الحكام يتمثل في ما يأتي: ما هو القانون؟ إنه مجرد عبارة مكتوبة على ورقة أغيّرها كما أشاء إذا ارتأيت ذلك.

ولولا أنَّ غالبية العرب ملتزمون بقيمة القوة، ويضعونها فوق قيم كثيرة أخرى لما ساندوا النظم السياسيَّة المبنية على القوة، ولما وجد تعالي الحكام وادعاؤهم بأنهم فوق مستوى البشر العاديين

---

[39] أنيس صايغ، في مفهوم الزعامة السياسية من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر، بيروت: منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية، 1965، ص 161 .

[40] محمود محمد الناكوع، أزمة النخبة في الوطن العربي، 1989، ص 32.

استجابةً وقبولاً. وهذه العقلية المبهورة بالقوة والمنقادة إلى التسلط كامنة وراء استعداد الكثيرين للاقتناع بأن للحاكم قوى خارقة للعادة وأنه لا يقهر إذا انقضت أعوام ولم يُطح بنظام حكمه، وقديماً كتب ابن خلدون :"إن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه". وفي القرن العشرين خلص أمين الريحاني إلى النتيجة نفسها عندما أدرج ضمن صفات العرب :"حب لأبهة الملوك، وشغف بالعظمة التي تتجلّى في حاكم البلاد، واحترام لسلطته الأبوية أو الشبيهة بها".[41]

وللسبب نفسه لم تواجه الحكام صعوبة كبيرة في إيجاد الجنود المستعدين لاقتحام المدينة المنوَّرة والفتك بأهلها واغتصاب نسائها بعد أقل من ربع قرن من وفاة الرسول، ومن ثم حصار مكة ورمي الكعبة الشريفة بالمنجنيق، ولم يشتك الحجاج الثقفي من قلة السجّانين والجلاوزة، ولذا نسمع من بعض المعاصرين بأنَّ ثالث كل ثلاثة من سكان بعض الدول العربية هو مخبر للسلطة أو موظف في أجهزة الأمن والمخابرات، وإذا لم يجد فرصة لممارسة القوة والتسلط بهذه الطريقة حاول ذلك في بيته، أو في المدرسة أو العمل أو الشارع وحتى مدمن القات في اليمن هو طالب قوة، أو بالتحديد هو طالب شعور وهمي بالقوة والعظمة، كما يؤكد محمد السيِّد أيوب في وصفه لمشاعر المدمن أثناء تناوله المخدر: "إنه سيد نفسه لا سلطان لأحد في هذه الدنيا عليه ..ولا تقيّده أي قيود فهو سيد الدنيا وهو قاعد على أريكته".[42] ولهذه الأسباب استحقَّ أن يسمَّى الانحياز إلى قيمة القوة والتسلط المتوارثة من العصر الجاهلي، وعلى حساب قيم العدالة والمساواة والحق الإسلامية، انحرافاً مأساوياً في التاريخ العربي.

---

[41] أمين الريحاني، فيصل الأول، بيروت :مطبعة صادر،1934، ص 4 .

[42] محمد السيد ايوب، اليمن بين القات وفساد الحكم قبل الثورة، القاهرة: دار المعارف، 1963، ص 52.

الفصل الثاني
القبيلة لا القِبلة

وضع الإسلام العرب أمام أصعب اختيار في تاريخهم :القبيلة أم القِبلة؟ فإمَّا القبيلة بحسبها ونسبها وعصبيَّتها وأعرافها الجاهليَّة وإمَّا القِبلة وما تفرضه من انتماء لأمَّة واحدة يجمعها الإيمان بربٍّ واحد ورسالة سماويَّة، ولا تفرِّقها الُأصول القبليَّة أو العرقيَّة المختلفة، وقد اشتمل هذا الاختيار أيضاً على اختيار آخر بين تنظيم القبيلة المبني على هيكل القوَّة وتسلُّط الأقوياء على الضعفاء والعرف القبلي وبين تنظيم القِبلة أو الإسلام على أُسس العدالة والحريَّة والمساواة وتسخير القوَّة لحماية المبادىء والدفاع عنها وعن الأمَّة .فالإسلام نظام كامل للحياة الاجتماعيَّة على المستويين الفردي والجماعي، وهو بالتالي بديل للنظام القبلي الجاهلي وليس استمراراً له، أو تطويراً عليه، وكان الاختيار بين القِبلة والقبيلة، ولا يزال، شاقَّاً على العرب، وبسبب ذلك حاولوا الالتفاف حوله، وذلك بالتوفيق بين النظامين، وغالباً ما كان ذلك على حساب النظام الإسلاميِّ والتضحية بمبادئه وقيمه، وهكذا خسر العرب المزايا التنظيميَّة والتنسيقيَّة والتوحيديَّة التي جاء بها الإسلام، واضطرُّوا إلى استخدام القوَّة والقسر للحفاظ على تماسك كياناتهم المتفرِّقة، وتنازعوا في ما بينهم، فأضعفوا أنفسهم وأغروا الأجانب بغزوهم واحتلالهم؛ لذا فقد استحقَّ أن يسمَّى سوء الاختيار هذا انحرافاً.

أُسُس النِّظام القَبَلي

كانت القبيلة كلّ شيء بالنسبة للعربي في الجاهليَّة، إذ كانت الأساس الوحيد لهويَّته، ووطنه المرتحل معه في البوادي، وموضع اعتزازه وفخره، والمصدر الرئيسي لقوَّته ومكانته الاجتماعيَّة، والملاذ الذي يأوي إليه من الأخطار التي تهدِّده، ولم يكن العربي من دون قبيلته يساوي شيئاً، فهو خليع أو موصوم بالصعلكة، يقاطعه أهله كأنَّه بعير أجرب كما يصفه عروة بن الورد، ويتحيَّن الأعداء به الفرص لنهب أملاكه وقتله، وحتى المولى أو العبد الذي يرتبط بقبيلة يكون في وضع أفضل من المطرود من قبيلته التي تؤويه وتحميه وتذبُّ عنه.

كانت القبيلة عائلة الجاهليِّ الكبيرة الممتدَّة، فالجميع منحدرون من أصل واحد، تربطهم جميعاً رابطة الدم ـ وإن ضعفت الرابطة كلَّما ازداد عدد أفراد القبيلة وتفرَّعت إلى قبائل وعشائر ـ ولم يكن الجاهليُّ يعرف انتماءً لوطن أو بقعة من الأرض أو مدينة، فإذا طلب منه التعريف بنفسه، ذكر اسمه وتلقَّب بقبيلته أو عشيرته، وهذا ما يسعى الآخرون لمعرفته قبل معرفة حسبه ونسبه ومكانته بين أفراد قبيلته، أو ثروته، فالجِمال والغنم والخيل، حتى لو عدَّت بالآلاف لا تحفظها إلا قوَّة القبيلة ومنعتها، وسواء أكان الجاهليُّ غنيَّاً أم معدماً فهو بأمسِّ الحاجة إلى حماية قبيلته ونصرتها لضمان سلامته وسلامة أفراد أسرته، ولحماية ممتلكاته، ويحتِّم العرف القبلي على أفراد قبيلته أن يهبُّوا لنجدته وحمايته وردِّ المعتدين، أمَّا إذا جرح أو قتل فإنَّ قبيلته مسؤولة عن معاقبة القاتل أو المعتدي ولو تطلَّب ذلك أحياناً التورُّط في صراع طويل مع قبيلة أخرى، فلا يتوقَّف القتال إلَّا بعد هلاك العشرات أو ربَّما المئات من أفراد القبيلتين، وعلى أفراد القبيلة أيضاً أن ينفروا للدفاع عن ممتلكات أفرادها، وردِّ الغزاة، والمثابرة في مطاردة المغيرين لاسترجاع الأسلاب، وتتَّضح من ذلك أهميَّة القبيلة بالنسبة للعرب في الجاهليَّة، وكون الانتماء القبلي ضرورة ماسَّة للبقاء والحفاظ على وسائل العيش.

ولأنَّ الانتماء القبليَّ يخدم الحاجة للبقاء أُعتبر الخلع أو الطرد من القبيلة من أشدِّ العقوبات التي تفرضها القبيلة على أحد أفرادها وأقساها، والذي يصبح، نتيجة ذلك، هدفاً مغرياً وسهلًا للآخرين باستطاعتهم سلبه أو الاعتداء عليه أو حتَّى قتله دون خوف من الانتقام، واضطرَّت حاجة البقاء

والدِّفاع عن النفس هؤلاء المطرودين من قبائلهم إلى الدخول في حماية قبائل أخرى أو الانضمام إلى جماعات الصعاليك، وهي تنظيمات شبه قبليَّة، تعوِّضهم إلى حدٍّ ما عن فقدانهم حماية قبائلهم، وكان الصعاليك، يقاتلون سويةً دفاعاً عن جماعاتهم، ويغزون القبائل الأخرى، ويقطعون الطرق، ويغيرون على القوافل، ويقتسمون الغنائم في ما بينهم، فجماعة الصعاليك، إذاً، تنظيم بديل للقبيلة، مشابه له في أهدافه ووظائفه الأساسيَّة، ألا وهي توفير أسباب البقاء والعيش وحمايتها، ولكنَّه يفتقر إلى بعض مقوِّمات القبيلة مثل الأصل الواحد والاعتراف به فعليّاً من قبل القبائل الأخرى والالتزام بالعرف القبلي.

بالإضافة إلى أهميَّة القبيلة لبقاء الفرد الجاهلي، كانت المصدر الوحيد للأعراف والقيم والتقاليد التي تمسَّك بها ومارسها، ومنها استمدَّ حقوقه وواجباته مثل النّصرة والدخالة والضيافة والثأر والإرث، ونظَّمت الأعراف والقيم القبليَّة العلاقات بين جماعات القبيلة وأفرادها لإقرار السلم بينها ومنع الاعتداءات، ومعاقبة المخالفين .وباختصار، فإنَّها حدَّدت أنماط السلوك المقبولة وغير المقبولة، وفرضت على الجميع الالتزام بها، وبالإضافة إلى اشتراك أفراد القبيلة الواحدة في الأصل والولاء والقيم والعرف جمعتهم غالباً ديانة واحدة، وكما هو معروف كانت أغلب القبائل العربيَّة وثنيَّة أو مشركة، تعبد الأصنام، وكان لبعض القبائل أصنام خاصَّة بها، تتعبَّد عندها، وتقدِّم لها القرابين، كما أنَّ بعض القبائل في شمال الجزيرة تنصَّرت بأجمعها.

كان المجتمع القبليُّ الجاهليُّ رعويّاً، وبالتالي أقلّ تطوُّراً من حيث التنظيم السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ من المجتمع الزراعيّ، وشكَّل ذلك من دون شك عقبة كأداء أمام تطوُّر العرب، فمن الواضح، مثلًا، أنَّ التنظيم القبليَّ لا يصلح إلَّا للجماعات الصغيرة، حتَّى لو تجاوز عددها الآلاف، ولا يمكن أن يكون أساساً ناجحاً لنشوء الدول، كما ثبت من تاريخ الدويلات التي نشأت في جزيرة العرب في تلك الحقبة، لأنَّ القيم والأعراف القبليَّة، مثل العصبيَّة والغزو والسلب والثأر، تتعارض بديهيّاً مع حاجة الدول إلى السلم الداخلي والاستقرار والتعاون وسيادة القانون.

أسس النِّظام الإسلامي

جاء الإسلام بنظام بديل للنظام القبليّ، مبنيٍّ على عقائد ومبادىء وقيم تتناقض بشكل عام مع أسس النظام القبليّ، ولم يكن التكيُّف المتبادل، أو الحلول الوسط، أمراً مقبولًا، لأنَّ الإسلام دين سماويٌّ، وتعاليمه منزلة من عند الله ، الذي لا مبدِّل لكلماته، فلا يجوز أن يقدِّم الرسول تنازلاتٍ إلى تنظيم متخلِّف على حساب المبادىء والقيم السماويَّة، وإن كان النظامان يلتقيان على مكارم الأخلاق، مثل الكرم مثلًا؛ لذا كان الصراع بين النظامين محتَّماً، ووضع الجميع أمام الاختيار بينهما، فإمَّا القبليَّة بتعصُّبها وأعرافها وإمَّا الإسلام.

الخلاف بين النِّظامين

تمحور الخلاف بين النظامين القبليّ والإسلاميّ حول عدَّة أمور أو نقاط جوهريَّة، فالإسلام دعا الفرد إلى تجاوز ولاءاته القبليَّة الضيِّقة ليصبح عضواً فعَّالًا في الأمَّة الإسلاميَّة، وتتعارض هذه الدعوة مع العصبيَّة القبليَّة التي تجمع بين أفراد القبيلة الواحدة وتشدُّ بعضهم إلى بعضهم الآخر، ويترتَّب على هذا التحوُّل تغيُّرات فكريَّة وسلوكيَّة، فبينما كان الجاهليُّ المطيع لعصبيَّته ينصر أخاه وابن عمِّه ظالماً أو مظلوماً، وإلَّا اتَّهمه الناس بالجبن والخذلان، فرض عليه الإسلام الوقوف إلى جانب المظلوم كائناً مَنْ كان، وبغضِّ النظر عن انتمائه القبليِّ وصلة القرابة، والتصدِّي للظالم وإقرار العدل وقول الحقِّ والصدق في الشهادة حتَّى لو ضدّ أبيه أو أخيه، وكان القبليُّ يتفاخر بنسبه وحسبه، وكونه حرّاً، ومن أبوين عربيَّين، فلم يعد ذلك مقبولًا من المسلم الذي لا فرق بينه وبين مسلم آخر، عربيٍّ أو غير عربيٍّ، إلَّا بالتقوى، وكان القبليُّ معتاداً على الفوارق الاجتماعيَّة بين سادة القبيلة

وأفرادها ومواليها وعبيدها، وبين القويِّ والضعيف، وبين الغنيِّ والفقير. لكنَّ الإسلام ألغى جميع الفوارق المبنيَّة على أساس هيكل القوَّة وتسلُّط الأقوياء على الضعفاء؛ لذا فلا عجب أن يكون حماس المستضعفين لهذه المبادى الإسلاميَّة قويَّاً بقدر ما عارضها السادة والأقوياء خوفاً على مكانتهم ومصالحهم، وكان العرف القبليُّ يطبَّق بصورة غير متوازنة وغير عادلة على الأقوياء والمستضعفين؛ إذ يغضُّ الطرف عن مخالفات السادة والأقوياء، أو يعاقبهم بعقوبات مخفَّفة، فيما يتشدَّد ويتعسَّف في معاقبة المسيئين من المستضعفين، أمَّا الإسلام فلم يميِّز بين سيِّد وتابع، قويٍّ وضعيف، رجل أو امرأة، بل إنَّه ساوى بينهم أمام الشرع، ولم يخفِّف العقوبة إلَّا عن المسترقِّين تقديراً لظروفهم.

ومارس الجاهليُّون الكرم امتثالًا للعرف وطلباً للمكانة، لكنَّ الإسلام جعل للفقراء والمساكين «حقّاً معلوماً»، وهو الزكاة، في أموال الأغنياء الذين دعاهم أيضاً إلى إعطاء الصَّدقات والكفِّ عن أخذ الربا، واستثمار أموالهم بدلًا من كنزها وادِّخارها، ودفع أجور عادلة لعمَّالهم.

كان الغزو عادةً متأصِّلة في النظام القبليِّ وفي نفوس الأعراب، بل كان أسلوب حياتهم، فأبطله الإسلام، ونهاهم عن قطع الطرق، وقتل الناس ونهب أموالهم وممتلكاتهم لأنَّ «النهب ليس بأحل من ميتة»، وبذلك حرموا من مصدر رئيسيٍّ للاسترزاق، وكان ذلك نهايةً عمليَّةً لحياة البداوة، ولم يكن الكثيرون من الأعراب مُستعدِّين لتقبُّل ذلك، فعارضوا الدَّعوة الإسلاميَّة أو انضمُّوا إليها على سبيل النفاق، فاستحقَّ بعضهم أن يوصفوا بأنَّهم أشدُّ كفراً ونفاقاً.

باختصار، كانت الحياة القبليَّة تتَّصف بالجمود والتفرُّق وإثارة الأحقاد والصِّراعات الدَّموية، وأرادت الدَّعوة الإسلاميَّة كسر هذا الجمود وإنهاء الأحقاد والصِّراعات القبليَّة والانفتاح على البشريَّة جمعاء، وتوحيد العرب في أُمَّة مسلمة متعاونة وقويَّة، ولأنَّ النظامين على طرفي نقيض في الجوهر، وفي كثير من التفاصيل حدث الصراع بينهما، وترأسَّت قريش جبهة أعداء الإسلام من القبليِّين، على الرغم من كونها قبيلة شبه متحضِّرة، أو أقلّ بداوة مقارنةً بقبائل البادية، إلَّا أنَّها كانت تنتمي إلى النظام القبليِّ السَّائد في الجزيرة العربيَّة، وللسبب نفسه كانت استجابة القبائل الأخرى المحيطة بمكَّة للدَّعوة الإسلاميَّة فاترة، أو حتَّى عدائيَّة، لأنَّها أدركت منذ الوهلة الأولى أنَّ الاعتقاد بالدِّين الجديد لا يعني فقط تسفيه معتقداتهم ودين آبائهم وأجدادهم بل يعني أيضاً التخلِّي نهائياً عن النظام القبليِّ الذي ولدوا وترعرعوا عليه، وليس مستغرباً أن يكون أكثر الناس تحمّساً للدِّين الجديد واستعداداً للتمسُّك به أبعدهم عن القبليَّة، والأكثر معاناة من سلبيَّات النظام القبليِّ والأقلّ انتفاعاً من محاسنه، وهم المستضعفون والموالي والمسترقّون.

عندما رفض الرسول عرض قريش المغري بالزعامة والملك عليهم، أيقنوا بأنَّه صاحب رسالة، جادّ في الدعوة إليها وتطبيقها، وأنه بالتالي يشكِّل خطراً جسيماً على نظامهم القبليِّ؛ لذا عاقبوه وفقاً للعرف القبليّ وذلك بمقاطعته هو وعصبته من بني هاشم، الذين عدّوهم، حسب هذا العرف، مشتركين في المسؤوليَّة عنه وعن تصرُّفاته، حتَّى وإن لم يؤمن جميعهم بدعوته، وعانى الرسول وأقرباؤه بسبب ذلك معاناة شديدة، أمَّا بقيَّة المسلمين الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة فقد استفادوا من النظام القبليِّ في الحصول على الحماية، كما يذكر طه حسين:

"كان غيرهم من المسلمين في سعة ودعة تمنعهم عشائرهم، كما منعت تيم أبا بكر وكما منعت عدي عمر وكما منعت أميَّة عثمان" [1].

وطبَّق سادة قريش المتحمِّسون لجاهليَّتهم والخائفون على امتيازاتهم العرف نفسه في تعاملهم مع المستضعفين والمسترقّين من المسلمين الذين تعرَّضوا لضغوط شديدة لإرغامهم على ترك الإسلام والعودة إلى عبادة الأصنام وإلى النظام القبليِّ، فضُربوا وعُذِّبوا حتَّى استشهد بعضٌ منهم، كما

[1] طه حسين، الفتنة الكبرى، 2، علي وبنوه، القاهرة، دار المعارف، 1996، ص 69 .

حرص هؤلاء السَّادة على التخفِّي وراء القبليَّة في خطَّتهم لاغتيال الرسول، فألبسوا مؤامرتهم ـ التي كشفت عن جانب الجبن والخسَّة في صورة الرجل الجاهلي ـ ثوباً قبليّاً باختيارهم لتنفيذها أفراداً من قبائل شتَّى، حتَّى يضيع دم الرسول بينهم إن نجحوا في اغتياله، ويستعصي على أهله طلب ثأره.

عهد الرِّسالة وموقفه من القبليَّة

نجح الإسلام في يثرب نجاحاً لم يشهده في مكَّة، وذلك لأنَّ النظام القبليَّ في المدينة كان سبباً رئيسيَّاً في فقدان السِّلم وضعف الأمن والاستقرار فيها، فبينما سيطرت قريش تماماً على مكَّة، واستقلَّ سادتها (الملأ) بتقرير شؤونها وتسيير أمورها، كان الخلاف والتنافس والصراع مستعراً في يثرب بين القبيلتين الرئيسيتين المستقرَّتين فيها، وهما الأوس والخزرج، وزاد من حدَّة الفرقة والتشرذم والصراع وجود أقليَّات يهوديَّة طفيليَّة في المدينة والقرى والحصون الملحقة بها؛ لذا كان لدعوة الإسلام التوحيديَّة، والناهية عن الخلاف والصِّراع، تأثير إيجابيٌّ قويٌّ على نفوس أهل يثرب، الذين عانوا طويلًا من الصِّراع القبلي، الذي كلَّما خبا عاد ليستعر من جديد، ونجح الرسول، بفضل دعوة الإسلام والتوفيق الإلـهيّ، في إطفاء جذوة الصِّراع بين القبيلتين وإزالة ما علق في النفوس من ترسُّبات العداوة، وإحلال مشاعر الأخوَّة والمودَّة محلها، وعلى أساس متين من العدل والمساواة.

واجه الرسول ودعوته تحدِّيات صعبة في المدينة، ولكنَّه أفلح في التغلُّب عليها، وتمثَّل أول انتصار في إزالة الخلافات المستعصية بين قبيلتي الأوس والخزرج، فصاروا كلُّهم يُعرفون بـ «الأنصار»، وغدت هذه التسمية أهمَّ وأعظم بالنسبة إليهم من انتسابهم القبلي، وهذا سبق عبقري في مجال حلِّ الخلافات، ولكن مهمَّة الرسول لم تتوقَّف عند ذلك، فإذا كانت العداوة موجودة بين القبيلتين، وهما متجاورتان وتسكنان مدينة واحدة، فكيف ستتَّسع هذه المدينة التي ضاقت بأهلها للمسلمين الأغراب القادمين من مكَّة، والمنتمين إلى أصول قبليَّة مختلفة .ولكنَّ الرسول كان أهلًا لهذا التحدِّي أيضاً، وفي رسالته السماويَّة من المبادىء ما يكفي للتغلُّب عليها، ولم يكتفِ بالوعظ والنصح، بل وضع خطة عمليَّة فذَّة لتجاوز ظهور أيَّة خلافات قبليَّة محتملة، والوصول بالعلاقات بين سكَّان المدينة والطارئين عليها من المسلمين إلى مستوى العلاقات الإسلاميَّة النموذجيَّة، وتحقَّق ذلك، أولًا، بتوحيد القادمين من مكَّة في جماعة عرفت بـ «المهاجرين»، وتجدر الإشارة إلى أنَّه لو أراد الرسول التوفيق بين المجموعتين، أي المهاجرين والأنصار، على أساس قبليٍّ بحت، لدعا الأنصار إلى استضافة المهاجرين كما يقتضي ذلك العرف القبلي، أو قبولهم على أساس مبدأ «الاستجارة»، وهو عرف آخر يفرض على الفرد أن يوفِّر الحماية للمستجير به حتى لو كان عدوّه، ولكنَّ الرسول ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير عندما آخى بين المجموعتين ـ بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين والمهاجرين، وبين العربيِّ وغير العربيِّ من المسلمين، متجاوزاً بذلك الفوارق القبليَّة والعنصريَّة والطبقيَّة ومحطِّماً الحواجز النفسيَّة والعاطفيَّة للوصول بالجميع إلى صعيد الأخوَّة التامَّة على أساس قاعدة «كلّنا لآدم»، والجميع يعبدون ربّاً واحداً، وينتمون إلى أمَّة واحدة، وقد غفل الكثيرون عن المعاني الثوريَّة العميقة لهذه الخطوة غير المسبوقة في تاريخ البشريَّة تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى ومشيئته في الآية الكريمة: {واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعَاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً }[2].

[2] القرآن الكريم، آل عمران: 103 .

بعد تحقُّق هذه المعجزة الإنسانيَّة ـ الاجتماعيَّة على يدي الرسول، وجَّه اهتمامه إلى مسألة شائكة أخرى، ألا وهي علاقة المسلمين بأهل الكتاب، فوجود جماعات من اليهود في المدينة جعلها أنموذجاً مصغَّراً لمجتمع التنوُّع السكَّاني في ذلك الزمان، وكما هو معروف ميَّزت الدعوة الإسلاميَّة بين اليهوديَّة واليهود، فاليهوديَّة دين سماوي ـ وإن كان الإسلام لا يعترف بصحَّة هذه التسمية لأنَّ الدِّين عند الله ومنذ البدء الإسلام فقط ـ، والتوراة والزبور كتابان سماويَّان، ومع أنَّ الإسلام أشار إلى تحريف اليهود لكتبهم وديانتهم فإنَّه اعترف بحقِّهم في حرِّية العبادة والعيش بسلام واطمئنان ومساواتهم أمام القضاء، وأقرَّ هذه الحقوق والواجبات نفسها للنصارى، وانبرى الرسول مُبشِّراً بدين الإسلام بين اليهود، وأجاب على أسئلتهم، وحاورهم حول مسائل عديدة برحابة صدر، وردَّ على رميهم الإسلام بمختلف الأكاذيب والتلفيقات بالموعظة والكلمة الحسنة، وصبر على استهزائهم وأذاهم من أجل وضع الأسس وإيجاد الأنموذج للتعايش السِّلمي بين المسلمين وأهل الكتاب، إلَّا أنَّ يهود المدينة وما حولها نقضوا العهود، وحاولوا إثارة الفتن بين المسلمين، وتآمروا مع أعداء الإسلام ضدَّ المسلمين، فاستحقُّوا بذلك عقوبة الخيانة، وخسروا الحقَّ في العيش بسلام في المجتمع الإسلامي.

استمرَّ الرسول في كفاحه ضدَّ القبليَّة وسعيه لاجتثاث رواسبها من تفكير المسلمين وسلوكهم، فكان لا يترك أيّ مظهر من مظاهر القبليَّة الجاهليَّة إلَّا وصحَّحه ونهى عنه، مبيِّناً الفكر الأمثل والسلوك الأرشد في خدمة المجتمع الإسلامي الموحَّد، فعندما وجَّه الصحابيُّ أبو ذرّ الغفاري ملاحظة فيها شيء من عنصريَّة القبليين وتعصّبهم إلى بلال الحبشي، أوقفه الرسول وبيَّن له خطأه، الأمر الذي حدا بأبي ذرّ، وفي استجابة فوريَّة، إلى طلب غفران بلال بتذلُّل، وبرز التعصُّب القبلي الجاهلي على السطح مرّة أخرى عندما نشب خلاف بين سنان الأنصاري وجهجان المهاجر، فثارت الحميَّات، وشهر المهاجرون والأنصار سيوفهم على بعضهم البعض متناسين، ولو لبرهة قصيرة، أخوّتهم الإسلاميَّة وما تفرضه عليهم من توادٍّ وتراحم ومسامحة، فخاطبهم الرسول: "ما بال دعوى الجاهليَّة؟ دعوها فإنَّها نتنة..." [3]، وفي هذا القول بيان واضح وصريح لحكم الإسلام الدامغ والنهائي على التعصُّب القبلي بأنَّه أمر كريه، بل فاسد ونتن، يجب أن يترك، فالخلاف بين المسلمين لا يكون إلَّا سلميَّاً، ولا يحلُّ بالاحتكام إلى السيف بل إلى هدي الله ورسوله، وبالوساطة الحسنة للمسلمين، ثمَّ يؤخذ لكلِّ ذي حقٍّ حقُّه على أساس العدل من دون اعتبار لتعصُّب عرقيّ أو قبليّ أو عائليّ، وكرَّر الرسول على المسلمين التحذير من العصبيَّة ونهاهم عنها كما يتبيَّن من أقواله التالية:

"ليس منَّا مَنْ دعا إلى عصبيَّة".

"من تعصَّب أو تُعصِّب له فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه".

"من كان في قلبه مثقال حبَّة من خردل من عصبيَّة بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهليَّة".

ولأنَّ القبليَّة قديمة قدم الشعب العربيِّ، وآثارها لم تمَّح تماماً من نفوس بعض المسلمين الأوائل، ظهرت بعض المواقف والسلوكيَّات المعبِّرة عن القبليَّة، فبعض الرّماة الذين تخلَّوا عن مواقعهم على جبل أحد طمعاً بأسلاب القتلى من المشركين تصرَّفوا وفقاً لقبليَّتهم وخالفوا أمر الرسول، فجاءت النتيجة السلبية درساً بليغاً.

اعتاد سادة القبائل على التفكير والتدبير من أجل خدمة أهدافهم الذاتيَّة ومصالح قبائلهم إلى درجة الأنانيَّة المفرطة والتهوُّر، الأمر الذي أدَّى، أحياناً، إلى استعار حروب دمويَّة طويلة الأمد مثل داحس والغبراء، ولكنَّ غايات الإسلام الماثلة دائماً في ذهن الرسول كانت إنسانيَّة وعالميَّة، فالدعوة موجَّهة

---

[3] إبراهيم يحيى الشهابي، الشخصيَّة العربيَّة، دمشق: مكتبة دار الفتح، 1981، ص 22 .

إلى الناس كافَّة، والأساليب غير الإنسانيَّة في إيصالها ونشرها مرفوضة تماماً، وانطلاقاً من هذا التفكير الاستراتيجيّ الذي لم يستطع بعض أتباعه إدراكه وتقبُّله وافق الرسول على صلح الحديبيَّة، فماذا كان موقف هؤلاء المسلمين؟ لقد رفضوا أمر الرسول في النحر والحلق لأنَّهم "اعتبروا الصلح انتقاصاً لهم وتفريطاً في حقوقهم" [4] .وكان مثل هذا الموقف الذي يركِّز على المنافع الآنيَّة بدلًا من المصالح الاستراتيجيَّة أمراً معهوداً بين القادة القبليِّين في عصر الجاهليَّة وسبباً رئيسيَّاً وراء تفرُّقهم وتشرذمهم وصراعاتهم.

عهد الخلافة الراشديَّة

أضعفت جهودُ الرسول القبليَّة وتعصّبها إلى حدٍّ كبير، إلَّا أنَّها لم تختفِ تماماً من النفوس، وهذا ما تؤكِّده الملاحظة التالية لمحمَّد جميل بيهم:

"عاد العرب يتلمَّسون طبائعهم ومشاعرهم الجاهليَّة وينقِّبون في تعاليم الدين عمَّا يوفِّر المشروعيَّة لأهوائهم القبليَّة". [5]

وحتَّى قبل أن يوارى جثمان الرسول الثرى كانت القبليَّة تطلُّ برأسها، وذلك أثناء احتدام النقاش بين المجتمعين في السقيفة لاختيار خليفة للرسول، ويتبيَّن من فحوى مداولاتهم أنَّ أساس الخلاف بينهم كان فئويَّاً وقبليَّاً، فطالب الأنصار بالخلافة وادَّعوا بأنَّهم الأحقّ بها لأنَّهم نصروا الرسول ودينه، وحاججهم المهاجرون بأنَّ لهم السّبق في الإسلام وهم أيضاً المضحّون بالمال والديار من أجل الدعوة، وبعد أن احتدم النقاش قدَّم أحد الأنصار حلًّا وسطاً بأن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير، ولكنَّ المهاجرين رفضوه، وأصرُّوا على أن يكون الخليفة منهم، وبالتحديد من قريش، وتمَّ لهم ذلك بمبايعة أبي بكر، ولكن من دون إجماع، وتذكر الروايات أنَّ أحد الأنصار، وهو الحباب بن المنذر، استاء من ذلك وشهر سيفه، إلَّا أنَّهم أخذوه منه، فصار يضربهم بثوبه حتى انتهت البيعة، وقال: "فعلتموها يا معشر الأنصار! أما والله لكأنِّي بأبنائكم على أبواب أبنائهم، قد وقفوا فيسألونهم بأكفِّهم، ولا يسقون الماء" [6]، وخرج سعد بن عبادة رئيس الخزرج من الاجتماع وهو غير راضٍ عن النتيجة، ولم يبايع أبا بكر أو عمر، كما لم يقبل بالبيعة بنو هاشم وعدد من الصحابة، ويتَّضح منٍ هذه الوقائع بأنَّ الولاءات القبليَّة لم تمت، وأنَّها كانت حيَّة ومؤثِّرة في النفوس.

ومن المحتمل أن يكون للقبليَّة دور في حدوث الردَّة على نطاق واسع، فالمرتدُّون من رافضي دفع الزكاة إلى الخليفة أبي بكر كانوا مسلمين موحِّدين ومطبِّقين لشعائر الدين وتعاليمه، وكانوا يدفعون الزكاة إلى الرسول، امتثالًا لأوامر الله، ولربَّما اعتبروا دفع الزكاة إلى خليفته إقراراً وإذعاناً بسيطرة قريش، وأمراً شبيهاً بالأتاوة التي كانت تدفعها القبائل الضعيفة إلى القبائل القويَّة في الجاهليَّة، أمَّا المرتدُّون عن الإسلام كلِّيةً، والذين اتَّبعوا أدعياء النبوَّة مثل مسيلمة وسجاح التميمية فقد كانوا قبليِّين في مطالبتهم بتقسيم الجزيرة بينهم وبين المسلمين، أي أن تكون لهم ديار خاصَّة بهم وأُخرى للمسلمين كما كان وضع القبائل في الجاهليَّة، وهؤلاء لم يتقبَّلوا أمميَّة الإسلام وتجاوزه للحدود القبليَّة

---

[4] المصدر نفسه، ص 115 .

[5] محمَّد جميل بيهم، المرأة في حضارة العرب، بيروت: دار النشر للجامعيِّين، 1962، نقلته كريستين نصار، مواقف الأسرة العربيَّة من اضطراب الطفل، دراسة سيكولوجيَّة تتناول الطفولة بشكل عام، طرابلس: جروس برس، 1993، ص 76 .

[6] عبد المتعال الصعيدي، علي بن أبي طالب والتقريب بين المذاهب، ص 237 - 242، في كتاب الوحدة الإسلاميَّة، جمع عبد الكريم الشيرازي. بيروت: مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، 1992، ص 238 .

الضيِّقة، وظنَّ هؤلاء أنَّ اختلاقهم لدين جديد يسوِّغ لهم المطالبة بمنطقة نفوذ، وعندما سُئِل أحد بني ربيعة عن سبب اتِّباعه لمسيلمة الكذَّاب ورفضه نبوّة محمَّد كان تسويغه قبليّاً بحتاً: إنَّني أعلم أنَّ نبي ربيعة كاذب، ونبي مضرّ صادق، ولكنَّ كاذب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضرّ[7]، كما يستدلُّ من أعداد المرتدِّين الكبيرة نسبيَّاً أنَّ القبليَّة لم تزل قويَّة بين العرب.

اتَّجه المسلمون بعد قمع المرتدِّين إلى الفتوحات، وأفلحوا في السيطرة على العراق وفارس وبلاد الشام ومصر، ويعزو المؤرِّخون ذلك النجاح الباهر والسريع في توسيع رقعة الدولة الإسلاميَّة إلى قوَّة إيمان القوَّات العربيَّة وحماسها للقتال باعتباره جهاداً في سبيل الله، إلَّا أنَّ ابن خلدون يضيف سبباً آخرَ لهذه الانتصارات، وهو قوَّة العصبيَّة [8]، ويتَّفق معه طه حسين في إشارته إلى: "عصبيَّة المضريِّين وطموحهم إلى الفتح وشرههم إلى الغنيمة"[9].

لم تختفِ القبليَّة، وظلَّ الأصل القبلي ركناً أساسيَّاً من هويَّة العربيِّ المسلم، فالخليفة عمر بن الخطَّاب أكَّد على ذلك عندما قال: "تعلَّموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا" [10]، كما رفع الخليفة حدَّ السرقة عن مسلم سارق في أيَّام المجاعة وفرض على قبيلته دفع ثمن ذلك لأنَّهم، وفقاً لتقديره، أجاعوه واضطرُّوه إلى السرقة، أي أنَّه حمَّل القبيلة مسؤوليَّة عمل الفرد وفقاً للعرف القبلي «في الجريرة تشترك العشيرة»، علماً بأنَّ المسؤوليَّة في الإسلام فرديَّة، وإذا كان من الجائز تحميل المجموعة مسؤوليَّة أفعال فرد منها، فالمجتمع الإسلاميُّ بأكمله يجب أن يتحمَّل ذلك، لأنَّ الكلَّ راعٍ والكلّ مسؤول عن رعيَّته. كما ظهر تأثير القبليَّة في تفاخر بعض المسلمين بأنسابهم أمام الصحابي سلمان الفارسي، وعندما لم يرد عليهم سألوه: ابن مَنْ أنت؟ قال: أنا ابن الإسلام، وهو أصدق تعبير عن دعوة الإسلام إلى نبذ العصبيَّة القبليَّة والعرقيَّة.

سجَّل المؤرِّخون على الخليفة عثمان بن عفَّان تفضيله لأقاربه، واتِّكاله عليهم في إدارة الدولة الإسلاميَّة، وسوَّغ بعضهم ذلك بكونه من باب الإحسان لذوي القربى الذي أمرت به تعاليم الإسلام، بينما اعتبره آخرون تعصُّباً لقريش، وبالذات لعشيرته بني أميَّة، وكان ذلك سبباً في تأليب الناس عليه وتفشِّي الاضطرابات التي أدَّت إلى مقتله.

ورث الخليفة الرابع دولة ممتدَّة الأطراف، تنوَّعت فيها القوميَّات واللُّغات، وأكثريَّة سكَّانها من حديثي العهد بالإسلام، وبالتالي لم يكن الإيمان والإخلاص للعقيدة بالدرجة التي كان عليها في بدء الدعوة، وبالإضافة إلى العصبيَّات القبليَّة التي لم تختفِ تماماً برزت عصبيَّة جديدة ضدَّ غير العرب من موالٍ وفرس وغيرهم، وتجدر الإشارة إلى أنَّ الحقبة الممتدَّة بين وفاة الرسول ومبايعة الإمام عليّ بالخلافة شهدت أحداثاً خطيرة مثل الردَّة ومقتل عثمان، وقد أثبتت الردَّة، كما أسلفنا، بأنَّ إسلام الكثيرين لم يكن قويَّاً ولا صحيحاً. أمَّا مقتل عثمان فقد وقع بعد المرحلة الأولى والحاسمة من الفتوحات، وتفرَّغ العرب لإجراء الحسابات حول توزيع غنائم الفتوحات، وتذمَّر بعضٌ منهم من التفاوت في الاستفادة من هذه الغنائم، واتَّخذ الإمام عليّ عدداً من الإجراءات لتصحيح هذا الوضع، من بينها إلغاء قاعدة احتساب العطاء على أساس السبق في الإسلام، وأقرَّ بدلًا من ذلك المساواة في العطاء، ويُفهم من قاعدة العطاء وفقاً للسبق أنَّ «الطليق» من أهل مكَّة، الذي ربَّما حارب مع المشركين في بدر وأُحد والأحزاب وقتل وجرح من المسلمين، ولم يُسلم إلَّا بعد فتح مكَّة استحقَّ

---

[7] مسلم الحسيني، الإسلام دين الوحدة. ص 149 - 153، في الوحدة الإسلاميَّة، مصدر سابق، ص 152 و153 .

[8] نجوى قصاب حسن، الفكر الاجتماعي عند العرب، دمشق: جامعة دمشق، 1982، ص 181 .

[9] طه حسين، الفتنة الكبرى،1، عثمان، ص 116 .

[10] نجوى قصاب حسن، مصدر سابق، ص 181.

عطاءً أكبر من عطاء العربيّ أو الفارسيّ أو الروميّ من أهل العراق والشام الذي أسلم بعد وصول الدعوة إليه، ومن الطبيعيّ أن يستاء العرب الذين قلَّ عطاؤهم بعد تطبيق قرار الإمام عليّ.

أدَّى نقل مقرِّ الخلافة من المدينة المنوَّرة إلى الكوفة إلى تغيير في معادلة القوى داخل الدولة الإسلاميَّة، فلم يعد للعرب من أهل المدينة ومكَّة التأثير المباشر نفسه على عمليَّة اتِّخاذ القرار فيما أصبح لسكَّان الأمصار المفتوحة، ما عدا الشام التي أعلن واليها معاوية بن أبي سفيان العصيان، رأي مسموع ومؤثِّر، وحرص الإمام على مراقبة ولاته حرصاً متناهياً، فكان يراسلهم محذِّراً من التقصير في حقوق المسلمين، ومؤكِّداً على ضرورة تطبيق العدل والمساواة، وحاسب بشدَّة كلَّ مَنْ أخلَّ بهذه المبادىء، وبالرغم من ذلك كان جذب العصبيَّة القبليَّة أقوى من المبادىء والتحذيرات كما يتبيَّن من كتاب الإمام عليّ إلى واليه المنذر بن الجارود: [11]

"بلغني أنَّك قد بسطت يدك من مال الله لمن أتاك من أعراب قومك، كأنَّه تراث عن أبيك وأمِّك، وإنِّي أقسم بالله لئن كان ذلك حقَّاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك".

فهذا الوالي مُتَّهم بمحاباة قومه، وكان ذلك أمراً اعتياديَّاً، بل مدعاة للفخر والتباهي في الجاهليَّة، إلَّا أنَّ الإسلام منعه، وفرض على أولياء الأمور العدل بين الناس، سواء كانوا أولي قربى أو أعداء، واعتبر الإمام مَن تثبت عليه تهمة التعصُّب لقومه أحقر وأحطّ مكانةً من الحيوان والجماد، وخلص طه حسين من دراسته المستفيضة لأحداث تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي إلى عودة العصبيَّة القبليَّة وسيطرتها على الفكر والسلوك، ووصف العصبيَّة بين جند البصرة بأنَّها كانت "واضحة وبشعة" بحيث إنَّهم كانوا "يراعون قبائلهم أكثر ممَّا يراعون السلطان، ويحفلون بأحسابهم أكثر ممَّا يحفلون بالإمام" [12].

كان الجمل، ولا يزال، رمزاً للبداوة والقبليَّة، وسواء كانت دوافع أصحاب الجمل، برئاسة طلحة والزبير، الثأر من قتلة عثمان أو الإطاحة بالخليفة الشرعيّ للمسلمين واستبداله بأحد منهم، فإنَّ هذه الدوافع قبليَّة في جوهرها، ولو حدث ذلك في الجاهليَّة لكان أمراً اعتياديَّاً، إذ كثيراً ما تقاتلت القبائل من أجل الثأر أو الاستحواذ على وسائل البقاء والقوَّة والثروة، ولكنَّ الإسلام نهى المسلمين عن التقاتل وأمرهم بحلِّ خلافاتهم بالطرق السلميَّة، واعتبر التأليف بين قلوبهم وتآخيهم نعمة أنعم الله بها عليهم.

في الوقت الذي كان الإمام عليٌّ يقارع العصبيَّة القبليَّة كان معاوية بن أبي سفيان، الوالي المتمرِّد في الشام، يغذِّي هذه القبليَّة ويشجِّع على العصبيَّة، وذلك من خلال معاملة الناس على أساس انتماءاتهم القبليَّة، وفيما كان الإمام يشجِّع على الالتزام بالقيم الإسلاميَّة وأخلاقيَّاتها السامية استغلَّ معاوية مواطن الضعف في النفوس لاستمالة الناس إلى صفِّه، فأغدق على سادة القبائل ـ بما في ذلك بعض أتباع الإمام عليّ ـ العطاء ومناهم بالوعود، وانتهى ذلك الصراع باغتيال الإمام عليّ واضطرار ابنه الحسن إلى التصالح مع معاوية بعد أن انفضَّ عنه معظم الناس، ومن الممكن اعتبار هذا الصراع امتداداً للصراع بين الإسلام بمبادئه وقيمه وهويَّته الأمميَّة من جهة، ومخلَّفات الجاهليَّة والتعصُّب للقبيلة والعنصر من جهة أخرى.

الحكم الأمويُّ وعودة القبليَّة

كان الحكم الأمويُّ قبليَّاً في احتكار بني أميَّة للحكم، وكان كلُّ حاكم منهم يعهد لابنه أو أخيه أو أحد أقربائه بولاية العهد، ويأخذ له البيعة بالقسر والإكراه إن تطلَّب الأمر، ومن المؤكَّد أنَّ بني أميَّة كانوا من أقلِّ الناس استحقاقاً للخلافة والتحكُّم برقاب المسلمين ومصائرهم وأرزاقهم وديارهم، لأنَّ

---

[11] طه حسين، الفتنة الكبرى، 2، علي وبنوه، مصدر سابق، ص 149 .

[12] المصدر نفسه، ص 131.

غالبيَّتهم العظمى ناصبوا الرسول ودعوته وأتباعه العداء، وقاوموا الإسلام بالمال والسلاح والرجال وقادوا جبهة المشركين، ولم يُسلم معظمهم إلَّا بعد فتح مكَّة، وكان منهم: الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي نزلت فيه آيات سمَّته بـ «الفاسق»، والحكم بن أبي العاص، الذي أخرجه النَّبيُّ من المدينة لأنه كان يسخر من النَّبيِّ جهاراً، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي أهدر النَّبيُّ دمه يوم الفتح لأنَّه قال: سأنزل مثل ما أنزل الله ، ثمَّ إنَّهم برهنوا بعد استلامهم الحكم وممارستهم الظلم والقمع والقتل بحقِّ المسلمين من عرب وغيرهم بأنَّهم غير جديرين به.

فرَّق الأمويُّون بين الناس في المعاملة، فأدنوا المخلصين لهم من العرب، وأبعدوا غير العرب، وبطشوا بالمعارضين على مختلف أجناسهم، واعتبر الأمويُّون وأتباعهم غير العرب من المسلمين أدنى مكانةً من العرب، وفرضوا على الكثيرين منهم الجزية من دون مسوِّغ شرعيٍّ بدعوى أنَّهم فرُّوا إلى الإسلام تهرُّباً من دفع الجزية، ونسي كثير من الأمويِّين كونهم هم وآباؤهم من «الطلقاء»، ويشير ابن عبد ربّه إلى أنَّ معاوية فكَّر يوماً بإبادة قسم من الموالي، لأنَّهم قد يفكِّرون يوماً بالانتفاض على العرب ومزاحمتهم على السلطان، فقال للأحنف بن قيس:

"إنِّي رأيت هذه الحمراء قد كثرت... وكأنِّي أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسُّلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق" [13].

تزخر السِّجلَّات التاريخيَّة عن تلك الحقبة من تاريخ العرب بالأمثلة على تعصُّب العرب ضدَّ غيرهم من المسلمين، فعندما عيَّن والي الأمويِّين الحجَّاج بن يوسف الثقفي سعيد بن جبير إماماً في الكوفة، ضجَّ أهلها بالاعتراض والاحتجاج على هذا الاختيار، لأنَّه لا يجوز، برأيهم، تعيين غير عربيّ للإمامة أو القضاء، وأثناء حكم عمر بن عبد العزيز كتب إليه واليه على الكوفة خطاباً يشتكي فيه من ازدياد حالات الزواج بين العرب والموالي، فردَّ عليه ابن عبد العزيز بأنَّ ذلك ليس محرَّماً في الإسلام، وأنَّ الطمع هو الذي يدفع الناس إلى ذلك، وهذا الوالي وأمثاله متأثِّرون بتقاليد الجاهليَّة التي كانت ترفض التَّزاوج بين العرب وغير العرب، وكانوا يطلقون على العربيِّ من أمٍّ غير عربيَّة تسمية «الهجين»، ويعيِّرونه بذلك، ويضعونه في مكانة اجتماعيَّة متدنيَّة، كما أنَّ بعض القبائل كانت تأنف من التزاوج حتَّى مع قبائل عربيَّة أخرى.

ويتَّضح انتشار هذا التفكير والسلوك القبلي من حقيقة أنَّ بعض معارضي الحكم الأموي كانوا، أيضاً، يبدون الأفكار نفسها ويتصرَّفون وفقها، ويذكر الطبري في تاريخه بأنَّ العرب من أتباع المختار الذي ثار على بني أميَّة مطالباً بثارات الإمام الحسين استاؤوا من قراره بإدخال الموالي في جيشه، ومساواتهم في العطاء.[14]

كان كلا الشاعرين المشهورين، الفرزدق وجرير قبليَّين في تفكيرهما وولاءاتهما، فالفرزدق تفاخر بجدِّه صعصعة، المعروف بـ «محيي الموؤدات»، وبسادة قبيلته الجاهليِّين، فتصرَّف بعقليَّة القبليِّ الجاهليِّ، وجرير تصرَّف وفاقاً للعقليَّة نفسها، فحقَّر منافسه وعيَّره بأنَّه «القين ابن القين»، فالقبليُّون كانوا، ولا يزالون حتَّى يومنا هذا يحتقرون ذوي الحرف والأعمال اليدويَّة، مثل الحاكة والإسكافة، وكشف جرير أيضاً عن نزعته القبليَّة حين انتقد في أحد قصائده قبيلة رفضت ضيافته، الأمر الذي اضطرَّه إلى شراء الطعام منها، ونصحهم في هذه القصيدة بتطبيق هذه المعاملة على الموالي فقط، لا على العرب، وكان قبليُّو ذلك العصر يتهاجون على طريقة أسلافهم الجاهليِّين، فيعيِّر كلُّ واحد منهم الآخر بأصله، ويتَّهمه بأنَّه من سلالة رقيق، أو هجين، وغدت التهمة بالانحدار من أصل غير عربيٍّ سبّة كبرى، وقد هجا أحد الشعراء من بني عبد القيس قبيلة الأزد وادَّعى بأنَّهم عجم مستعربة:

---

[13] ابن عبد ربّه، العقد الفريد، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 1987، مجلد 2، ص 260 و261 .

[14] عبد الله فياض، تاريخ الإماميَّة وأسلافهم من الشيعة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص 68 .

هل تسمع الأزد ما يقال لها
في ساحة الدَّارِ أم بها صَمَمُ
اختتن القومُ بعدما هرموا
واستعربوا ضلّة وهم عَجَمُ

كان الأمويّون أقرب إلى القبليَّة من القِبلة؛ لذا نراهم عاملوا الناس على أساس انتماءاتهم القبليَّة، وقويت النزعات القبليَّة بين العرب، فعادت الصِّراعات القبليَّة الدامية، مثل تلك التي دارت بين القيسيَّة واليمانيَّة في بلاد الشام، وبين الأزد ومضر في خراسان، كما استأنفت بعض القبائل البدويَّة عادات الغزو والسلب وقطع الطرق. عجلت السياسات الأمويَّة المشجِّعة للقبليَّة في سقوط دولتهم، فالمعاملة المجحفة التي تعرَّض لها المسلمون من غير العرب وفرض الجزية عليهم أدَّت إلى نفورهم من بني أميَّة وميلهم إلى معارضيهم، واستفاد دعاة العبَّاسيِّين بشكل خاصّ من ذلك، فلا عجب أن تبدأ حركتهم في خراسان، حيث تعيش أكثريَّة غير العرب من رعايا الدولة الأمويَّة، وتمتدّ إلى العراق موطن القبائل العربيَّة التي حرمها بنو أميَّة من العطاء وسلَّطوا عليها أقسى ولاتهم، ثمَّ تطيح بدولتهم في آخر المطاف.

القبليَّة إبَّان الحكم العبَّاسي

لم يتَّعظ العبَّاسيُّون من مصير بني أميَّة، ولم يستفيدوا من أخطائهم، فهم أيضاً تعصَّبوا لجماعتهم من بني العبَّاس، ولم يختلف حكمهم عن الأمويّ في طبيعته السلاليَّة، وكانت عمليَّات المبايعة والشورى مجرَّد طقوس يخفون وراءها انفرادهم بالسلطة ويضفون بها هالة الشرعيَّة على حكمهم، وقرَّب الحكَّام العبَّاسيُّون أقرباءهم وأتباعهم والموالين لهم، وأبعدوا المنافسين والمعارضين لنظامهم واضطهدوهم ابتداءً بأبناء عمومتهم العلويِّين الهاشميِّين، وعاملوا العرب على أساس انتماءاتهم القبليَّة، ويتَّضح ذلك، مثلًا، من تسميات الفرق في جيش المنصور بأسماء القبائل، مثل المضريَّة والرَّبعيَّة واليمانيَّة [15]، وهذا دليلٌ على استمرار العصبيَّات القبليَّة في تلك المرحلة واعتراف الدولة بها. أمَّا اعتماد العبَّاسيِّين على الفرس المسلمين في الجيش وإدارة البلاد فلم يدم طويلًا، فبعد اغتيال أبي مسلم الخراسانيّ، جاءت نكبة البرامكة، ثمَّ ثورة عوام بغداد على المأمون لتقنع العبَّاسيِّين بالتحوُّل إلى الأتراك، فاتَّخذوا منهم قادة وجنداً في جيوشهم، وشكَّلوا عماد الجيش العبَّاسي في أيَّام المعتصم، الذي بنى لهم مدينة في شمال بغداد، وزوَّجهم بالجواري.

شكَّل البدو، طوال العهد العبَّاسيّ، مصدراً رئيسيَّاً لتهديد الاستقرار واضطراب الأمن، وبخاصَّةٍ بين سكان القرى من الفلَّاحين، وكلَّما ضعفت السلطة الرسميَّة، بسبب الصراع حول الحكم أو نشوب ثورة، نشط هؤلاء الأعراب وغزوا القرى، ويشير أحد المصادر إلى أنَّ قبيلة بني خفاجة كانت إحدى هذه القبائل التي عاودت سيرة الجاهليِّين في الغزو والنهب، وبلغت بها الجرأة مهاجمة القرى القريبة من بغداد، الأمر الذي دفع بفلَّاحي السواد إلى هجر قراهم للنجاة بأرواحهم، وفي النهاية أجبر تفاقم خطر الخفاجيِّين الحكومة العبَّاسيَّة على التودُّد إليهم والتحالف معهم واستعمالهم في حماية الدولة [16].

لم يكن العرب الوحيدين الذين تذبذبوا بين القِبلة والقبيلة، وعكست عقائدهم وسلوكيَّاتهم هذه الازدواجيَّة والتناقض أحياناً، ويؤكِّد زناتي بأنَّ الكثير من الشعوب الأفريقيَّة التي اعتنقت الإسلام بعد

---

[15] الكساسبة، المؤسَّسات الإداريَّة في مركز الخلافة العبَّاسيَّة (الدواوين)، ص 115 .

[16] ناجية عبد الله إبراهيم، ريف بغداد، دراسة تاريخيَّة لتنظيماته الإداريَّة وأحواله الاقتصاديَّة 575 -656 هـ/1170 - 1258م. بغداد: دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة، 1988، ص 220 و221 .

الفتوحات في شمال أفريقيا احتفظت ببعض عاداتها وتقاليدها القبليَّة، على الرغم من تعارضها مع التعاليم الإسلاميَّة، واستمرَّ هذا الحال لحين قيام الرَّحالة العربيّ ابن بطُّوطة برحلاته المشهورة، فلاحظ وجود هذه الظاهرة بين المسلمين الطوارق مثلًا، الذين ربَّما دخل الرجل منهم داره "ووجد امرأته ومعها صاحبها ولا ينكر ذلك" [17].

أخفقت الدولة العبَّاسيَّة في التعامل بنجاح مع الفئات العرقيَّة المتعدِّدة ضمن حدودها، والتقليل من حدَّة الفروقات والخلافات العرقيَّة والمذهبيَّة والقبليَّة، الأمر الذي ساعد في حدوث عدَّة ثورات وحركات انفصاليَّة مثل ثورة الزنج في العراق، وسيطرة البويهيِّين والسلجوقيِّين، وقيام الدولة الفاطميَّة في مصر وشمال أفريقيا، وتأسيس دولة إسماعيليَّة أخرى في شمال إيران، وتكوين الدويلات المبنيَّة على تحالفات قبليَّة مثل الدولة الحمدانيَّة، وبرهن هذا التفكُّك على أنَّ الولاءات الضيِّقة للعنصر أو المذهب أو القبيلة أقوى أحياناً من التآخي الدينيّ.

وجدت النزعات القوميَّة والقبليَّة صدىً لها في الأعمال الأدبيَّة، فظهرت مؤلَّفات تؤكِّد على التفوُّق الحضاريّ لغير العرب، وعرف هذا الاتِّجاه بـ «الشعوبيَّة»، وسواء أكان الدافع من وراء ذلك المعارضة السياسيَّة لتفرُّد العرب بالحكم أم التيَّار العنصريّ فإنَّها أسهمت في تعميق الوعي القوميِّ بين الفئات العرقيَّة المختلفة ضمن الأمَّة الإسلاميَّة، ومن جهةٍ أخرى تصدَّى آخرون للدفاع عن أفضليَّة العرب على غير العرب، واستعملوا حججاً من الدين لإثبات هذه المقولة غير المقبولة إسلاميَّاً، ومنها أنَّ الرسول عربيٌّ والقرآن الكريم أنزل بلغة العرب، كما أنَّ العرب هم أول المسلمين، ومنهم الصحابة والمجاهدون الذين دافعوا عن الدعوة وحملوها إلى غير العرب.

أسهم التباين الفئويُّ، بمختلف أشكاله القوميَّة والمذهبيَّة والقبليَّة، في تفكُّك الدولة العبَّاسيَّة وإضعافها، الأمر الذي سهَّل على المغول احتلالها وتدميرها، وتقوَّض الحكم العربيُّ في الأندلس بعد أن دفع الحرص على المصالح الفئويَّة الضيِّقة، أيضاً، الحكَّام إلى التحالف مع أعدائهم النصارى ضدَّ أبناء جلدتهم ودينهم، كما انهارت الجبهة الأيُّوبيَّة الهشَّة للسبب نفسه، وكان ذلك كلُّه تكراراً لما فعله القبليُّون في الجاهليَّة الذين تحالفوا مع الفرس أحياناً ومع الروم أو الأحباش أحياناً أخرى ضدَّ غيرهم من العرب.

القبليَّة بين سقوط العبَّاسيِّين وعهد الاستقلال

بعد سقوط الدولة العبَّاسيَّة خسر العرب ما تبقَّى من سلطاتهم الاسميَّة أو الرمزية، وخضعت المنطقة العربيَّة لحكم غير العرب من مغولٍ وأتراك ومماليك حتَّى حصولها على الاستقلال في القرن العشرين، وتعصَّب هؤلاء الحكَّام لأبناء عنصرهم، وأهملوا مصالح العرب، فتدهورت الحواضر والمدن العربيَّة، وتخلَّفت فيها الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، وضعف الأمن في المدن، وهيمنت القبليَّة في الأرياف والبوادي، وأدَّى تقهقر المجتمعات العربيَّة إلى مرحلة القبليَّة والبداوة إلى احتدام النزاعات القبليَّة، ومنها الصراع القيسيّ ـ اليمنيّ الذي استعر إبَّان العهد الأمويّ في القرن الأول الهجريّ، ثمَّ عاد إلى الظهور بعد عشرة قرون في سوريا، وشجَّع إهمال السلطة المركزيَّة وفسادها البدو على مهاجمة القرى والمزارع، فأمعنوا تخريباً ونهباً في أملاك الفلَّاحين ومحاصيلهم، الأمر الذي اضطرَّ هؤلاء المستضعفين إلى بيع أملاكهم إلى وجهاء المدن من أصحاب النفوذ، والتحوُّل من مالكين إلى أُجَراء لديهم من أجل الحصول على الحماية، ففي سوريا، مثلًا، أرغمت هجمات البدو فلَّاحي منطقة الغوطة القريبة من دمشق على بيع أملاكهم إلى أعيان دمشق ثمناً لحمايتهم، وازدادت معاناة سكَّان المناطق الزراعيَّة في سوريا والعراق بعد هجرة قبيلتي شمر وعنزة من وسط الجزيرة

---

[17] محمود سلام زناتي، الإسلام والتقاليد القبليَّة في أفريقية، 1969م، ص 20 .

العربيَّة إلى بادية الشام في القرن الثامن عشر [18]، واستمرَّ هذا الوضع حتى بداية هذا القرن حينما كان أصحاب القوافل والمركبات مجبرين على دفع الأتاوات إلى القبائل البدويَّة لضمان سلامة الركَّاب والبضائع.

وفي شرق الأردن بلغت سطوة البدو من قبيلة بني صخر حدَّاً أجبر العثمانيِّين على دفع مبلغ من النقود، يعرف بـ «الصر»، إلى شيوخ هذه القبيلة لقاء عدم تعرُّضهم للحجَّاج بالسلب والنهب [19]، وبعد أن وصف عبيدات حياة الأردنيِّين بأنَّها "شبه عشائريَّة" [20] أضاف بأنَّ "الدين في السابق عند البدو كان ضعيفاً، منهم لا يعرفون صوماً ولا صلاة، بل لا يعرف كيف يعقد زواجه حسب الشريعة الإسلاميَّة". [21] ويبدو أنَّ جهلهم بالإسلام شمل حتى الأركان والقواعد، إذ يتبيَّن ممَّا يلي بأنَّهم كانوا يعتبرون الإمام عليَّاً من الأنبياء: "وقد يخاطب البدويُّ القاضي: أسوق عليك أربعة وأربعين نبيَّاً، أولهم محمَّد، وآخرهم عليّ" .[22]

وفي العراق قطعت القبائل البدويَّة وبعض القبائل المستوطنة الطرق، ومارست السلب، وفرضت الأتاوات على المسافرين، وروى لي بعض المعمّرين من القبليِّين بأنَّ بعض القبائل الجنوبيَّة كانت تفرض مبلغاً من المال على المسافرين المارِّين بديارها مقابل ضمان حمايتهم، وتمرَّدت القبائل على السلطات العثمانيَّة، وامتنعت عن دفع الضرائب والخضوع للتجنيد الإجباريّ، الأمر الذي دفع هذه السلطات إلى شنِّ الحملات العسكريَّة عليها، والتي لم يحالفها النجاح دائماً بسبب قلَّة طرق المواصلات، ووعورة المناطق القبليَّة، ولجوء القبائل إلى إغراق الأراضي لعرقلة تحرُّكات القوَّات التركيَّة، ولكنَّ الأتراك نجحوا، في النهاية، في استغلال القبليَّة نفسها لإضعاف حركات التمرُّد والعصيان، فأثاروا العداوات والنزاعات بين القبائل، وأغروا بعضها ببعضها الآخر من خلال منح بعض القبائل ملكيَّة أراضي قبائل أخرى، وغالباً ما كانت الخلافات الناشبة حول حقوق الملكيَّة والمياه عنيفة ودمويَّة، وبلغ التفتت والعداء القبليُّ حدَّاً جعل القبائل تبني حول ديارها قلاعاً طينيَّة محصَّنة، يحرسها أفراد القبيلة، واستمرَّت هذه الخلافات والنزاعات حتَّى بعد تأسيس الدولة العراقيَّة في القرن العشرين، وحتَّى سكَّان المدن العراقيَّة كانوا أقرب إلى القبليَّة منهم إلى التحضُّر أو التآخي الدينيّ، وينطبق هذا على سكَّان بغداد، أيضاً، في بداية القرن العشرين كما وصفهم الريحاني:

"ومع أنَّهم كلَّهم كانوا مسلمين، فما جمعت رابطة الدين شملهم، ولا لطَّفت شعورهم، وما أزالت غير القليل من التنافر والتنابذ فيما بينهم... وقد تتجاور الأحياء وتتلاصق، ولا تتجاور القلوب، ولا تتلاصق الإحساسات القوميَّة، فالعقليَّة في كلِّ جماعة لا تزال في الغالب عقليَّة بدويَّة، مفتوحة لإخوانهم، ومقفلة دون الآخرين، والعرب في هذا مثل سائر الجماعات خصوصاً العشائر" [23].

وفي مصر اشترى الحكَّام ولاء البدو بالأموال، وسخَّروهم لإسناد حكوماتهم ضدَّ بقيَّة السكَّان، ويذكر عبد الله عزباوي بأنَّ القبائل البدويَّة شكَّلت إحدى وسائل المماليك الفعَّالة في ضرب التحالفات

---

[18] سليم نصار وكلود دوبار، الطبقات الاجتماعيَّة في لبنان، مقارنة سوسيولوجيَّة تطبيقيَّة، بيروت: مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة، 1982، ص 25 .

[19] عبد الله رشيد، ملامح الحياة الشعبيَّة في مدينة عمان، 1878-1948. عمان: وزارة الثقافة والشباب،1983، ص 25 .

[20] سليمان أحمد عبيدات، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الأردني. طرابلس: مؤسسة مصري للتوزيع، 1987، ص 109 .

[21] المصدر نفسه، ص 78 .

[22] المصدر نفسه، ص 295.

[23] أمين الريحاني، قلب العراق، بيروت: مطبعة صادر، 1935، ص 41 .

بين مشايخ القرى والفلَّاحين [24]، وكان رؤساء هؤلاء العربان يعيَّنون من قبل سلاطين المماليك مقابل رشوة يدفعها الطامح إلى الرئاسة [25]، وتتَّضح قوَّة الانتماء العنصريِّ والقبليِّ بين سكَّان المغرب العربيِّ من تفشِّي عادة الوشم، إذ يؤكِّد عثمان الكفاك أنَّه كان لكلِّ فئة من فئات السكَّان العربيَّة والبربريَّة والرومانيَّة وشم مختلف يميِّزها عن بقيَّة الفئات والأجناس [26].

كانت، ولا تزال، القبليَّة في الجزيرة العربيَّة نظام الحياة السائد فيها، وحتَّى وقت قريب نسبيَّاً عاش معظم سكَّانها في حالة البداوة، معتمدين على الرعي والغزو في تحصيل معاشهم، ولم يتورَّعوا عن قطع الطرق وسلب الحجيج، حتَّى أنَّ بعضهم كان ينهب قافلة حجيج ثمَّ يبيع أسلابها إلى قافلة ثانية، وطالت غاراتهم الوحشيَّة بلاد الشام والعراق، فروَّعوا السكَّان الآمنين، وقتلوا الأبرياء، ونهبوا ممتلكاتهم، ووصف توفيق السويدي لقاءً عابراً مع أحد هؤلاء الأعراب في القرن العشرين والذي وجده يصلِّي ويحمل أموالًا مسلوبة:

"عندما سألته عن ذلك قال بأن هذا السلب هو شيء حلال لأنَّه كسب وغنيمة وغزو، والغزو أمر غير محرَّم" [27].

وفي جنوب الجزيرة لم تكن اليمن سعيدة بسبب الصِّراعات القبليَّة، وعاشت كلُّ قبيلة في قلق مستمرّ من نوايا جيرانها، وانعكس هذا القلق والخوف جليَّاً في تصميم القرى ومبانيها، ويصف قائد الشرجبي هذه القرى المبنيَّة على المرتفعات الشاهقة بأنَّها مثل القلاع في تصميمها وهندستها، وإذا كانت البيوت في تهامة مبنية من القشِّ فإنَّ أسيجتها مصنوعة عادةً من الخشب لصدِّ غارات الأعداء[28]، ولم تلتزم هذه القبائل بالأوامر والنواهي الإسلاميَّة في صراعاتها، والتي هي أساساً غير مسوَّغة شرعاً، ويشير محسن ديان إلى اعتماد القبائل وسائل وطرقاً قتاليَّة لا إنسانيَّة مثل إطلاق النار على النساء والأطفال وقطع المياه [29]، وامتدَّت هجماتهم إلى المدن اليمنيَّة، وأثناء هجوم رجائل القبائل في جيش الإمام يحيى على مدينة بريم في القرن العشرين اقترفوا الفظائع ، "وأتوا أعمالًا وحشيَّة من سلب الأموال وهتك الأعراض، لدرجة أنَّ بعضهم كان يقطع أذن المرأة أو البنت ليسلب ما عليها من الذهب أو الفضة"، ولم تنجُ حتى العاصمة صنعاء التي غزتها القبائل في عام 1948[30] ، ويخلص الشرجبي إلى أنَّه، وخلافاً للشريعة الإسلاميَّة، «ظلَّ العرف [القبليُّ] يحكم كلَّ أوجه الحياة القبليَّة تقريباً." [31]

وجد المستعمرون في القبليَّة تربة خصبة، أو بالأحرى مستنقعاً عكراً، فاستفادوا منها في بلوغ أهدافهم الخبيثة وخدمة مصالحهم، ووجدوا بين القبليِّين الأعوان والعملاء الذين ساعدوهم في تفريق صفوف العرب ووضع العراقيل في طريق اتِّفاقهم ووحدتهم، وتكرَّر حدوث ذلك في عدَّة دول عربيَّة، مثل العراق والأردن واليمن والسودان والصومال ودول الجزيرة العربيَّة، ففي العراق، مثلًا،

---

[24] عبد الله محمد عزباوي، عمد ومشايخ القرى ودورهم في المجتمع المصري في القرن التاسع عشر .القاهرة: دار الكتاب الجامعي، 1984، ص 119 .

[25] أحمد عبد الرزاق أحمد، مصدر سابق، ص 65 .

[26]عثمان الكفاك، التقاليد والعادات التونسيَّة، تونس: الدار التونسيَّة للنشر، 1981، ص 32 .

[27] توفيق السويدي، مذكَّراتي، نصف قرن من تاريخ العراق والقضيَّة العربيَّة، دار الكتاب العربي: 1969 .

[28] قائد الشرجبي، الشرائح الاجتماعيَّة التقليديَّة في المجتمع اليمني، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1986، ص 54 .

[29] محسن بن محسن ديان، يافع بين الأصالة والمعاصرة اليمنيَّة، يافع: منتدى يحيى بن عمر الثقافي، 1995، ص 73 .

[30] قائد الشرجبي، مصدر سابق، ص .54

[31] المصدر نفسه، ص 61.

نجحت السلطات البريطانيَّة الاستعماريَّة في استمالة عدد من شيوخ القبائل بالأموال والوعود، فساعدوها في احتلال العراق، ووقفوا متفرِّجين عندما ثارت قبائل أخرى ضدَّ الاحتلال البريطانيِّ في سنة 1920م، وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الثورة لم تقم بمبادرة من شيوخ القبائل، وإنَّما استجابة لفتاوى علماء الدين الداعية إلى الجهاد ضدَّ قوَّات الاحتلال، وعلى الرغم من ذلك نجح البريطانيُّون في تشكيل قوَّة مرتزقة عميلة من أفراد القبائل، سمِّيت بقوات الشبانة.

وفي الجزيرة العربيَّة التقت طموحات حكَّام الحجاز الهاشميِّين إلى الاستقلال عن الأتراك العثمانيِّين مع مصالح البريطانيِّين في تقويض الامبراطوريَّة العثمانيَّة، وشاركت قوَّاتهم القبليَّة تحت قيادة البريطاني لورنس في محاربة القوَّات العثمانيَّة، وفي الوقت نفسه كانت القوَّات القبليَّة لآل سعود قد بدأت أول مرحلة من حرب قبليَّة امتدَّت تدريجيَّاً إلى بقيَّة مناطق الجزيرة العربيَّة، وقضت في النهاية على عدَّة ممالك وإمارات قبليَّة من بينها الدولة الهاشميَّة في الحجاز وإمارة آل الرشيد الموالية للعثمانيِّين، وكان البريطانيُّون قد فرضوا من قبل سيطرتهم على جميع المشيخات الساحليَّة الصغيرة الواقعة على الشواطى الغربيَّة للخليج العربيِّ.

بعد إنشاء مملكة شرق الأردن اختير لقيادة قوَّاتها البدويَّة البريطاني غلوب باشا، ولم يغيِّر إطلاق البدو عليه لقب «أبو حنيك» من كون ولائه لبريطانيا ومصالحها في المنطقة، وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هؤلاء الأعراب لم يجدوا غضاضة في إطاعة شخص غير عربيٍّ وغير مسلم. وفي السودان استغلَّ المستعمرون البريطانيُّون القبليَّة والتعصُّب لها في تفتيت الحركات المناهضة لهم وإضعافها، كما ركَّز الفرنسيُّون في مستعمراتهم في المشرق والمغرب العربيِّ على التنوُّع العرقيِّ والقبليِّ والطائفيِّ، فحاولوا إقامة دويلات طائفيَّة ـ قبليَّة في سوريا، وشجَّعوا قبائل البربر في شمال أفريقيا على الانفصال.

عهد الاستقلال

شهدت عهود الاستقلال في المنطقة العربيَّة تقلُّصاً في أهميَّة الدين المشترك بوصفه عاملًا موحِّداً للسكَّان، وحلَّت محلَّه الرابطة القوميَّة، بل إنَّ بعض العرب القوميِّين اعتبروا الأديان، بما في ذلك الإسلام، عوامل مفرِّقة وعوائق أمام تحقيق الوحدة العربيَّة والتضامن الوطنيّ في البلد الواحد، ويتَّضح ذلك من القول الذي نسبه الريحاني إلى الملك فيصل الأول: "كنَّا عرباً قبل عيسى وموسى ومحمَّد" [32] مؤكِّداً فيه على الهويَّة العربيَّة السابقة تاريخيَّاً لنشوء الأديان التي بشَّر بها هؤلاء الأنبياء، والواقع أن العرب في ذلك الحين كانوا مشتَّتين ومتفرِّقين، ولم يكن للرابطة القوميَّة، أي الانتماء إلى العروبة، تأثير واضح وقويٌّ على فكرهم وسلوكهم، وكانت ولاءاتهم قبليَّة بحتة، واستمراراً للسياسة الاستعماريَّة في «فرِّق تسد» شجَّعت القيادات المتعاقبة في العهدين الملكي والجمهوري في العراق القبائل، وأثارت النعرات القبليَّة، الأمر الذي أدَّى إلى تنافس زعماء القبائل وتصارعهم على النفوذ، وبالتالي لم تكن هذه الزعامات قادرة على تنسيق مواقفها والتنسيق في ما بينها لنجدة حليفها النظام الملكيّ الذي أطاح به انقلاب 1958م، وتبنَّت القيادة العراقيَّة في الثمانينات هذه النظرة السلبيَّة إلى الإسلام، عندما صرَّحت بأنَّ الدين يكرِّس التفرقة والشقاق بين صفوف العراقيِّين من مسلمين شيعة وسنَّة، ومسيحيين وصابئة وغيرهم، وسوَّغت بذلك فكرة الفصل بين السياسة والدين، وعاقبت رجال الدين الذين جاهروا بآرائهم السياسيَّة المستقلَّة، وإذا كانت الدولة العراقيَّة حرصت على إبقاء الدين خارج السياسة فإنَّها، أيضاً، كرَّست الطائفيَّة والقبليَّة السياسيَّة، وذلك بمنع غالبيَّة السكان من ممارسة أيِّ دور سياسيٍّ مؤثِّر، وفي التسعينات أدَّت القبليَّة والتشتُّت القبليُّ، وبالتالي فقدان القيادة الواحدة، إلى فشل الحركتين المناوئتين للنظام العراقي في الجنوب العربيّ والشمال الكرديّ.

---

[32] أمين الريحاني، فيصل الأول، بيروت، مطبعة صادر، 1934، ص 64 .

لا تزال أهميَّة القبليَّة والولاءات القبليَّة قويَّة وواضحة في دول عربيَّة عديدة، مثل الأردن واليمن والسودان والصومال والعراق وليبيا ودول الجزيرة العربيَّة، ففي الأردن تعدُّ القبائل ركناً من أركان النظام السياسيِّ، وتمارس زعاماتها نفوذاً كبيراً على السياسة الداخليَّة، وفي اليمن اتَّخذ الصراع المسلَّح بين الجمهوريِّين والملكيِّين، بعد الانقلاب الجمهوريّ، طابعاً قبليَّاً، ولعبت القبائل دوراً أساسيَّاً في تكوين التحالفات السياسيَّة والحكومات بعد قيام النظام الجمهوريّ، وشكَّلت تهديداً مباشراً للاستقرار والأمن في مناسبات عديدة، وحتى وقت قريب ما تزال هذه القبائل تتصرَّف بدرجة من الاستقلاليَّة متحدِّية السلطة المركزيَّة، وتقوم بخطف الأجانب أو قطع الطرق لإجبار الحكومة على الإذعان لمطالبها وشروطها. ولا شكَّ في أنَّ القبليَّة أحد الأسباب الرئيسيَّة لعدم الاستقرار واضطراب الأمن في السودان، الأمر الذي أدَّى إلى التقسيم وتعطيل النشاطات الاقتصاديَّة واجهاض مشاريع التنمية. أمَّا الصومال، فقد أوصلتها القبليَّة إلى حرب أهليَّة ضروس، نتجت عنها خسائر باهظة في الأرواح والممتلكات، وقضت على فرصها في النموِّ والتطوُّر في المدى المنظور على الأقلّ، وأدَّت إلى تفكُّك كيانها الوطنيِّ وقيام دويلات قبليَّة متصارعة، واحتلال أراضيها من قبل بعض جيرانها الطامعين، وجميع دول الجزيرة العربيَّة قبليَّة، وتأثيرات القبليَّة واضحة في نظمها السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والإداريَّة ومهيمنة على تفكير سكَّانها وسلوكهم.

منذ إنشاء الكيان الصهيونيّ في فلسطين، تودَّدت حكومته إلى قبائل البدو، وبعد أن اطمأنَّت إلى إخلاصهم وولائهم جنَّدتهم في جيشها، وعرف هؤلاء البدو بكفاءتهم بوصفهم أدلَّاء في اقتفاء آثار المجاهدين الفلسطينيِّين واللبنانيِّين، وعدم مبالاتهم بكون ذلك مخالفاً للتعاليم الإسلاميَّة التي تنهى، وبشكل قاطع، عن موالاة غير المسلمين بشكلٍ عام، فما بالك بألدّ أعداء العرب والمسلمين!؟

يتبيَّن، من العرض السابق، أنَّ القبليَّة ساهمت في تخلُّف النظم السياسيَّة العربيَّة وجمودها وتسلُّطها، وكذلك في انعدام الأمن ونشوب الصراعات وتفكُّك جبهاتها الداخليَّة، وبالإضافة إلى هذه النتائج الوخيمة في حقلي السياسة والأمن الداخليَّين أفرزت القبليَّة، قديماً وحديثاً، سلبيَّات عديدة، تشكِّل، عموماً، انحرافات عن أحكام الدين الإسلاميِّ وتعاليمه، وفي ما يلي بعض الأمثلة عليها:

1- التمييز بين القبائل وأفرادها على أساس الأعمال التي يمارسونها ويعتاشون منها، فالقبائل البدويَّة التي تمتهن الرعي والغزو والسلب تتعالى على القبائل التي تعمل في الزراعة، والتي بدورها تتفاخر، في ما بينها، حسب نوع زراعتها، فمزارعو الحبوب والنخيل ينظرون باحتقار إلى مزارعي الخضار، وجميع القبليِّين يرون أنفسهم أفضل من أهل المدن، ويفرِّق القبليُّون في الجزيرة العربيَّة بين «الشيخ» و «الحضري»؛ إذ يتميَّز الأول على الثَّاني بأصوله القبليَّة المعروفة، وحتى وقت قريب كان التزاوج بين الفئتين شبه محرَّم، وعلى أساس القاعدة التالية: "يتحتَّم أن يكون الزوج والزوجة من قبيلة واحدة، فالحرُّ لا يأخذ إلَّا حرَّة، والصقّار لا يأخذ إلَّا صقّارة" [33]، وفي العراق اغتال أحد أفراد عائلة السعدون، وهم عائلة إقطاعيَّة معروفة في العهدين العثمانيِّ والملكيِّ، مدير وزارة الداخليَّة في بداية العهد الملكيِّ بعد زواجه من إحدى بناتهم، لأنَّه، وفي نظرهم، أقلّ منهم مكانةً وعراقةً في الأصل، وفي مصر، أيضاً، يشير البقلي إلى أنَّ البدو يرفضون تزويج بناتهم من أولاد المزارعين حتَّى لو كانوا أثرياء [34].

يرتبط هذا التمييز الاجتماعيُّ اللَّاإسلاميُّ باحتقار القبليِّين للعمل اليدويِّ، فالناس في الجزيرة العربيَّة ينفرون من الأعمال الحرفيَّة، ولا يختلطون بالعاملين فيها، ويُعامل هؤلاء الكادحون المستضعفون بالتعالي والعنجهيَّة نفسيهما من قبل القبليِّين العراقيِّين، الذين يمنعون أولادهم من اللعب

---

[33] سيّد محمَّد إبراهيم، الحياة الاجتماعيَّة بالمملكة العربيَّة السعوديَّة، القاهرة: مكتبة مصر، 1960، ص 58 .

[34] محمَّد قنديل البقلي، وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريَّة، ص 12 .

مع أولاد الحائك وغيره، وكانت عبارة «يا ابن الحائك» تعدُّ مسبّة بينهم، ويشير ديان إلى أنَّ الحرفيِّين في اليمن يتعرَّضون لسوء المعاملة والظلم الاجتماعيِّ[35] ، ويشترك القبليُّون العراقيُّون واليمنيُّون في احتقار زارعي الخضروات، الذين تطلق عليهم تسمية «الحساوية» في العراق، وينأى أفراد القبائل في الأردن واليمن عن أصحاب الحوانيت الذين يسمُّونهم بـ «البيَّاعين»، لأنَّهم لا يتورَّعون، في رأيهم، عن الكذب والتحايل لترويج بضاعتهم، وكلّ من يضطرّه شظف العيش إلى العمل في خدمة البيوت محتقر بينهم، لأنَّها عادةً ما تكون من أعمال المسترقّين، وفي اليمن يرفض القبليُّون مصافحة «الخدَّام»، وهم مواطنون سود يشتغلون بالخدمة، ويستنكفون كذلك من تناول الطعام معهم امتثالًا للمثل الدارج بينهم «آكل يهوديّ ولا تآكل خادم»، ويدعوهم مثل آخر إلى كسر الإناء الذي أكل منه خادم والاكتفاء بغسله بعد اليهوديّ، وربَّما تزوَّج اليمنيُّ القبليُّ يهوديَّة لكنَّه يترفَّع عن التزوُّج بخادمة مسلمة، [36] وتجدر الإشارة إلى أنَّ القبائل كانت آخر مَنْ تخلَّى عن التركة الثقيلة وغير الإنسانيَّة للعبوديَّة التي حثَّ الإسلام على التخلُّص منها قبل أربعة عشر قرناً.

2- سيطرة الخرافات والعقائد المحرَّفة على عقول القبليِّين :تنتشر بين القبليِّين، وغالبيَّتهم من الأميِّين الجاهلين بمبادىء الدين وتعاليمه، عقائد غير صحيحة، مثل الاعتقاد بالسحر والقدرات الخارقة لبعض الناس، وبأنَّ للأرواح وللجنِّ تأثيراتٍ إيجابيَّةً أو سلبيَّةً على البشر؛ لذا يقصدون السحرة للاستعانة بهم وبقوَّتهم المزعومة في درء الحسد وكيد الأعداء وللحصول على منافع شخصيَّة، وكان القبليُّون العراقيُّون يعتقدون بأنَّ خسوف القمر يحدث نتيجة ابتلاعه من قبل حوت لذا يهرعون إلى خارج دورهم، ضاربين على قدور الطهي وغيرها من الأوعية المعدنيَّة محدثين ضجَّة عالية لإفزاع الحوت ودفعه إلى ترك القمر، وعند انقضاء شهر صفر يردِّدون :"طلع [أي انتهى] صفر ونحن بسلم يا رسول الله "، والرسول نفسه نهاههم عن التطيُّر والتشاؤم من صفر أو غيره، ويذكر العلوجي والراوي أنَّ النسوة العراقيَّات يستعملن براثن الذئب وعينيه للتعوُّذ من الأرواح الشرِّيرة،[37] فيما يلجأ المصريُّون إلى تقليد قبليٍّ أفريقيٍّ وهو الزار للغرض نفسه، وفي تونس، وكذلك العراق، يصنعون للأرواح الشريرة الطعام إرضاءً لها واتِّقاءً لشرِّها،[38] ومن المخلَّفات العقائديَّة القبليَّة في تونس، أيضاً، تقديس العيون وما تعيش فيها من حيوانات، مثل السلاحف والضفادع، [39] ويعتقد القبليُّون الأردنيُّون بأنَّ الصادق لا يحرق لسانه لحس حديدة محمَّاة في النار، أمَّا الكاذب فيسودّ لسانه، ويعرف هذا الاختبار القبليُّ بالبشعة [40]، وفي اليمن يقصدون المنجِّم لتحديد ساعة الزواج المناسبة، وجميع هذه الاعتقادات الباطلة والخرافات جزء من الموروث القبليِّ للعرب الذي نهى عنه الإسلام، واعتبر الالتزام به مخالفة كبيرة، لكنَّ القبليِّين أصرُّوا على الاحتفاظ به ولقرون عديدة.

3- ارتفاع وتيرة العدوانيَّة والعنف بين القبليِّين :يدرك هذه الحقيقة كل من عاش، ولو لحقبةٍ قصيرة، في مجتمعٍ قبليٍّ، ويبدي القبليُّون حساسية أكبر لأقوال الآخرين وتصرُّفاتهم، وتحمُّلًا أقلّ للانتقاد، واستعداداً أقوى لاستعمال العنف في الردِّ على الإساءة، وتنبع هذه الميول السلوكيَّة من أهمِّيَّة قيمة الرجولة لديهم، والرادع الرئيسيَّ بينهم للجوء إلى العنف هو الرد بالمثل والثأر، وتقليد أخذ الثأر صفة ملاصقة للقبليّ، وبينما يسوِّغ العرف القبليُّ لذوي المقتول الثأر من القاتل أو أحد أقاربه ممَّن يعرفون

[35] محسن بن محسن ديان، مصدر سابق، ص 50 .

[36] قائد الشرجبي، مصدر سابق، ص 253 .

[37]عبد الحميد العلوجي ونوري الراوي، المدخل إلى الفولكلور العراقي، بغداد: وزارة الإرشاد، 1962، ص 28 و29 .

[38] عثمان الكفاك، مصدر سابق، ص 35 .

[39] المصدر نفسه، ص 21 .

[40] عبد الكريم عيد الحشاش، قضاء العرف والعادة، 1991، ص 29 - 31.

بخمسته، حصر الإسلام سلطة الاقتصاص بوليِّ الأمر أو الحاكم المسلم، وحرَّم الاقتصاص من غير الجاني على أساس القاعدة الإسلاميَّة :{لَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} ، ويصف عبد الكريم الحشاش فرح القبليِّ بأخذ ثاره كما يلي:

"وأكثر ما يكون البدويُّ انشراحاً عندما يأخذ بثاره، فنراه يغمس منديلًا أبيض أو كوفيَّة في دم القتيل، ويرفع هذه الراية الملطَّخة بالدماء على عصا، ويقابل بالزغاريد والأفراح، ويسود اعتقاد مفاده أنَّ مَنْ يأخذ ثأره يصبح صاحب كرامات أو بركات" [41].

ويذكِّرنا هذا السلوك بما فعلته هند زوجة أبي سفيان وأمّ معاوية بجسد سيِّد الشهداء حمزة بعد استشهاده في واقعة أحد؛ حيث استخرجت قطعة من كبده ولاكتها، وقد نهى الإسلام عن هذا السلوك الهمجيِّ في الحديث الشريف: "إيَّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور".

4- فقدان العدل في العرف القبليِّ الخاصِّ بتوزيع الإرث: وفاقاً لهذا العرف يحصل أكبر أبناء المتوفَّى على حصَّة الأسد من التركة، وربَّما استأثر بكافَّة أموال والده وعقاراته، خلافاً للتعاليم القرآنيَّة الخاصَّة بذلك، وظلَّ هذا التوزيع المجحف للإرث تقليداً ثابتاً بين القبائل العراقيَّة حتَّى وقت قريب جدَّاً، أمَّا في مصر فيذكر عزباوي بأنَّ مشايخ وعمد القرى نجحوا في سنة 1869م في "استصدار قرار بتعطيل العمل بقوانين الميراث الإسلاميَّة على الأراضي الخراجيَّة، وجعل تكليف الأطيان باسم أكبر أولاد المتوفَّى، على أن يجري تقسيم الإيراد على العائلة بحسب ما يخصُّ كلّ فرد، واستمرَّ العمل به حتَّى سنة 1881م؛ حيث كثرت شكاوى الناس من استبداد رؤساء عائلاتهم بهم وبخسهم لحقوقهم" [42] .وبالنسبة لتوريث النساء حرم القبليُّون في العراق النساء من حقِّهنَّ في الإرث، وبخاصَّةٍ في الأراضي الزراعيَّة، وساد هذا العرف بين القبائل على اختلاف مذاهبها وخلافاً للتعاليم الإسلاميَّة المنزَلَة.

5- الإجحاف بحقوق المرأة :بالإضافة إلى حرمان المرأة من الإرث طبَّق القبليُّون عليها معيار الكيل بمكيالين، أحدهما يتحيَّز للرجل والآخر يتجنَّى على المرأة، فهم يتغاضون عن ممارسة الرجل للزنا، بل يعدّون ذلك دليلًا على الرجولة والفحولة، أمَّا المرأة فتقتل لمجرَّد الشكّ بذلك والتقوُّل عليها من دون برهان أو شهود عدول، وسواء كانت محصنة أم لا، ووفقاً للعرف القبليِّ فليس من حقِّ الفتاة اختيار زوجها أو حتَّى إبداء رأيها في من رضي به والدها، وعادة ما يفرض عليها أن تكون من «نصيب» ابن عمِّها، الذي إن شاء تزوَّجها، أو نهى خطابها، أو طالب بمبلغ من النقود مقابل تخلِّيه عن النهوة، أي التنازل عن حقِّه فيها، ومن التقاليد المجحفة بالمرأة لدى قبائل العراق واليمن والأردن تقديم فتاة أو أكثر كجزء من التعويض الذي يقدِّمه جانٍ إلى مجني عليه أو إلى عائلته، وتسمَّى هذه الفتاة السيِّئة الحظّ في العراق «فصلية» وفي الأردن «الحفزة»، ومن الممكن، وفقاً لهذا التقليد، أن تسلّم أخت القاتل إلى أخ المقتول، ولا تقام لها عادةً مراسم زفاف، أي أنَّها تعامل كسبيَّة أو جارية، وغالباً ما تتعرَّض لسوء المعاملة، وإذا طلَّقها الرجل فإنَّ من حقِّه الاحتفاظ بأولاده القصَّر من الذكور والإناث من دون اعتبار لشروط الحضانة.

يتَّضح من البيانات والتحليلات المعروضة في هذا البحث أنَّ النتائج السلبيَّة للقبليَّة شملت كافَّة جوانب المجتمعات العربيَّة، من سياسيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة، وشكَّلت جزءاً كبيراً ومؤثِّراً من تركة التخلُّف التي عانى وما يزال يعاني منها العرب، وعقبة كأداء أمام حركة التطوُّر والرقيّ، وعلى الرغم من ضخامة هذه المشكلة وخطورتها لم تحصل على اهتمام مناسب من القادة والمؤسَّسات الرسميَّة والباحثين والمفكِّرين في الدول العربيَّة، كما لم يتصدَّوا لها بالمعالجة الجدِّيَّة فكريَّاً وعمليَّاً، بل إنَّ العديد من الحكومات العربيَّة ما زالت تكرِّس القبليَّة وتشجّعها رسميَّاً وعمليَّاً في نظمها

---

[41] المصدر نفسه، ص 50 .

[42] عبد الله محمد عزباوي، مصدر سابق، ص 103

ومؤسَّساتها، ولا يتردَّد بعض المفكِّرين من التفاخر بها لأنَّها في نظر نجوى قصاب حسن: "صورة أخرى للانتماء القوميِّ والرابطة بين الإنسان ومجتمعه" [43]، فيما يعتبرها أحمد ظاهر أحد عنصري التراث العربي، وهما: التقاليد القبليَّة والديانة الإسلاميَّة، ويصرُّ على كونهما مترابطين على الرغم من تعدُّد التناقضات بينهما ووضوحها [44]، وبالمقارنة بهذه المواقف أدركت كريستين نصار حقيقة التعارض شبه التام وعمقه بين الإسلام والقبليَّة، وبعد أن لاحظت مسعى الإسلام إلى تحرير المسلمين من ارتباطهم القبليّ واستبداله بارتباط مباشر مع الخالق انتهت إلى استنتاج صحيح ودقيق بأنَّ "استمرار الولاء للقبليَّة يعني إشراكاً بالولاء المفترض لله ولرسوله وتفتيتاً للأمَّة" [45].

---

[43] نجوى قصاب حسن، مصدر سابق، ص 11 .

[44] أحمد جمال ظاهر، التنشئة الاجتماعيَّة والسياسيَّة في العالم العربي مع دراسة ميدانيَّة لمنطقة شمال الأردن، الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، 1985، ص 120 .

[45] كريستين نصار، مصدر سابق، ص 46 .

الفصل الثالث

المثاليَّة لا الواقعيَّة في تصوير الذات

ينطلق موضوع هذا الفصل من افتراض مفاده أنَّ نظرة العرب إلى ذاتهم وأسلافهم وتاريخهم يغلب عليها التفاخر الموروث من أيام الجاهلية، وأن تقويمهم الذاتي يفتقر أحياناً إلى الموضوعية، وبالتالي فإنَّ هذه النظرة والتقويم أقرب إلى المثال، أو إلى ما يجب أن يكون عليه منه إلى الواقع والحقيقة. ولا يمكن الاعتراض على التفاخر بمآثر الأجداد والمعاصرين، وبخاصة أن تاريخ العرب والمسلمين حافل بالعظماء وإنجازاتهم الرائعة، ما دام لا يعيق دراسة التاريخ بتجردٍ كافٍ يتيح لنا الاستفادة من عبر الماضي ونقد الذات نقداً موضوعياً وبناءً لتشخيص مواطن الضعف فيها وإزالتها وتطوير النفس والامة. وينصبُّ الإهتمام في هذه الدراسة على تحري هذا الإتجاه وجذوره ومظاهره وآثاره على الفكر والسلوك.

تمجيد الذات: الجذور والمظاهر

تبين دراسة تاريخ الشعوب وحضاراتها المختلفة أنَّ تمجيد الذات تقليد متبع من قبل الشعوب بصورة عامة، فالجميع يريدون أنَّ يكون لهم تاريخ مجيد مليء بالإنجازات العظيمة والإنتصارات الرائعة التي حققها أبطال أفذاذ وقادة محنَّكون ويحرصون على ذلك. ولا تختلف في ذلك الشعوب المتطورة تقنياً واقتصادياً عن القبائل البدائية، ويكاد لا يخلو تراث أي أمّة من أساطير وروايات تاريخية وكتب دينية تشهد على عراقة أصلها وسموّه، مثل تحدرها من نسل آلهة أو أنصاف آلهة أو مخلوقات أسطورية أو أبطال عظام خارقين، كما تسرد هذه الموروثات وقائع حربية انتصر فيها الأبطال الأخيار من هذه الأمة على الأشرار المفسدين من أقوام أخرى من الإنس أو المخلوقات الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك تحرص الأمم على تدوين وحفظ تواريخها، والتذكير بأمجادها التليدة مثل الامبراطوريات الواسعة التي حكمتها، وانتصاراتها الحربية، والاستكشافات الجغرافية والاختراعات العلمية التي حققها افرادها. وفي الوقت نفسه فإن الصفحات السود في تاريخ الأمة غالباً ما تطوى سجلاتها وتهمل، ولا يستغرب أن تطمس أو تحرف وقائعها أو تنكر حقائقها جملةً وتفصيلاً، لغرض تبييض تاريخ الأمة بأكمله. فالأوروبيون، مثلا، لا يزالون ينظرون بإيجابية إلى الحروب الصليبية على الرغم من اعتراف قلة من المنصفين بينهم بطبيعتها الاستعمارية العدوانية ويصرُّون على اعتبار الملك ريتشارد المعروف عندهم بلقب «قلب الاسد» بطلاً رغم هزيمته، وحتى الوقت الحاضر توجد فنادق وحانات في بريطانيا تحمل اسم «رأس المسلم»، Saracen's Head كما يحتفل الفرنسيون سنويا بثورتهم ضد الملكية وسقوط الباستيل متناسين دمويتها، ويتفاخرون بحروب نابليون وانتصاراته التي أحرقت أخضر أوروبا ويابسها في زمنها، ولم يبدوا حتى الآن استعداداً للاعتراف أو التكفير عن وحشيتهم وفظائعهم في الجزائر وغيرها من الدول العربية. وإذا كان اليهود قد أجبروا الالمان وغيرهم على دفع تعويضات سخية عن جرائم الحرب العالمية الثانية، فإن الأوروبيين والأمريكيين لم يقروا بمسؤوليتهم عن استعمار ونهب وتخريب معظم بلدان العالم وقتل الملايين من سكانها، لأن ذلك يسود صورهم التي يريدونها أن تكون براقة جذابة ومتحضرة. وللسبب نفسه انزعج العديد من مواطني الولايات المتحدة الأميركية من التغطية الاعلامية الواسعة لفضيحة الرئيس الأسبق كلنتون النسوية، ليس لأنها غير صحيحة أو مبالغ فيها، بل لأنها تؤذي سمعة

أمريكا ومواطنيها في الخارج، وهذه الهيبة بالنسبة لهؤلاء أهم من معرفة الحقائق وإذاعتها، لذا من الأفضل برأيهم ستر الاحداث والوقائع التي تؤثر عليها سلباً.

بالاضافة إلى عكس صورة إيجابية ومشرقة عن الأمة لدى الغير، يهدف تمجيد الذات إلى تنمية الشعور القومي من خلال إثارة مشاعر الفخر والإعجاب بالأمة ومنجزاتها الحضارية في نفوس أبنائها، ودفعهم إلى بذل الجهود في سبيل رفعتها ورقيها والتصدي لأعدائها. ولكن من الممكن أن ينحدر هذا التمجيد إلى درك التعصب والعنصرية، مثل الإدعاء بأن الأمة هي أفضل الأمم وأن أفرادها هم الارقى، والمثال على ذلك مباهاة اليهود بأنهم شعب الله المختار، الذي فضله على كل الشعوب، وادعاء القيادة النازية في ألمانيا بان العنصر الآري هو أرقى العناصر.

واستخدمت بعض الأمم هذه الادعاءات في خدمة أهدافها التوسعية والتسلطية، ففي الماضي بررت الامبراطورية الرومانية احتلالها لمناطق واسعة والتسلط على شعوبها بدعوى تطور ورقي حضارتها، فيما اعتبروا الشعوب المحكومة متخلفة وبربرية. وفي الوقت الحاضر تضع الولايات المتحدة الأميركية نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فوق منصة شاهقة، وتمارس الضغوط المباشرة وغير المباشرة على بقية الأمم لاجبارها على تقليد نظمها.

عرفت ظاهرة تمجيد الذات لدى العرب منذ العصر الجاهلي، فكان الجاهليُّون يتفاخرون بقبائلهم وأحسابهم وأنسابهم وأبطالهم وشعرائهم وانتصاراتهم، وبالغوا في هذا التفاخر وفي مدح الذات إلى حدِّ الاطناب والمبالغة. وعلى الأغلب لم يكن هذا التفاخر بالنفس والتعالي على الغير ضرباً من النرجسية أو نزعة إلى التكبر بل أسلوباً من أساليب التنافس، أفرزه التصارع حول وسائل العيش والبقاء، والذي كان الشغل الشاغل للقبليين في الجاهلية. نهى الاسلام عن التفاخر بالذات لأنه يتناقض ومتطلبات المجتمع الإسلامي المبني على التآخي والتضامن والتعاون، ولأن المطلوب من المسلم المؤمن أن ينبذ التفاخر حتى لا يظنّ بنفسه الكمال والمثالية، ولا يغتر بعقله أو قوته البدنية أو انجازاته، ولا تأخذه العزة بالإثم فيعاند ويكابر ويصر على المعصية والذنب. وبدلاً من ذلك عليه أن لا يصعر خده للناس، ولا يمشي بطراً، وأن يتواضع لربه وللناس، وأن يعترف بأن ما أوتي من العلم قليل، ليكون ذلك دافعاً لاستمراره في التحصيل وطلب المعرفة، وأن تكون نفسه لوامة توبخه كلما اقترف معصية، وتحثه على الاعتراف بالخطأ وطلب العفو من المسيء إليه، وتصحيح سلوكه وتطوير ذاته.

لكن تمجيد الذات بين العرب استمر حتى وقتنا الحاضر، فالقبلية لم تختفي، وظهرت مجالات جديدة للتنافس أذكت هذه الظاهرة، فالتفاخر على غير العرب كان مهماً وضرورياً للحكام العرب لتسويغ انفرادهم بالسلطة أثناء العهدين الأموي والعباسي، وحتى قريش التي اضطهدت الرسول وبعض أتباعه واضطرَّتهم إلى الهجرة من مكة، وقتلت منهم الكثير في زمن قلتهم، تفاخرت بعد إسلامها وانتشار الاسلام على القبائل الأخرى بأن الرسول وكبار الصحابة قرشيون. كما أصبح تمجيد الذات والتفاخر وذم المنافسين والخصوم أسلوباً إعلامياً مهماً لدى الفرق السياسية والمذاهب الإسلامية، وانتفع من ذلك المختصون في هذا المجال من قادة وفقهاء وشعراء وأدباء وخطباء ودعاة، ولم يراع العديد من هؤلاء الصدق والدقّة والموضوعية في تصوير الذات والخصوم وتسجيل الوقائع وتحليلها، كما اتجهوا إلى تبرئة الذات من المسؤولية عن القصور والضعف وتحميلها عوامل وعناصر خارجية من أجل الحفاظ على نقاء صورة الذات وبريقها.

وفي الوقت الحاضر، ينتشر بين الكثيرين من القادة والمثقفين وعامة الناس اعتقاد ايديولوجي، غير قابل للمناقشة، بأن العرب أمة متفردة في عظمتها ورفعتها، وتمتلك جميع المقومات والصفات الدالة على ذلك من فضائل وخصائل حميدة وقدرات خلاقة وإبداعية، وهذه الخصائص ليست طارئة أو مكتسبة بل هي قديمة قدم الأمة، متأصلة ومتجذرة فيها، يتوارثها جيل عن آخر حتى بلغت الأجيال المعاصرة، كما أن هذه الخصائص الحضارية موجودة في الأمة بصورة ظاهرة أو كامنة، وقد برزت

في صورتها البراقة عندما توفرت الظروف المناسبة لذلك، أثناء العصر العباسي مثلا، ثم جاءت أزمنة اختفى فيها هذا البريق وبهت الواقع مقارنةً بما هو ممكن، وذلك وفقا لهذا الاعتقاد بسبب ظروف وعوامل قاهرة مثل تغلغل الاجانب في صفوف الامة ونجاحهم في إضعافها، أو تسلطهم على مقاديرها، ولكنهم يؤكدون بأن هذا التدهور والانحطاط حالة مؤقتة وطارئة، واثناء تلك الحقب الظلمة من تاريخ الأمة كمنت عظمتها تحت السطح، وما الحالة السلبية بأكثر من صدأ علق على معدن الأمة النفيس، وبعد زوال عوامل الضعف الطارئة يعود للمعدن النفيس بريقه.

يتفق السلفيون المتدينون مع القوميين حول عظمة الأمة العربية، ولكنهم يختلفون معهم حول نقاط جوهرية، فالسلفيون المتدينون يؤكدون أن هذه العظمة لا ينفرد بها العرب، بل يشتركون فيها مع غيرهم من المسلمين، وإن كان العرب يحتلون مكانة خاصة بينهم أكرمهم الله بها بإنزاله القرآن الكريم بلغتهم، واختيار نبيه محمد منهم، وكون أغلبية الصحابة من العرب، وهم الذين حملوا شرف الرسالة ونشروا الدعوة، ويختلف السلفيون مع القوميين أيضا حول مصدرهذه العظمة، فبينما يؤكد القوميون بأنها متأصِّلة وموجودة بالكامل في الأمة نفسها، يعتقد السلفيون بأنها مكتسبة من العقيدة الاسلامية والإيمان بها، والعمل باحكامها ومن الجهود والتضحيات المتميزة للرعيل الأول من المسلمين أوالسلف، فالعرب قوم جاهلية قبل نزول الوحي، والفضل في تحضرهم ورقيهم المعنوي والمادي يعود إلى الاسلام. وبينما يعتقد القوميون بأن عظمة الأمة موجودة دائماً، بالفعل أو القوة، يرى السلفيون أن الأمة في مرحلة الرسالة والخلافة الراشدية كانت نموذجية أو الأقرب إلى النموذج والمثال، عندما كان المسلمون متوادين متراحمين متراصي الصفوف، وكان الحكام عادلين، والناس أتقياء ورعين، عاكفين على تأدية فروض العبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذا فإن ذلك النموذج هو المثال الذي يُقتدى به، والنِبراس الذي يقاس عليه مدى تقدم أو تأخر الأمة في الأزمنة اللاحقة. ويستنتجون من هذا أيضاً أن التفسيرات والأحكام الشرعية والفقهية التي توصل إليها علماء السلف هي أفضل ما يمكن التوصّل اليه واستنباطه، ولن يستطيع الخلف مهما أوتوا من علم ومعرفة وتوفيق أن يزيدوا عليها ويحسنوا فيها، وحسبهم أن يتعلموا من أولئك السلف أحكام دينهم، ويقلدوا طريقة تفكيرهم، ويتبعوا منهجهم وسلوكهم، وكلما اقتربت الأمة من ذلك النموذج كلما قويت فيها الصفات الايجابية، وازدادت توفيقاً ورفعةً وسؤدداً، مع الأخذ بعين الاعتبار بأنها لن تبلغ تلك القمة والصورة النموذجية لمجتمع وأهل تلك الحقبة من التاريخ.

لا يتطابق تحليلا القوميين والسلفيين حول أسباب تدهور الامة تماماً، فالقوميون يحملون عادة الأعداء الخارجيين وعناصر التخريب في الداخل المسؤولية عن إعاقة مسيرة الامة وإفشال محاولاتها في بلوغ كامل عظمتها ورفعتها، ويتفق معهم السلفيون في اتهام المندسين بين صفوف المسلمين بإضعاف الامة، ولكنهم يعزون ذلك مباشرة إلى ضعف الالتزام بالشريعة وأحكامها.

صورة الذات المثالية لدى القوميين

يؤكد القوميون أن شعور العرب بالرفعة والعظمة إحساس قديم، وقد عبر عنه الملك النعمان بن المنذر عندما خاطب كسرى بأن "العرب أشرف أمة..."، وللبرهان على صحة الادعاء بقدم هذه العظمة أدرج بعض القوميين شعوباً أخرى مثل الفينيقيين والبابليين والمصريين القدماء ضمن العرب، وبهذا تكون الامة العربية أول صانعة للحضارة الانسانية ورموزها الأساسية مثل الزراعة ونظم الري، والإدارة، والديانة المنظمة، والشرائع، والأبجدية، والكتابة، وعلوم الحساب والفلك والطب والآداب والفنون. كما اعتبر القوميون الاسلام إبداعاً وإنجازاً حضاريا من جملة إنجازات العرب، ولهم حق التفاخر بذلك على غيرهم لأن عبقرية المسلمين العرب، وعلى رأسهم الرسول، أرست قواعد الدين، ونشرته بين الناس، حتى أصبح يدين به مئات الملايين من غير العرب، وبفضل

هذه الدعوة نجح العرب في توحيد قبائلهم في إطار دولة واحدة، الأمر الذي أتاح لهم تجميع قواهم وطاقاتهم، والتصدي للامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية وإنهاء احتلالهما لأجزاء من الأرض العربية، ومن ثم إنشاء امبراطورية عربية متحضرة ازدهرت فيها العلوم والثقافة.

أطنب القوميون في وصف الذات ومدحها، فكانت صورة الذات لديهم أقرب إلى المثال منه إلى الواقع، ويلاحظ ذلك في وصف الأرسوزي للأمة العربية بأنها [1]:

"مثل السديم ذاته - أصل الوجود - يتكاثف أحياناً، ثم يتناثر بعد حين فتنجم الشموس عند تكاثفه ثم تنتهي بتناثرها في الاثير".

والتشبيه هنا غني عن التعليق. ويصف مؤلف آخر العرب بلغة أقل شاعرية وعاطفية، ولكنها لا تخلو أيضاً من التفاخر بأنهم [2] "من أقوى الأمم أجساماً وعقولاً واكثرها أنفة واباءً وعجباً وفخاراً" وتؤيد الصفات الاربعة الاخيرة، وهي الأنفة والإباء والعجب والفخار افتراضنا بأن صورة الذات تجنح إلى المثالية.

يرفض كاتب ثالث أي مقارنة بين العرب وغيرهم من الامم لأنهم حالة خاصة تتميز من غيرها بكونها متحضرة منذ البدء، وحتى عندما كانت في حالة القبلية والبداوة، وإن مستواها الحضاري يسمو فوق أوضاعها المادية، وهو بالتالي يرفض التحليل المادي الذي يرى أن فكر الأمة وثقافتها يعكسان بالضرورة مدى تطور وسائل الانتاج فيها أو مراحل تطورها[3] :"إن الأقوام والقبائل العربية هي نموذج بشري خاص لا يشبهها شعب أو نموذج حضاري آخر لأن ارتفاع مستواها الفكري والفني والحضاري غير المتناسب مع مستواها المادي جعل الامر يختلط على الباحث الذي أخطأ في تصنيف العرب مع غيرهم من البدو والأقوام البدائية".

ويؤكد القوميون بأنَّ العرب، حينما أنشاؤا امبراطوريتهم التي ضمت شعوباً غير العرب، لم يتصرفوا كما تصرَّف غيرهم من أصحاب الامبراطوريات السابقة أو الاستعمارية اللاحقة، فلم يتجبروا على رعاياهم أو يظلموهم أو يضطهدوهم أو يستغلوهم، وهذا ما عبر عنه الشهابي في ما يأتي [4]: "إن العرب يعدون من أقدر الشعوب على الاستعمار، فهم لم يعلوا فوق الشعوب التي حكموها، ولم يستكبروا، بل عدّوهم مثلهم وخالطوهم بالعشرة والمصاهرة والمعاملات الاقتصادية".

وفي بداية هذا القرن الذي شهد اعجاب المثقفين العرب بالديمقراطية وتوقهم إلى تطبيقها في بلادهم، كتب الريحاني بأن: «العرب هم فطرة ديمقراطيون» [5]، وبالتالي لا يحتاج تطبيق الديمقراطية سوى الرجوع إلى الفطرة.

وبعد استيلاء القوميين الاشتراكيين على السلطة في بعض الدول العربية انهمك المنظرون العقائديون في التنقيب عن جذورالاشتراكية في تراثهم، ووجدوا ضالتهم، أو هكذا ادعوا، في جماعات الصعاليك التي نشات في الجاهلية وكانت تقسم الغنائم، وفي افكار بعض الصحابة أمثال أبي ذر الغفاري، وكذلك في مجتمع المساواة الذي حاول القرامطة الثائرون على الحكم العباسي تأسيسه.

نظرا لاستغراق صورة الذات في المثاليِّة، فإن من البديهي ظهور تباين واضح بينها وبين الواقع،

---

[1] زكي الارسوزي، العبقرية العربية في لسانها، دمشق: دار اليقظة العربية، ص 312، نقله اسماعيل الملحم. دراسة في وحدة الشخصية القومية للامة العربية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1987، ص 12 .

[2] حسن مغنية، شمائل العرب، بيروت: مؤسسة عز الدين، 1981، ص 9

[3] نجوى قصاب حسن، الفكر الاجتماعي عند العرب، دمشق، جامعة دمشق، 1982، ص 12 .

[4] مصطفى الشهابي، الاستعمار، القاهرة: معهد الدراسات العربية، 1955، ص 136 .

[5] أمين الريحاني، فيصل الأول، ص 4 .

فالاعتقاد بأنَّ أمة معينة تتميز أو تتفرد في حيازتها للصفات الايجابية فقط أو السلبية فقط غير مقبول، ولا يمكن إثباته عقلياً، والافتراض الصحيح هو أن جميع الامم متساوية في امتلاكها للصفات الايجابية من قدرات عقلية وإمكانيات بشرية، ولكنها بالطبع تختلف في مدى تطورها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وعلى هذا الأساس يتوقع أن تكون نسبة المبدعين في جميع المجتمعات متقاربة وفقاً لقانون المعدلات أو منحنى التوزيع الطبيعي إلا أن بروز القدرات الإبداعية والاستفادة منها يعتمدان على حصول المبدعين على التعليم والتدريب وتوفر الظروف الملائمة، وفي ذلك تتباين الامم تبايناً واضحاً، ووفقاً لذلك فإنَّ تقويم القوميين للذات العربية مرفوض لأن العرب مروا بمراحل مختلفة، ففي مرحلة الجاهلية كان أغلبهم في طور البداوة والرعي، وبعد مجيء الإسلام بلغوا مستويات رفيعة من الرقي والتطور، ثم تدهورت أوضاعهم فيما بعد، وخبت إشراقتهم الحضارية، والمتدينون السلفيون واقعيون ومقنعون بدرجة أكبر في ربطهم بين تقدم العرب والاسلام، ولكنهم يفارقون الموضوعية عندما يعدّون الانحدار الحضاري للأمة بعد مرحلة فجرالاسلام حتمية تاريخية، لأنهم يعتقدون بأن من غير الممكن للأجيال اللاحقة إلا بلوغ مستوى أدنى من التطور وفهم أقل للدين واحكامه وقدرة محدودة على استنباط الاحكام مقارنة بالسلف.

شكل هذان الاتجاهان، أي القومي والديني، أكبر حركتين منظمتين ومؤثرتين في المجتمعات العربية في القرن العشرين وبداية القرن الحالي، ونتجت عن تقويمهما المثالي للذات آثار سلبية من ضمنها ما ياتي:

1- الإصرار على مثالية السلف.
2- ضعف الموضوعية في دراسة ماضي الامَّة وحاضرها.
3- إضعاف دور العقل والتحليل العلمي وتشجيع التقليد والنقل.

السلف بين المثال والواقع

يتفق القوميون مع السلفيين حول مثاليّة السلف، واعتبار عصرهم أفضل العصور، والأفراد الذين عاشوا فيه أفضل الناس خلقاً وعلماً وعملاً، والقوميون المثاليون يعتزون بهؤلاء السلف الذين أبرزوا الصورة الحقيقية المشرقة للأمة، وأثبتوا للجميع اقتدارها، واعتبر المتدينون المثاليون معاصرة السلف لعهد النبوة والخلافة الراشدية عاملاً حاسما منحهم مزايا واضحة على الأجيال اللاحقة، ويؤخذ على هذين الموقفين كونهما مبدئيين مستمدين من اعتقاد جازم، وبالتالي فهما لاينطبقان تماماً على الواقع.

تتفق المصادر التاريخية على حدوث تحول جذري وإيجابي في أحوال العرب بعد إسلامهم وانتشار الدعوة الإسلامية، ومن البديهي أن يُستنتج من ذلك وجود علاقة سببية بين اعتقاد العرب بالدين الإسلامي وهذه التحولات الإيجابية، ويستدل منه أيضاً على امتلاك السلف المعاصر لعهد الرسالة وما تلاها لمزايا وإيجابيات كثيرة، إلا أنه غير كافٍ للاستدلال على مثالية أو نموذجية كل السلف، وهذا ما تؤيده أيضاً الوقائع التاريخية، ومع الاعتراف بأنهم تمتعوا بفضائل عديدة إلا أنهم كانوا بشراً معرَّضين لجذب قوى الخير والشر، ووفقاً لما يبينه لنا القرآن الكريم والسجلات التاريخية كان بين أوائل المسلمين الصديقون والشهداء والمجاهدون بأنفسهم وأموالهم، والمزكون والمتصدقون والراسخون في العلم، وكذلك المسلمون الذين لم يبلغ اسلامهم درجة الايمان، ومنافقو المدينة، والاعراب المنافقون، والذين يصفهم طه حسين بـ "العرب من جرت كلمة الاسلام على لسانه ولكنه احتفظ بجاهليته كاملةً في قلبه ونفسه وضميره."[6] وقد خذل عدد من المسلمين الرسول وتقاعسوا في تنفيذ أمر الله بالجهاد، وولى الادبار جمع منهم، وجادل بعضهم الرسول، واعترضوا على بعض

---

[6] طه حسين، الفتنة الكبرى، 1، عثمان، ص 39 .

قراراته مثل صلح الحديبية، وأثاروا قضية الإفك، واختلفوا حول اختيار خليفته بعد وفاته، وامتنع كثيرون عن دفع الزكاة، وارتدَّ آخرون عن الدين، وعادوا إلى عبادة أصنامهم أو اتبعوا أدعياء النبوة، وقتلة عثمان من جيل السلف الأول من المسلمين أيضاً، وكان قادة أصحاب الجمل من السلف بل ومن العشرة المبشرين بالجنة، وهم تسببوا بخروجهم على خليفة المسلمين علي بن أبي طالب في مقتل أعداد غفيرة من المسلمين، وتفريق صفوف الامة، ويُعدّ الوالي العاصي معاوية بن أبي سفيان وحليفه عمرو بن العاص من الصحابة والسلف، وهذان يفترض أن يكون سلوكهما مثالياً ونموذجياً وقدوة للخلف.

ويخلص طه حسين من دراسته لتلك الحقبة من التاريخ إلى النتيجة التالية[7]:"أنَّ جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الاسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة، أو ضمنها لهم، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب، وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الامور، وقاتل بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس".

تسلَّط معاوية على الحكم، وارتكب هو وعماله جرائم كبرى، فعلى سبيل التذكير قتل قائده بسر بن أرطأة ولدي عبيدالله بن العباس بن عبد المطلب، وكانا صبيين، وأسرف في القتل، كما أعدم عبيدالله بن زياد، والي معاوية على الكوفة، الصحابي حجر بن عدي ورفاقه وقضى على أحدهم بالدفن حياً لمجرد انتقادهم معاوية ورفضهم شتم علي بن أبي طالب، ومعاوية متهم أيضاً بإغتيال عدد من خصومه ومنافسيه بالسم وهم: الحسن بن علي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومالك الأشتر، واختتم عهده بإجبار الناس على مبايعة إبنه يزيد، وهذا الاخير مسؤول عن مذبحة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي، حفيد الرسول ورهط من أولاده وإخوانه وأهل بيته وأصحابه، وفي عهده أيضاً استباحت قواته المدينة المنورة ثلاثة ايام، اغتصبوا فيها النساء والفتيات، ولم تسلم حتى الكعبة من جيش الامويين الذين قصفوها بالمنجنيق.

ولم يكن العباسيون بأفضل سيرة من أسلافهم الأمويين، وكانت تصرفات غالبيتهم أبعد عن المثالية، ولا تستحق أن تكون قدوة للخلف، مثل قتل السفاح لمسلم بن هبيرة بعد إعطائه الأمان، وغدر المنصور بعمه عبدالله بن علي وبقائد جنده أبي مسلم الخراساني، كما غدر الرشيد بيحيى بن عبدالله، وهارون الرشيد مثال جيد على ضعف مبدأ المثالية في تصوير الذات لدى القوميين والمتدينين، فبينما يشيد القوميون بعصره الذهبي يمتدح المتدينون تقواه وورعه، ولكن الروايات التاريخية عنه وعن عصره ترسم لنا صورة مختلفة، فبينما تشير بعض المصادر إلى بكائه عند سماعه الوعظ، وحجه كل عام، وحرصه على شق الطرق وحفر الآبار لسقي الحجيج، ذكرت مصادر أخرى أن مجالسه كانت تعج بالمغنين والجواري وسجونه ملآنة بالمعارضين، وميله شديد إلى الترف والإسراف كما تدل على ذلك الإحصائية التالية بمحتويات خزائن ملابسه: عشرة آلاف قميص، وأربعة آلاف جبة من الخز، وخمسة آلاف منديل، وأربعة آلاف زوج جورب، وألفا سروال وثلاثمائة ديباج [8] ويتضح من هذا أن الرشيد لم يكن حاكماً مثالياً، والأسلم تحري الموضوعية في تقويم حكمه وسياساته.

ومن المعروف أن الاسلام أسس المساواة بين المسلمين، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، والاتجاه المثالي يؤكد أن ذلك تحقق فعلا، وقد أشرنا سابقاً إلى تحليل الشهابي لمعاملة العرب لغيرهم من الشعوب، فهو يسمي ذلك «استعماراً»، ولكنه يستدرك بأنه استعمار مختلف عما

[7] المصدر نفسه، ص 40 .

[8] حسن فلاح الكساسبة، المؤسسات الادارية في مركز الخلافة العباسية، ص 73 .

نعرفه، نعمت فيه الشعوب المحكومة بالمساواة والعدل، ويضيف[9] :"وكل من أسلم منهم صار أخاً، لا فضل لآخر عليه إلا بالتقوى، ومن الطبيعي أن يدخل الناس في الاسلام في تلك الايام، وأن يتعلموا العربية، ويتعربوا، ويهضموا عادات الفاتحين، وأخلاقهم، ويصبحوا جزءاً من أفراد تلك الامبراطورية العظيمة، دون فرق بين العربي والمستعرب".

ويقع المؤلف هنا في خطأ المثاليين بخلطه بين الصورة المثالية، أو ما يجب أن يكون الوضع عليه وفقا لمباديء الإسلام، وبين السياسات الرسمية وسلوكيات الناس، والأقرب إلى الواقع هو ما أكده أحد القوميين في ما يلي [10]: "كانت العروبة موضع تفاخر العرب على ما عداهم من الشعوب والاقوام"، فالعرب، وبالأخص أثناء العهد الأموي، صنفوا غير العرب في مرتبة متدنية، ولم يلتزموا دائماً بمبدأ المساواة الإسلامي في معاملتهم وبالتحديد في الأمور التالية:

1. اعتبار الموالي غير اكفاء للتزوج من العربيات.
2. فرض الجزية والخراج على الموالي خلافا لأحكام الإسلام.
3. تكليف الموالي بالوظائف والأعمال التي لم يرغب بها العرب وحرمانهم من وظائف الولاية والقضاء.
4. اقتصرت مشاركة الموالي في الجيوش الإسلامية على فرق المشاة فيما خص العرب أنفسهم بفرق الفرسان.

ولابد أن هؤلاء المسلمين من غير العرب صدموا بهذا التمييز في المعاملة، خلافاً لأحكام الإسلام، الأمر الذي دفع بعضهم إلى صفوف المعارضة إبّان العهدين الأموي والعباسي، ويعلق طه حسين على ذلك [11]: "إن استئثار قريش بالخلافة جرّ على المسلمين كثيراً من الفتن، وإن استئثار العرب بالسلطان والفضل أدال من بني أمية لبني العباس بفضل من ناصرهم من الموالي".

وبينما اختار العرب لانفسهم أعمالاً مريحة وذات مداخيل عالية مثل التجارة وحيازة الاراضي والعقارات استخدموا غير العرب في الأعمال اليدوية. ففي العهد الأموي استقدم الحجاج الهنود (الزط) للعمل في زراعة أراضي العراق، كما أجبر الزنوج على العمل في الفلاحة واستخراج الملح في جنوب العراق، ويصف علي أحمد ظروف عمل هؤلاء المستضعفين كما يلي [12]: "استقدم الزنوج للعمل في أراضي التجار وإزالة الطبقة الملحيَّة في منطقة البصرة، عاشوا في مستوى أدنى من الأرقاء فهم محرومون من أي حق، ويعملون دون تعويض وأجر سوى قليل من الطعام لا يغني متطلباتهم الجسدية".

وبسبب ما حاق بهم من ظلم وسوء معاملة ومعاناة وأوضاع معيشية لا تطاق ثار الزنوج مرتين في العهد الأموي، وعاودوا الثورة أثناء العهد العباسي، واستمرت هذه الثورة مدة أربع عشرة سنة وأربعة أشهر.

وما ينطبق على الحكام والولاة والطبقات المترفة والمرفهة يصح أيضاً بخصوص عامة الناس، فلم يكونوا كلهم مثاليين، مؤمنين، اتقياء، يتصفون بالأخلاق الحميدة، ويتمسكون بالفضائل، ويتصرفون في كل حين وفقاً لما تمليه عليهم تعاليم دينهم السمحاء وضمائرهم الحيَّة، لذا فإن الادعاء بمثالية السلف وعظمتهم لا تؤيده الوقائع التاريخية ولا المنطق، وهذا ما يتبين من استعراض بعض الأمثلة على أساليب إعدام الخصوم والمعارضين والتمثيل بجثثهم.

في صبيحة الرابع عشر من تموز سنة 1958م قتل معظم أفراد العائلة الهاشمية المالكة في العراق

---

[9] مصطفى الشهابي، مصدر سابق، ص 136 .

[10] إسماعيل الملحم، مصدر سابق، ص 9 .

[11] طه حسين، الفتنة الكبرى، 1، عثمان، ص 38 .

[12] علي أحمد، ثورة العبيد في الإسلام، بيروت: دار الآداب، 1985، ص 35 .

بما في ذلك النساء والشيوخ، رمياً بالرصاص، ثم أقدم بعضهم على التمثيل بجثة خال الملك الأمير عبد الاله خلافاً للأمر الإسلامي الذي ينهى عن المثلة ولو بالكلب العقور، وقاد هذا الحدث المفجع بعض المراقبين والمحللين إلى التوصل إلى تعميمات عجولة وغير موضوعية عن طبيعة العراقيين المعاصرين وميلهم إلى العنف.

وبالنسبة للمثاليين فإن السلف لا يمكن أن يقترفوا مثل هذه الأفعال المنكرة، ولكن نظرةً سريعة على المصادر التاريخية تبين لنا أن ممارسات مشابهة في فظاعتها، أو تزيد عليها، اقترفت في الماضي وعلى أيدي السلف، ابتداءً بمذبحة كربلاء، التي راح ضحيتها الأمام الحسين ورهط من أهله واصحابه، وبعد انتهاء المعركة سحق فرسان جيش يزيد بن معاوية أجساد الشهداء بحوافر خيولهم، ثم احتزوا الرؤوس وأرسلوها إلى يزيد، وشوهد يزيد وهو ينكت فم الحسين بعصاه، وكان صلب الامام زيد بن علي مثالاً آخر على القسوة المفرطة لبعض السلف، ونكتفي بذلك عن العهد الأموي لأنه ليس المطلوب حصر الوقائع المؤلمة من هذا النوع.

وفي العصر العباسي نصدم بالوصف التالي لإعدام المعتصم لبابك [13]: "قطعت يمينه وضرب بها وجهه، وفعل مثل ذلك بيساره... وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل من القلب ليكون أطول لعذابه، ففعل ثم أمر بجزّ لسانه وصلب اطرافه مع جسده ثم نقل الرأس إلى مدينة السلام ونصب على الجسر".

وفي ايام الناصر لدين الله قام وزيره ابن الصاحب بالقبض على ابن العطار، وهو وزير سابق، "وعذب من اجل الكشف عن ودائعه وامواله، فهلك تحت التعذيب، وحمل لدفنه، فألقوه بعض العامة عن رأس الجبال، وكشفوا سوءته، وشدوا من ذكره حبلاً وسحبوه في البلد" [14].

وينقل العزاوي وصفا لمقتل أحد المسؤولين في القرن العاشر الهجري ومشاركة العامة في التمثيل بجثته [15]:

" قتل قتلة شنيعة، وحملت أطرافه إلى البلاد وسلخ رأسه وحمل إلى بغداد وشوي لحمه وأكلوا منه، وشربوا الخمر في قطعة من رأسه... ثم دخلوا داره في بغداد ونهبوا ما كان بها".

ومرة أخرى يهرع العامة من دون قسر أو إكراه إلى مشاركة الحكام وجلاوزتهم في قتل مهذب الدولة والتمثيل بجثته [16]:

"أحضر إلى الديوان وسئل عن الاموال فأمر بضربه، فضرب ثم أُقعد وسئل فلم يعترف بشيء غير الظاهر، فأمر بقتله فضرب بالسكاكين والسيوف، وكان بالإتفاق في الديوان نجار جاء متفرِّجاً ومعه فأس فضربه عدة ضربات، ثم قطع إرباً إرباً، وتناهبه العوام، فتعمم نفاط بمصرانه، وطافوا به في شوارع بغداد ودروبها، ثم أحرق بباب جامع الخليفة ما عدا رأسه فسلخ وحُشي تبناً، وطيف به في جانبي بغداد وحمل إلى واسط فعلق على جسرها".

وإذا كان بعضهم يترحم على أيام السلف عند مشاهدته لمناظر الاختلاط بين الجنسين في الأماكن العامة، والتصرفات العلنية المخلة بالتعاليم الإسلامية والتقاليد الاجتماعية فإن مراجعة سريعة لمجلدات كتاب الاغاني للأصفهاني ستقنع القارىء بعدم السماح لغير الراشدين بقراءته لما فيه من سرد لسلوكيات ماجنة، وينقل مصدر آخر الوصف التالي: "يستقبل الرجل منهم المرأة في زحمة

---

[13] غسان ابراهيم وعلي شاش. بنية الدولة الشرقية، مساهمة في دراسة وتحليل الاستبدادية والمركزية، الدولة العباسية نموذجاً. دمشق: دار الجندي، 1993، ص 88 .

[14] عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد .

[15] المصدر السابق، ص 305 .

[16] المصدر السابق، ص 349 .

الناس فيلتثمان"[17] والموصوفون هنا هم العيَّارون الذين سكنوا بغداد في العصر العباسي، وهذا السلوك نادر الحدوث في العلن بين الخلف في الوقت الحاضر.
يتبين من هذا العرض الموجز والأمثلة القليلة أن القول بمثالية السلف من حكام وأفراد عاديين لا يتفق مع الواقع والمنطق، ولأنهم لم يكونوا أشخاصاً معصومين أو ذو طبع واحد ثابت، فلم يكن الحكام عادلين وأبطالاً دائماً، كما لم يكونوا اشراراً وقساة القلوب في جميع الاحيان، فالسلف مثل الخلف في كونهم بشراً عاديين، جمعوا بين الصفات الإيجابية والسلبية، وعملوا عملاً صالحاً وغير صالح، ومع الاعتراف للسلف بتميزهم على الخلف في العديد من المجالات فإنه لا توجد أسباب تمنع الخلف من تكرار الأمجاد التي حققها السلف والتفوق عليهم، لكنَّ هذا الموقف يتعارض مع مبدأ مثالية السلف أو الذات لدى بعض القوميين والمتدينين، الأمر الذي جعلهم يبحثون عن أساليب ووسائل لإثبات مبدئهم والرد على معارضيهم حتى ولو على حساب الموضوعية والتجرد أحياناً.

مثالية الذات وضعف الموضوعية

لاحظ علماء النفس والنفس الاجتماعي أن الفرد لا يتخلى عن عقائده الثابتة وأفكاره المسبقة بسهولة حتى لو اصطدمت بالحقائق والوقائع المادية، وأنه يحاول أحياناً الإلتفاف حول هذا التناقض بإهمال الحقائق، أو التشكيك بصحتها أو إعادة تفسيرها بطريقة تزيل هذا التناقض، وعلى سبيل المثال أثبتت بعض التجارب الحقلية أن بعض المدخنين المدمنين على التدخين يشككون في صحة العلاقة بين التدخين والإصابة بالسرطان ليبرروا لأنفسهم إصرارهم على هذه العادة الضارة. ومن الملاحظ أن الملتزمين بمثالية الذات العربية، لجأوا إلى عدد من الطرق لإلغاء التعارض بين هذا المبدأ والوقائع التاريخية، ومن بينها ما يلي:

1. التشكيك ببعض المصادر وإعادة تفسير الوقائع التاريخية بما يخدم مبدأهم.
2. اتهام «الدخلاء» و«المندسين» بالمسؤولية عن الفتن والانحرافات وكل ما يشوِّه الصورة المثالية.
3. الإرهاب الفكري وإلصاق التهم بالذين لا يشاركونهم هذا الاعتقاد.

واجه المثاليُّون مهمة شاقة في كيفية عرض وتسويغ الاضطرابات الخطيرة التي أدَّت إلى مقتل الخليفة عثمان وانتهت باغتيال الخليفة علي بن أبي طالب وتسلّط بني أمية، فهذه الاضطرابات لم تحدث في فراغ، ولا بد من أن تكون من ورائها دوافع، ولا يمكن إنكار حقائق تاريخية مثل: مقتل عثمان على أيدي مسلمين عرب، وحرب الجمل، وتمرد الوالي معاوية بن أبي سفيان وحركة الخوارج. وللتخلص من هذا المأزق عمد بعض المؤلفين والمؤرخين من أنصار مبدأ مثالية الذات إلى اعادة كتابة بعض الأحداث التاريخية وتفسيرها وتوجيه أصابع الاتهام إلى مؤامرة كبرى حاكها ونفذها شخص دخيل على الاسلام، ومن ثم هددوا كل من عارضهم بسلاح التكفير والخروج على الجماعة وغيرها.
أولاً، شكك المثاليون في صحة بعض الروايات التاريخية التي لا تتلاءم مع معتقدهم، فنفوا عن عثمان بعض التصرفات مثل ضرب بعض الصحابة ونفيهم، وبرروا تفضيله لأقاربه في الوظائف والعطاء، وعدم إقامته الحد على عبيدالله بن عمر بن الخطاب لقتله الهرمزان، ودافعوا عن نزاهة ولاته وحسن سيرتهم، وعلى هذا المنوال نزهوا مثيري حرب الجمل، فادَّعى أحدهم بأن هذه القوات المسلحة الضخمة التي سارت من المدينة المنورة بقيادة الزبير وطلحة وعائشة لم تنو قتال الخليفة

[17] الابشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، القاهرة :المطبعة المحمودية، الجزء 1، ص 212 نقله محمد احمدعبد المولى. العيارون والشطارون البغاددة في التاريخ العباسي، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1999.

الإمام علي، وإنما "جاؤوا ساعين في الصلح راغبين في تأليف الكلمة، فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن قصدهم." [18] وإذا كانوا يعترفون بأن الإمام علياً أقرب إلى الحق فإن كون معاوية أحد الصحابة والسلف سبب كاف لديهم لعدم تحميله المسؤولية عن إراقة دماء الآلاف من المسلمين، ومن ثم استيلاؤه على الحكم في أول انقلاب عسكري ناجح عرفه التاريخ العربي، ويؤكدون أنه لم يحارب طلباً بالخلافة ولم يبدأ الحرب، متناسين أنه والٍ معين انتهت ولايته بعد مبايعة الخليفة الجديد الذي من حقه إعفاء الولاة ونقلهم ومحاسبتهم ومصادرة أموالهم كما فعل الخلفاء من قبله، ويسوغون لمعاوية إعدام الصحابي حجر بن عدي لأنه أغضب زياد ابن أبيه والي معاوية على الكوفة، بل يثنون عليه لأن مثل ذلك الحزم في رأيهم مطلوب لمنع حدوث الفتن. وهكذا وبجرة قلم أعادوا هندسة التاريخ بما يتفق مع اعتقادهم، ونزهوا السلف وأتباعهم من الأهداف الدنيوية مثل الطمع بالسلطة والمكاسب المادية وغير ذلك من رغبات وحوافز تحرك البشر العاديين، وكان ذلك بالطبع على حساب الموضوعية والمنطق.

ثانيا، بعد تبرئة السلف من المسؤولية عن الأحداث الجسام في مرحلة الخلافة الراشدية بحث المثاليون عن أكباش فداء يلصقون بها تهم التآمر والدسِّ وإثارة الفتن فأشاروا إلى وجود مؤامرة قادها رأس مدبر، وساعده قادة محليون وضمت تنظيمات فرعية في المدن العربية مثل البصرة والكوفة والفسطاط، وهدفت المؤامرة المزعومة إلى إثارة الفتن بين العرب المسلمين ودفعهم إلى التقاتل، وبالتالي إضعافهم، وبدأت المؤامرة وفقاً لروايتهم بتأليب الناس على الخليفة عثمان، ثم تزوير الرسائل ومن بينها الرسالة التي يقال إنَّ الخليفة عثمان أرسلها إلى ولاته يأمرهم فيها بالاقتصاص من المعارضين، ونجح هؤلاء المتآمرون المفترضون في قتل عثمان وإثارة حرب الجمل وحرب صفين وغيرها من الأحداث الجسام والصراعات الدموية، وادَّعوا بأن قائد هذه المؤامرة هو عبدالله بن سبأ.

ولاحظ طه حسين بأن العديد من المؤرخين والرواة يعدونه مسؤولاً عن الاختلاف والفساد في البلاد الاسلامية في عهد عثمان [19]، ولكي تحمّله المسؤولية عن كل هذا أضفت عليه هذه المصادر، عن غير قصد وبسذاجة، قدرات استثنائية وطاقات لا منتهية وذكاءً خارقاً ودهاءً فريداً، فهو حيناً يظهر في الشام ليحرض الصحابي أبا ذر الغفاري ضد معاوية بن أبي سفيان، ثم يهرع إلى مصر ليدعو الناس إلى معارضة عثمان، ثم ينتقل بين البصرة والكوفة والحجاز والشام مدافعاً عن خلافة الإمام علي، وقام هو وأعوانه بإثارة الحرب في واقعة الجمل بين جيش الامام علي وجيش طلحة والزبير «التصالحي»، أما من هو عبدالله بن سبأ فتشير هذه المصادر إلى كونه «يهودياً» دخيلاً على الإسلام ويلقب بـ «إبن السوداء»، وانتسابه إلى اليهودية يفسر عداءه للإسلام والمسلمين ورغبته القوية والدفينة في إلحاق الاذى بالمسلمين ودولتهم، ويدل لقبه على تدني مكانته الاجتماعية، فهو إذاً ليس مسلماً مؤمنا ولا عربياً عريقاً في العروبة، أي دخيل وغريب على الهويتين، ولكن فات مروِّجو هذه الرواية من المثاليين والمتحزبين لبني أمية أن التسليم بصحتها يعني أن رجلاً واحداً استطاع بعقله ودهائه من إثارة أكبر وأسوء الفتن في تاريخ العرب والمسلمين، وتحطيم الوحدة الاسلامية ونظام التآخي والتضامن الذي جاهد الرسول والصحابة والتابعون وضحوا بالغالي والنفيس من أجل بنائه والمحافظة عليه، وأن يخدع تلك الآلاف المؤلفة ذوي العقول الناضجة والنفوس المطمئنة بالإيمان وأن يدفعها إلى الشقاق والتنائي والبغضاء ثم الحرب الضروس، وبالتالي فقد كان أذكى وأدهى وأقوى من الشيطان الرجيم نفسه بأن جعل غالبية المؤمنين يتخلون عن الوصية الإلهية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا). ولو فكر المثاليون الذين روَّجوا لهذه الرواية ملياً لتركوها واسقطوها من مؤلفاتهم لأنها تسيء لسمعة أولئك الرعيل الأول، وهم بإثباتها قد نقضوا ادعاءهم بمثالية السلف

---

[18] محي الدين الخطيب، مقدمة كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي، ص 6.

[19] طه حسين، الفتنة الكبرى، 2، عثمان، مصدر سابق، ص131.

والذات.

لم يتوقف المثاليون عند ذلك بل راحوا يلصقون المسؤولية عن كل نكسة حلت بالمسلمين أو دولة من دولهم بالأجانب والدخلاء، مثل سقوط الدولتين العربيتين الأموية والعباسية. فالفرس مثلاً متَّهمون بإسقاط الدولة الأموية، ومن المعروف تاريخياً قيام عدة ثورات ضد الحكم الأموي ساهمت بمجملها في إضعافه ثم إنهائه من قبل العباسيين، ولو ألقينا نظرة سريعة على القائمة الآتية للثورات الرئيسية ضد الحكم الأموي لوجدنا أن قياداتها والمشاركين فيها عرب وأن الدور المزعوم للفرس فيها مبالغ فيه، ولو كان هذا الدور مهماً في نجاح ثورة العباسيين لما كان التخلص من القائد الفارسي أبي مسلم الخراساني سهلاً:

1. ثورة الامام الحسين بن علي.
2. ثورة الإمام زيد بن علي بن الحسين.
3. ثورة التوَّابين.
4. ثورة المختار.
5. ثورة عبدالله بن الزبير.
6. ثورة عبدالله بن معاوية.
7. حركات الخوارج في عهود معاوية وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز.
8. ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي.
9. ثورات أهل الشام في حمص وفلسطين.
10. ثورة موسى بن عبدالله بن خازم.
11. ثورة عبد الرحمن بن الأشعث.
12. ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة.
13. ثورة عبدالله بن الجارود.
14. ثورة المطرف بن المغيرة بن شعبة.
15. الصراع القيسي اليماني.
16. ثورة العباسيين.

ويرى أصحاب النزعة المثالية تاثيراً أجنبياً وراء كل تقليد غير مرغوب فيه، فالحكم كان على أساس الشورى قبل أن يتشبه الحكام الأمويون بأباطرة البيزنطيين ويتخذوا مظاهر العظمة وأبهة الملوك، كما أن التحلل الجزئي من العفة والفضائل الأخلاقية الذي ظهر في العصور اللاحقة اعتبر بمثابة عدوى أصيب بها العرب من الشعوب الأخرى كما كتب محمود سلام زناتي [20]:

"لم يفقد العرب عاداتهم هذه، مثل الحب العذري، إلا عندما اختلطوا بشعوب أخرى كان الترف والظلم الاجتماعي أفسد اخلاقها وحطم قيمها، وعندما أغرقت أمواج الرقيق المدن العربية والإسلامية، فأشاعت فيها الفساد والانحلال وهبطت بالمستوى المعنوي للعلاقات بين الجنسين".

وكأنَّ الكاتب لم يقرأ شعر امرىء القيس، ولم يسمع بطواف بعض النساء حول الكعبة في الجاهلية وهن شبه عاريات، ولاعن البغايا الساكنات في مكة في ذلك الزمن، وإرتزاق بعض العرب من بيع أجساد الإماء، ويعود الفضل بأكمله للإسلام في تنظيم العلاقة بين المرأة والرجل في إطار زواج مشروع، وترشيد سلوكيهما وإبراز دور المرأة بوصفها أُماً ومربية للأجيال، وتحريم استغلالها والإساءة إليها بإكراهها على البغاء أو الزنا.

يلقي المثاليون بالمسؤولية عن إهمال العرب لغتهم والتهاون في تعلمها وإتقانها وتردّي نتاجهم

---

[20] محمود سلام زناتي، مصدر سابق، ص 28 .

الأدبي في العصور اللاحقة على الأجانب أيضاً، الذين بعد تسلّطهم على العرب لم يتعرَّبوا، وتمسكوا بلغتهم، ويرى الكواكبي، مثلاً، أن التعرب واجب على جميع الأقوام التي دخلت الاسلام، وانتقد الاتراك لأنهم لم يفعلوا ذلك، وعزاه إلى مشاعرهم العدائية للعرب [21]. والواقع هو أن المحكومين غالباً ما يتعلّمون لغة حكامهم، إمّا لنيل رضاهم والحصول على بعض المزايا والفوائد، كما فعل غير العرب في ظل العهدين الأموي والعباسي، أو لأنهم مجبرون ولا خيار لهم كما هو الحال في المغرب العربي تحت الاستعمار الفرنسي.

الارهاب الفكري وتشجيع التقليد

لجأ بعض المثاليين من قوميين ومتدينين إلى الإرهاب في فرض آرائهم وقمع المعارضة وإسكات اصوات المعارضين، كما استعملوا العنف في بعض المناسبات. وشَهَرَ المثاليون المتدينون سلاح التكفير، وهددوا به كل من خالفهم، وكفروا كل من أصر على رأي معارض لأرائهم. وعلى سبيل المثال كفر محي الدين الخطيب في تصديره لكتاب العواصم من القواصم كل من لم يؤيد مبدأ مثالية السلف وعصمته [22]:

"وإذا بدأ المشتغلون بتاريخ الإسلام من أفاضل المسلمين في تمييز الأصيل عن الدخيل من سيرة هؤلاء الأفاضل العلماء، فإنهم ستأخذهم الدهشة لما اخترعه أخوان أبي لؤلؤة، وتلاميذ عبدالله بن سبأ، والمجوس الذين عجزوا عن مقاومة الاسلام وجهاً لوجه في قتال شريف، فادّعوا الإسلام كذباً، ودخلوا قلعته... وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من سجية أهلها".

وأدرك طه حسين خطورة هذا الموقف اللاموضوعي في تقويم الروايات التاريخية عن تلك الحقبة من الزمن وما نتج عنه من تكذيب بعض المؤلفين وذمهم، فكتب [23]:

"وما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الاخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم، اي أصحاب الرسول، من فتنة واختلاف، فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذّب التاريخ الاسلامي كله منذ بعث النبي، لأن الذين رووا أخبارهذه الفتن هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي والخلفاء، فما ينبغي أن نصدِّقهم حين يروون ما يروقنا، وأن نكذّبهم حين يروون ما لا يعجبنا".

انطلاقاً من مبدأ مثالية الذات ادَّعت كل فرقة وجماعة إسلامية بأن فكرها ومنهجها وأحكامها هو الأمثل، وأنَّ كل ماعدا ذلك ضعيف أو مبتدع مرفوض، ووضعوا قوائم سوداء بالمؤلفين والمؤلفات في ضوء اتفاقها أو عدم اتفاقها مع مواقفهم، فالجاحظ غير موثوق به لدى بعضهم، والجاحظ نفسه اتهم الأصمعي بالزندقة والمانوية بسب اختلافهما حول مسألة القدر، وحكموا على ابن قتيبة بالجهل لأنه ألف كتاب الإمامة والسياسة، ووصفوا المؤرخ المسعودي بأنه مبتدع ومحتال، واتهموا رئيس القرامطة باليهودية، وحكموا على عديدين بالكذب لأنهم «روافض» أو «متشيعون»، وبالتالي يجب أن لا تقرأ كتبهم. وفي بعض الحقب التاريخية تحول هذا الإرهاب الفكري إلى إرهاب جسدي، إذ تشير المصادر إلى أن الحنابلة في جيلان كانوا يقتلون الحنفي ويغتنمون ماله مطبّقين عليه حكم الكافر، وتقوَّل منافسو الحنفيين على أبي حنيفة بأنه من الموالي، ولأن مثالية الذات أهم من أي شيء آخر كانت كافة الأسلحة مشروعة حتى أن بعضهم نسَب القول التالي إلى الرسول:

---

[21] الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص 69 .

[22] محي الدين الخطيب، مصدر سابق .

[23] طه حسين، الفتنة الكبرى، 2، عثمان، مصدر سابق، ص 172.

"يكون في أمتي رجل يقال له النعمان هو سراج أمتي، ويكون منهم رجل يقال له محمد ابن إدريس، هو أضرُّ على أمتي من إبليس» [24]. واستمر هذا الإرهاب الفكري حتى وقتنا الحاضر، فعلى سبيل المثال كتب اسماعيل الملحم محتجاً بأن " أعداء الأمة ينقبون في تاريخ الأمة عن الجوانب المظلمة، يتحدثون عن جواري المتوكل وعددهم [الصحيح عددهن] بالآلاف" [25]، ولو طبَّقنا هذا المعيار غير الموضوعي على المؤلفين لاستنتجنا بأن محمد طه بدوي هو أحد «أعداء الامة» لأنه كتب: "راح علماء السنة يتبارون في مدحه، أي المتوكل، على الرغم من أنه كان من اشد الخلفاء بطشاً وتنكيلاً" [26].

استخدم بعض القوميين، من أصحاب النزعة المثالية، هذه الأساليب نفسها، ومنها التهديد بإلصاق تهمة الشعوبية بكل من يتجرأ على مخالفة موقفهم وتحليل ومناقشة النظم والقيم والعادات والتقاليد العربية بموضوعية وتجرد، كما يتضح من الفقرة التالية[27]:

"وقد تفنن بعض الشعوبيين وبعض المستشرقين في تأويل هذه الظاهرة النبيلة [أي الكرم] فزعموا أنها حاجة لا مزية، ذلك بان العصر الذي شاع فيه الكرم، لم تعرف فيه الفنادق، ولا سيما في الصحراء، فهو مبدأ المعاملة بالمثل الذي اقتضته ظروف معاشهم". وقد أقرّ أشهر كرماء العرب، حاتم الطائي، بأن كرمه وسيلة لبلوغ هدف الرئاسة والسيادة على قبيلته، ولكن التحليلات الموضوعية مرفوضة من قبل المثاليين، إلا إذا برهنت على صحة اعتقادهم، والذين لايشاطرونهم الاعتقاد بمثالية الذات حاضراً وماضياً لابد من أن يكونوا هم أبعد عن المثالية كما يرى شكيب ارسلان[28]:

"إن هذا الميل في النفس إلى انكار الإنسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين، وأنه هو يريد أن يبرأ منهم لا يصدر إلا عن الفسيل الخسيس الوضيع النفس، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل، فيسعى هو إلى إنكار أصل أمته بأسرها، لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة".

النهضة العلمية بين المثالية والواقعية: حالة دراسية

تعدُّ النهضة العلمية والادبية التي تحققت في العهود العباسية والفاطمية والأموية الاندلسية من أهم الادلة التي يحاجج بها المناصرون لمبدأ مثالية السلف، وبخاصة القوميون منهم، فيما يبرز أقرانهم من المتدينين غزارة المؤلفات الدينية والفقهية وجودتها وجمع الأحاديث وتصنيفها وإعداد التفاسير وتأسيس المدارس الفقهية في تلك الحقبة، ومن دون شك فإن لا أحد ينكر هذه الإنجازات الدينية والعلمية والثقافية التي وضعت العرب والمسلمين في ذلك الزمن وحتى نهاية القرون الوسطى الميلادية على القمة بين أمم العالم وشعوبه من حيث التطور العلمي والثقافي والإزدهارالاقتصادي.

يعزو القوميون هذه الإبداعات إلى عبقرية الأمة العربية ورعاية الخلفاء والحكام العرب وتشجيعهم للبحث والتأليف، وبالتاكيد فقد كانت إسهامات العلماء والفقهاء العرب كبيرة وعظيمة، إلا أنه وخلافاً لتصور القوميين المثاليين قدم غيرالعرب من الفرس والأفغان وغيرهم إسهامات هامة

---

[24] محمد عرفة، «كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم»، ص 156 - 195 في كتاب عبد الكريم الشيرازي، الوحدة الإسلامية، مصدر سابق، ص 160

[25] اسماعيل الملحم، مصدر سابق، ص 50 .

[26] محمد طه بدوي، حق مقاومة الحكومات الجائرة، القاهرة: دار الكتاب العربي، ص 41 .

[27] ظافر القاسمي، مصدر سابق، ص 134.

[28] شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965، ص 88.

وجليلة، الأمر الذي يبرر وصف تلك النهضة بأنها إسلامية وليست عربية فقط، وبرز من غير العرب على سبيل المثال أسماء لامعة، مثل أبي حنيفة والفارابي وابن سينا والرازي وعمر الخيام والكاشي، أما بخصوص رعاية الحكام للعلم وأهله فإن الواقع مغاير للصورة المثالية أيضاً، وينفي أحد المصادر أساساً وجود برنامج حكومي لتطوير العلم والمعرفة [29]:

"إنَّ إشعاع الحضارة العربية الإسلامية الذي تحقق في ظلِّ دولة الخلافة العباسية لم يكن نتيجة برنامج حكومي وضع عن سابق قصد وتصور من قبل دولة الخلافة هذه، وإنما تحقق بفعل آلية التطور العفوي للمجتمعات والشعوب".

وتبين السجلات التاريخية بأنَّ بعض الخلفاء والحكام تحمسوا للتأليف والإنجازات العلمية والثقافية وشجعوا العلماء والمؤلفين، فيما اتخذ عدد منهم موقفاً عدائياً سافراً واضطهدوا العلماء، وحظروا التأليف في بعض حقول المعرفة، أما غالبية الحكام فقد كانوا غير مبالين بالعلم وأكثر اهتماماً بالشعراء والأدباء والمغنين والعازفين والندماء، وكان خالد بن يزيد متفرداً بين قومه الأمويين في اهتمامه بالعلم وترجمة الكتب العلمية، واشتهر من بين العباسيين المأمون والمعتضد، ومن الفاطميين الحاكم بأمر الله، وبرز من بين المناهضين للحركة العلمية المتوكل العباسي ومحمود الغزنوي مؤسس الدولة الغزنوية والمنصور الموحدي في المغرب.

أُعجب المأمون بالعلم والعلماء، وأيد المعتزلة الداعين إلى استخدام العقل حتى في فهم العقائد الدينية، وأنشأ دارالحكمة، وكلف المترجمين بنقل كتب الإغريق العلمية والفلسفية إلى العربية، وكان لهذه الخطوات نتائج إيجابية عظيمة على النهضة العلمية من خلال تشجيع العرب والمسلمين على دراسة العلوم وتوفير الإمكانات والوسائل العلمية والمادية اللازمة لذلك، وعلى سبيل المثال فإن الخوارزمي، عالم الحساب المشهور، دَرَسَ في دار الحكمة لمدة سنتين، وعُرِفَ المعتضد العباسي أيضاً بتشجيعه العلماء وتخصيصه الرواتب لهم، وبرهن الحاكم بأمر الله الفاطمي عن احترامه وتقديره للعلم والعلماء بخروجه من عاصمته لاستقبال ابن الهيثم عند وصوله إلى مصر، واهتم هؤلاء الحكام وغيرهم بإنشاء المكتبات وتجهيزها والصرف عليها، ومن أشهرها مكتبات بغداد، ودار الكتب في شيراز، وبيت الكتب في الري التي قدر مخزونها من الكتب بما يوازي 400 حمل، ومن أشهر مكتبات مصر دار الحكمة ودار القلم ومكتبة القصر التي احتوت حوإلى 20 ألف كتاب.

خلافا للصورة المثالية لتلك العصور المزدهرة المترسخة في أذهان الكثيرين تعرَّض العديد من العلماء البارزين والمشهورين للمضايقات والاضطهاد، وقتل بعض منهم بأوامر من قبل الحكام والولاة بسبب أفكارهم ومواقفهم، الأمرالذي يؤكد بأن رعاية الحكام للعلماء لم تكن مضمونة دائماً، وأن حرية العمل العلمي فُقِدَت في بعض الحقب الزمنية، الأمر الذي اضطر بعض العلماء والمؤلفين إلى التوقف عن التحصيل والتأليف أو التنقل من مكان لآخر طلباً للأمن والسلامة، وانعكس بصورة سلبية على انتاجهم العلمي وإبداعاتهم، ونذكر من هؤلا العلماء والفلاسفة والمؤلفين مايلي:

ابن سينا: أتهم باحراق مكتبة الأمير منصور بن نوح ظلماً فاضطر إلى هجر الري ولم يستقر في مكان واحد، وسجن أكثر من مرة، وكاد أن يقتل على أيدي بعض القادة العسكريين.

ابن الهيثم: اضطهده أمير البصرة لأنه رفض بناء قصر له، وهدده بتهمة الزندقة لأنه يُدرس الفلسفة، فاضطر إلى مغادرتها إلى بغداد حيث استقر بها مدة قصيرة، ثم غادرها خوفاً من مؤامرات أمير البصرة قاصداً مصر، ولأنه لم يتمكن من تحقيق أحلام الحاكم بأمر الله في السيطرة على فيضان النيل ادعى الجنون ولزم بيته خوفاً من غضب الحاكم.

---

[29] غسان ابراهيم وعلي شاش، مصدر سابق، ص 85 .

ابن رشد: أُحرقت كتبه وحاول بعضهم إدانته بالكفر وأُبعد إلى مدينة صغيرة في الاندلس.
البيروني: كاد أن يلقى حتفه على يدي السلطان محمود الغزنوي.
جابر بن حيان: اضطرَّ للهروب من بغداد أثناء أزمة البرامكة واستقر في طوس.
الكندي: صودرت مكتبته وجلد.
عمر بن الخيام: اتهم بالزندقة.
عبد الصمد الحكيم: رمي من شاهق فمات.
ابن الزيات: أعدمه المتوكل.
ابو الحسن الطوسي: مات مقتولاً.
الطغرائي: مات مقتولاً.

وتدل مراجعة سير هؤلاء العلماء وغيرهم على أن القوى الدينية المحافظة، أمثال المدافعين عن مثالية السلف، كان لها دور كبير في اضطهاد العلماء وعرقلة النهضة العلمية، واستمروا في هذه الجهود حتى نجحوا في ايقافها، وكانت تهمة الزندقة أمضى سلاح إرهابي شهره هؤلاء المحافظون في وجه العلماء، وأطلقت هذه التهمة على كل من اشتغل بالعلوم الوضعية أو أجاز استعمال العقل في فهم الأحكام الدينية، فقد عارض الأشعريون المعتزلة، وأدانوا بشدَّة اعتمادهم على العقل، وعلى الرغم من ذلك فلم يكن قائدهم أبو الحسن الأشعري مقبولاً لدى الاصوليين، وأيَّدهم في ذلك المتوكل العباسي، وبعد يوم من دفن الأشعري قامت جماعة من الحنبليين بتخريب قبره في مقبرة بغداد، وتخوف العديد من العلماء من تهمة الانتساب إلى جماعة إخوان الصفاء وهم من الاسماعليين، وما يترتب على ذلك من إدانة بالكفر، وفي أقصى المغرب الاسلامي أمر الخليفة المنصور الموحدي بإتلاف كتب المنطق والفلسفة ومنع الناس من اقتنائها [30]، أما السلطان محمود الغزنوي فلم يتردد في إعدام عدد من العلماء بالجملة إرضاءً للتيار الأصولي المحافظ كما يتبين من التقرير التالي[31]:

"بعد مقتل الامير المأمون قام السلطان محمود الغزنوي، مؤسس الدولة الغزنوية، بالزحف على مدينة كات، والجرجانية، وأخذ السلطان معه إلى غزنة أعضاء مجلس العلوم، وعقد لهم محاكمة سريعة، اتهمهم فيها بالكفر والزندقة لأنهم يشتغلون بعلوم لا يفيد منها إلا القرامطة، أعداء مذهب أهل السنة، وأمر بإلقاء عدد كبير منهم، من برج في قلعة قصره، فلقوا حتفهم وكان من بينهم العالم الفلكي، عبد الصمد الحكيم، أستاذ البيروني، وكاد البيروني أن يلقى نفس المصير لولا تدخل رجال بلاط القصر، فأمر السلطان بتحديد إقامته".

من ناحية اخرى، لم يكن جميع رجال الدين معارضين لاستعمال العقل والبحث العلمي، فالمعتزلة دعوا إلى اعتماد العقل كما أشرنا سابقاً، وشجع الإمام جعفر الصادق جابر بن حيان على طلب العلم، وعرض عليه الأموال، وأهداه نسخة من كتاب «القراطيس» الذي ترجمه راهب مسيحي بتكليف من الأمير خالد بن يزيد الأموي.

لم يسكت بعض العلماء على معاداة الاصوليين، ودافعوا عن أهدافهم ومقاصدهم، وهاجموا مناوئيهم بجرأة، واعتبرالرازي العلماء مثل أبي قراط وإقليدس أهم من القادة الدينيين الذين فرضوا زعامتهم على الناس، وخالفوا مبدأ المساواة في الإسلام، وحرَّضوا أتباعهم على التطرف وإثارة الاضطرابات والخلافات والصراعات، ولكن الغلبة كانت في النهاية للمحافظين الذين نجحوا في

---

[30] ابراهيم زعرور وعلي أحمد، معجم أطباء المغرب والاندلس خلال العصور الوسطى، دمشق: مطابع الجمهورية،1993، ص 73 .

[31] سليمان فياض، البيروني: عالم الجغرافيا الفلكية، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992، ص 24.

إيقاف النشاط العلمي والنهضة العلمية.

ختاما، يتبين من البيانات والأراء والمناقشات المطروحة في هذا الفصل أنَّ الاعتقاد بمثالية الذات العربية لدى القوميين ومثالية السلف لدى المتدينين اتجاهان قويان ومؤثران في التاريخ العربي، كما أن التطرف والمغالاة في هذين الاتجاهين يتعارضان مع الواقع والمنطق، وقد أفرزا سلبيات عديدة مثل ضعف الموضوعية في الدراسات والتحاليل التاريخية والاجتماعية، وفرض التقليد، وممارسة الإرهاب الفكري، وتعميق هوة الخلاف بين الفرق الاسلامية وإثارة النزاعات بينها، ومن الواضح بأنَّ هذين الاعتقادين يتناقضان مع دعوة الاسلام إلى الواقعية والصدق والموضوعية في تقويم الذات، والتعرف على دوافعها واهدافها، وتشخيص مواطن الضعف والقصور فيها من أجل إصلاحها وتقويمها، وبالتالي فإن من الجائز اعتبار الاتجاه المثالي انحرافاً خطيراً عن المنهج الإسلامي.

الفصل الرابع
المرأة السُّلعة لا الآدميَّة

لأن الرجل العربي عدَّ القوة قيمة أساسية في حياته، وانحاز إلى القبيلة مبتعداً عن القِبلة، وظلت عيناه شاخصتين إلى أفعال السلف وأقوالهم وأمجادهم، كان من المحتَّم أن تعاني المرأة بالنتيجة، فالعربي الطامح إلى القوَّة والمنبهر بها وجد في المرأة العنصر الأضعف في المجتمع، ففرض عليها سيطرته وهيمنته، وحرمها من حقوقها، وداس على كرامتها. وعندما أصرَّ على انتمائه إلى قبيلته وتمسَّك بأعرافها وتقاليدها وعاداتها، على حساب مبادئ الإسلام وقيمه وتعاليمه، خسرت المرأة الحقوق والامتيازات التي شرَّعها الإسلام لها، وكانت الحصيلة أن وضعها لم يتحسن إلَّا قليلًا، مقارنة بما كان عليه أيَّام جداتها الجاهليات، فأُخضعت، ولا تزال، لمكيال الرجل المزدوج، الذي ينحاز إليه إذا اكتال لنفسه، ويبخسها حقها إذا اكتال لها. ولأنَّ ما استنَّه الأجداد ثابت لا يجوز تغييره تردَّت أحوالها حتى بلغت الدرك الأسفل قبل بداية القرن العشرين، ولم تحصل على حقوقها كاملة بعد دخول العرب عصر الحرِّيات والتمدُّن. ولأنَّ تخلُّف المرأة أضرَّ بالمجتمع كله فقد استحق الإصرار على معاملتها بوصفها سلعةً بدلًا من كونها آدميَّة أن يسمى انحرافاً، وهو الفرض الذي يراد التحقُّق منه في هذا البحث.

المرأة في الجاهليَّة

كان عصر الجاهلية أسوأ الأزمنة بالنسبة للمرأة العربية، فلم تتمتَّع فيه بالحق المطلق في الحياة، وكان أولياء أمورها يتصرَّفون بها كالسلعة، فإذا نجت من الوأد فلربما بادلها أبوها أو أخوها بامرأة يتزوجها، ولا تنتهي مصائبها بالزواج، فمن المحتمل أن يجبرها زوجها، إذا افتقر، على معاشرة رجل غني، أو رهنها عند مُرَابٍ ضماناً لسداد قرض، وإذا مات زوجها عُدَّت جزءاً من ميراثه، ولأولاده ـ من زوجات أخريات ـ حق التزوج بها.

نبدأ بالطَّامة الكبرى: الوأد، وهو عرف جاهلي لا يوازيه في إجحافه سوى الرق، ويصف القرآن الكريم الحالة النفسية للرجل الجاهلي الذي تلد زوجته أنثى:

{وإِذَا بُشِّرَ أَحدُهُم بالأُنْثَى ظَلَّ وجهُهُ مُسْوَدَّاً وهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوارَى مِنَ القَومِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّر بِهِ، أَيُمسِكُهُ على هُونٍ أم يدسُّه في التّرابِ، أَلا سَاء ما يحكُمُونَ} (النحل:58 و59)

وبقدر ما يفرح الرجل الجاهلي ويستبشر بالمولود الذكر يحزن ويتألَّم لمقدم البنت، وإلى الحد الذي يفوق قدرته على الكتمان، الأمر الذي يدفعه إلى تجنُّب لقاء قومه كأنه اقترف أمراً معيباً شائناً يخجل منه، كما تصف الآية الكريمة حيرة الجاهلي في كيفية التصرُّف مع هذه المولودة :هل يدعها تعيش وتكبر في كنفه أو يئدها بدسِّها في التراب؟ وكان قتل الأولاد عرفاً شائعاً بين عدد من الشُّعوب، مثل اليونانيين القدماء من سكان اسبرطة والرومان والصِّينيين وقبائل الهنود الحمر في أمريكا. وأقرَّ القانون الروماني للآباء حق التصرُّف بأولادهم بما في ذلك قتلهم أو بيعهم بوصفهم عبيداً، واستمر الوأد بين الصينيين حتى منتصف القرن العشرين، وكانت المولودة الأنثى أول من يضحِّي به أفراد بعض قبائل الهنود الحمر عندما تقلُّ الطرائد ويتهدَّد الجوع الجميع، واتخذ الوأد في زمننا المعاصر شكلًا جديداً، وهو الإجهاض.

والفقر هو السبب الرئيسي لوأد العرب لأولادهم كما بيَّنت الآية الكريمة: {ولا تَقْتُلُوا أولَادكم خشية إمْلاقٍ} (الإسراء:31)، وبالإضافة إلى خشية الفقر قتل الجاهليون بناتهم خوفاً من وقوعهن في الأسر وما يجرُّه ذلك من عار على أقربائهن من الرجال، ومورس الوأد من قبل مختلف شرائح المجتمع من سادة وأتباع.

يتم الوأد عادة بعد الولادة مباشرة، فيحفر الوائدون للمولودة حفرة في التراب ثم يدسُّونها فيها، فتموت اختناقاً، وأحياناً تذبح أو تغرق أو ترمى من مرتفع شاهق، وفي بعض الحالات وُئدت البنات في الكبر، إذ يروى أن إحدى الأمهات حاولت إنقاذ مولودتها من الوأد بإخفاء مولدها عن زوجها ولم تخبره إلا بعد أن كبرت على أمل أن يصرف النظر عن وأدها، إلا أن الرجل أصرَّ على ذلك [1]، وبما أن الرجل الجاهلي كان صلباً لا تتحكَّم به العواطف، لذا فقد كان هو غالباً الجلَّاد الذي ينفِّذ عملية الوأد.

تدلُّ ممارسة الوأد على أنَّ حقَّ المرأة في الحياة لم يكن قاعدة اجتماعية ثابتة وأمراً مسلَّماً به، ولم يعترف العرف الجاهلي لها بذلك الحق، بل سلَّمه بالكامل إلى أبيها يتصرف به كما يشاء، فإما يَئِدها أو يبقي على حياتها، لا يُسَاءَل أو يحاسب من أحد على ذلك، وربما اقتنع بعدم وأدها مقابل مبلغ من المال، واشتهر جد الشاعر الفرزدق بلقب «محيي الموؤدات» لأنه أحيا عدداً منهن مقابل دفع بعض النقود إلى آبائهن.

إذا كان حق الأنثى بالحياة مُعلّقاً بيد أبيها فإن حصولها على حقوق أخرى أمر بعيد الاحتمال، وبالفعل سيطر الرجل على مقادير المرأة، وسيَّرها كما شاء، فقرار تزويجها بيد وليِّ أمرها، الذي بإمكانه أن يزوِّجها وفقاً لنكاح الشغار بمبادلتها بامرأة يتزوجها هو أو أحد الذكور من أفراد العائلة، ويشبه هذا الزواج المقايضة، وبعد الزواج تنتقل ولاية الأمر عليها من أبيها أو أخيها إلى زوجها، الذي يمارس سلطات كاملة عليها، ومن الممكن أن يجبرها على معاشرة رجل آخر مقابل مبلغ من المال. وهو ما عرف بـ «المضامدة». والزوجة هنا أيضاً أشبه بسلعة يؤجِّرها زوجها، وتتضح معاملة المرأة، بوصفها سلعةً، في أبشع صورها عند إجبارها على البغاء، ولم يترفَّع بعض الأثرياء عن استغلال الإماء وإجبارهن على بيع أجسادهن وتحصيل أجورهن.

باختصار، كانت ظروف معيشة المرأة في الجاهلية سيئة، رفرف شبح الوأد فوق رأسها منذ ولادتها، وذكَّرها دائماً بأن حقَّها في الحياة معلَّق بيد أبيها، وسلبها الرجال إرادتها الحرَّة وقرارها المستقل، وعاملوها مثل سلعة تباع وتشترى وتؤجَّر وتُهْدى. وبالمقارنة احتكر الرجال لأنفسهم المكانة الاجتماعية والسلطات والحقوق والامتيازات، وعلى الرغم من عدم توفر بيانات عن مشاعر المرأة وأحاسيسها والأفكار التي دارت في ذهنها تحت تلك الظروف الصعبة، فإنَّه من الممكن الاستنتاج بوجود إحساس بالدونية والنقص لديها .ومن الطَّبيعي أن يؤثر ذلك في فكرها وسلوكها، ومن هذه المظاهر السلوكية اللجوء إلى الكيد والمكر، إذ من المحتمل أن تسعى المرأة المسلوبة الإرادة والقوى، وبدافع من شعورها بعدم الاطمئنان، إلى التعويض عن ضعف موقفها وقلة قوتها من خلال محاولة فرض سيطرتها المباشرة أو غير المباشرة على الرجال، وإيقاعهم تحت نفوذها، باستعمال الإغواء والمكيدة والحيلة والنميمة وإثارة الخلافات والعداوات والفتن وحتى القتال.

تشير الرِّوايات المتوفرة عن أحوال الجاهلية إلى ممارسة بعض النسوة لدور مهم في تحريك الصراعات وتأجيجها والتحريض على القتال .ويروى أن البسوس، صاحبة النَّاقة المشهورة، أشعلت فتيل الحرب التي عُرِفت باسمها، نتيجة مطالبتها الملحَّة بالانتقام من المسؤولين عن عقر ناقتها .ومن المعروف أنَّ والدة الشاعر عمرو بن كلثوم كانت السبب في قتله لعمرو بن هند، وإن كان من غير المؤكد تحريضها على ذلك. ولكن لا شك في أن رغبة هند، زوجة أبي سفيان، في الانتقام من المسلمين الذين قتلوا أقاربها في بدر كانت قوية جداً، ودفعتها إلى تحريض زوجها وأهلها وعشيرتها على الاستمرار في قتال المسلمين، ولم تكتف بذلك، وإنَّما وضعت خطة للانتقام من الحمزة، ثم من الرسول، وكلَّفت عبداً اسمه «وحشي» بذلك، وبعد مقتل الحمزة غيلة وغدراً في أُحد قامت هند باستخراج كبده ولآكتها بأسنانها.

---

[1] برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، بيروت: دار الفارابي، ص 194 .

أدرك سادة قريش التأثير الفعَّال لتحريض المرأة على المقاتلين، فاصطحبوا النساء معهم إلى قتال المسلمين في بدر. ووجود النساء في مؤخرة الجيش رادع قوي لمنع المقاتلين عن الفرار أو حتى عن التفكير به، وكل من تراجع أو ولّى الأدبار تعرَّض لتوبيخ النساء واحتقارهن، فالرجل يتباهى على المرأة برجولته وقوته البدنية ومهاراته القتالية وشجاعته، ويترفَّع عليها لأنها ضعيفة وبحاجة إلى حمايته، وفي ساحة المعركة تكون رجولته وكل ما يرتبط بها من حقوق وامتيازات على المحك، وعليه أن يثبت للمرأة وغيرها من أفراد القبيلة أنَّه مستعدٌّ للدفاع عن قبيلته ونسائها وممتلكاتها، فإذا تهاون في أداء واجبه القتالي استحق أن يوصم بالجبن والخذلان؛ الأمر الذي يفقده مكانته وسمعته بين أفراد القبيلة. والتحريض إذن سلاح فعال بيد المرأة، بإمكانها استخدامه لابتزاز زوجها، وحتى دفعه إلى الموت قتلًا على يد أعدائه، وبالفعل حارب عنترة بن شداد للحفاظ على مكانته والحصول على رضا عبلة وبقية أفراد قبيلته، أما قيس بن الملوَّح الذي وضع سلاحه جانباً ليتفرَّغ للحب ونظم الشعر العاطفي الرقيق فقد أهملته القبيلة وتزوَّجت محبوبته من غيره.

الإسلام والمرأة

يوجد إجماع على أن مبادى الإسلام وتعاليمه أحدثت تغييراً جذرياً في مكانة المرأة، ويؤكِّد محمد جميل بيهم أنَّ الإسلام أعطى "للمرأة حقوقاً لم تكن تعرفها في الجاهلية، وأصلح من أحوالها الشخصيَّة" [2] .وأول هذه الحقوق وأهمها حقها في الحياة، فأبطل الإسلام الوأد ومنع قتل الأبناء. وإذا كان هذا الإنجاز يبدو متواضعاً في عصرنا فإنه يعدُّ تغييراً ثورياً في أوضاع المرأة في المجتمع العربي. وبالإضافة إلى تحريم الوأد، دعا الإسلام إلى الاستبشار بالمولودة الأنثى، وإبداء الفرح بمقدمها، وألغى المعايير الاجتماعية المزدوجة التي تبيح للرجل وتمنع المرأة، وساوى بينهما في الأحكام الإسلامية، فالمرأة والرجل يعاقبان بالعقوبات نفسها إذا خالفا هذه الأحكام وارتكبا الأفعال المحرَّمة، مثل القتل والزِّنا والسرقة وغيرها. وبذلك أقرّ لها الإسلام شخصية معنوية كاملة، وحمَّلها مسؤولية اختياراتها وأقوالها وتصرُّفاتها، وهي بالتالي تحاسب مثل الرجل في يوم القيامة، وتعاقب وتثاب وفقاً لأعمالها الدنيويَّة، وخصَّ المرأة بحصَّة خالصة من الميراث تحتفظ بها لنفسها، وتنفقها كما شاءت، وهي أقل من حصة الرجل لأنه يتحمَّل مسؤوليات الإنفاق على أفراد أسرته بمن فيهم النساء، ولكن ليس له ولاية على أموالهن. ومن أجل تنظيم الحياة الاجتماعية جعل الرِّجال قوَّامين على النساء مع مساءلتهم عن أدائهم لهذه المسؤولية الجسيمة، ولضمان حصول المرأة على حقوقها وعدم ظلمها داخل أسرتها عدَّ زواج المُكْرَهة باطلًا، وأسقط ولاية الأب على ابنته إذا لم يأذن بزواجها لسبب وجيه، وعندئذٍ يكون لها الحق في اختيار زوجها بنفسها [3]، واشترط لتعدد الزوجات العدل بينهن، وخلص المطهري إلى أن "الإسلام لا يرى فرقاً بين الرجل والمرأة في سيرهما التكاملي نحو الله، عز وجل، فيما عدا اختياره الرجل لتحمُّل مسؤولية النبوَّة والرسالة" [4].

لم يكتفِ الإسلام بوضع التَّشريعات من أجل ضمان حقوق المرأة ومنع استغلالها من قبل الرجال، فسعى إلى تغيير صورتها ومكانتها في المجتمع جذرياً، وبالتحديد إلغاء صورة المرأة السلعة ومعاملة الرجال لها وفقاً لذلك على أنها مجرّد وسيلة لمتعة الرجل وإنجاب الأولاد وخدمة البيت، واستبدال هذه الصورة المهينة بأنموذج المرأة الإنسانة. ففي الجاهلية برزت معاملة المرأة بوصفها سلعةً جنسية

---

[2] محمد جميل بيهم، المرأة في حضارة العرب، بيروت: دار النشر للجامعيين، 1962. نقلته كريستين نصار، مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل، طرابلس: جروس برس، 1993، ص 76 .

[3] مرتضى المطهري، نظام حقوق المرأة في الإسلام، طهران: منظمة الإعلام الإسلامي، ص 95 .

[4] المصدر نفسه، ص 107.

في أسواق النخاسة؛ وذلك بوقوفها شبه عارية تتفحصها العيون والأيدي، وكان طواف بعض النسوة بالكعبة شبه عاريات سلوكاً متفقاً مع الدور المفروض عليهنَّ من قبل الرجل الجاهلي وقيمه الاجتماعيَّة، ومن المنطقي أن يدفع تركيز المجتمع الجاهلي على القوة المرأة إلى استعمال الغواية من أجل اكتساب القوة وممارسة النفوذ على الرجل، ومن أجل الابتعاد بالمرأة عن هذه الصورة المهينة والسلوكيات الضارة فرض الإسلام العفَّة والاحتشام في المظهر والسلوك، كما أنَّ تنظيم الحقوق والواجبات ألغى اعتبارات القوة ووسائلها، ومنها الغواية والحاجة إليها في العلاقات بين الناس، وذلك ليتفرَّغوا للتعاون والعمل والإنتاج جنباً إلى جنب .ولتوضيح دور المرأة المسلمة تضمَّن القرآن الكريم نماذج لنسوة مؤمنات فاضلات، مثل السيدة مريم وامرأة فرعون، وكذلك لنسوة غير صالحات مثل زوجة لوط وامرأة العزيزالتي استعملت الكيد والكذب وحاولت إغواء النبي يوسف.

وسلَّطت التعاليم والنصوص الدينية الضوء على إسهامات المرأة الأساسية في الحياة الزوجية، فهي شريكة حياة زوجها، التي تقاسمه الأفراح والأحزان، ويفضي إليها وتفضي إليه، وهي لباس له كما هو لباسٌ لها، سواء بسواء، تحصنه من الزنا كما يحصنها، وأوصت الرجل بأن يعاشرها بالمعروف، ودعت الاثنين إلى احترام الحياة الزوجية لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق. وأمرت الأبناء باحترام الوالدين ورعايتهما، وليس الأب وحده، وبيَّنت أنَّ ذلك من خصائص صفوة البشر من الأنبياء والرسل والصالحين، يثاب من يلتزم به، ويعاقب العاق المتهاون فيه، وذكَّرت بما تتحمَّله الأم من مشقة ومعاناة في الحمل والولادة والرضاعة والتربية. وعندما أوصى الرسول بالوالدين ابتدأ بها، وكرر ذلك مرات، قبل أن يذكر الأب، وجعل الجنة التي تهفو النفوس إليها، ويجاهد المسلمون بأنفسهم وأموالهم من أجل الفوز بها تحت أقدام الأمهات.

المرأة في عهد الإسلام

شاركت النساء المسلمات في بناء المجتمع الإسلامي في المدينة المنوَّرة، ونظراً لأهميَّة هذا الدور حرص الرسول على تزويدهن بالتوجيهات والتعاليم الدينية، وأوضح لهن الأحكام، وأجاب على أسئلتهن بخصوص حقوقهن وواجباتهن. وهذا دليل قوي على حقهن بالتعلُّم في ظلِّ الإسلام. وانعكس التحسن في أوضاع المرأة بصورة إيجابية ومباشرة على سلوكها الخاص والعام، وكذلك على سلوك الرجال المسلمين الذين اندفعوا بحماس إلى العمل والجهاد، وأسهمت نساء عديدات في زمن الرسول وبعد وفاته بدور ونشاط في الحياة العامة.

بعد اختيار أبي بكر خليفة للرسول، دافعت السيدة فاطمة الزهراء عن أحقيَّة زوجها عليٍّ بن أبي طالب بالخلافة، وطالبت بإرثها، كما لعبت السيدة عائشة دوراً مهماً في الحلبة السياسية، وبخاصة إبَّان خلافتي عثمان والإمام علي، فأدلت برأيها في التطوّرات السياسية، وأرسلت الرسائل إلى القادة السياسيين، وانضمّت إلى قوات طلحة والزبير المتوجِّهة إلى العراق في زمن خلافة الإمام علي، وسُمِّيت المعركة التي دارت بين هذه القوات وجيش الإمام علي بواقعة الجمل، نسبة إلى الجمل الذي حملها. وتشكل الأحاديث النبوية المروية عنها نسبة غير ضئيلة من الأحاديث المعتمدة لدى أتباع مذاهب أهل السنة. وكان للسيدة زينب ابنة الإمام علي دور مهم في ثورة أخيها الإمام الحسين ضد حكم يزيد الأموي، فرافقت أخاها إلى العراق وآزرته وساندته. وبعد استشهاده، أُجبرت على التوجّه إلى الشام؛ حيث جابهت ادّعاءات يزيد ودافعت عن مواقف أخيها وأهل بيتها ضد بني أمية بشجاعة وجرأة فائقتين.

وعلى الرغم من ظهور بعض الحالات الاستثنائية القليلة كان دور المرأة العربية في المجتمع ثانوياً، لذلك أهملها التاريخ، ولم ينصفها المؤرِّخون لأنهم كانوا جميعاً من الرجال، وبشكل عام لم تُسَجَّل للمرأة إسهامات تذكر في النشاطات السياسية والأدبية والعلمية، ولم يحفظ التاريخ إلا أخبار

بعض النساء من أمهات الحكام أو زوجاتهم، أمثال زبيدة والخيزران وشجرة الدر اللواتي أثَّرن في الحياة السياسية، بينما حفلت بعض المؤلفات بأخبار الجواري والمغنيات. وعادت المرأة إلى ممارسة دورها الإسنادي أو التحريضي كما يستدلُّ من نصائح السيدة أسماء بنت أبي بكر إلى ابنها عبد الله بن الزبير، والتوبيخ الحاد الذي وجهته والدة آخر الحكام العرب في الأندلس لابنها الحزين لأنه بكى كالأطفال على ملكٍ لم يدافع عنه كالرجال.

يبدو من البيانات المتوفِّرة أنَّ الكثير من المسلمين ابتعدوا، في نظرتهم ومعاملتهم للمرأة، عن تعاليم الإسلام التي نصَّت على حقوقها، مفضِّلين عليها أعرافهم وتقاليدهم وعاداتهم التي أسست الهيمنة المطلقة للرجل على المرأة، وبالتالي نسوا أو تناسوا أنموذج المرأة ـ الأم التي تطأ قدماها الجنة، وعادوا إلى صورة المرأة ـ السلعة التي يتصرَّف بها الرجال كما شاؤوا، فالتزموا بتعاليم دينهم في أمور معينة، واتبعوا تقاليدهم في أمور أخرى، وسوَّلوا لأنفسهم فرض سيطرتهم الكاملة على المرأة واستغلالها وحرمانها من حقوقها المعنوية والمادية من دون اكتراث لإنسانيتها، كما يستدلُّ من سيرة الصحابي المغيرة بن شعبة في التزوج على سبيل المثال [5]:

"لم يكن يتزوج واحدة واحدة... وإنما كان كثيراً ما يطلق أربعاً ويتزوّج أربعاً، حتى أسرف المؤرخون عليه بعد ذلك، فزعم المكثرون أنه تزوج ألف امرأة في حياته الطويلة، وزعم المقلِّلون أنه تزوج مئة أو تسعاً وتسعين، وتوسط المعتدلون فزعموا أنه تزوج ثلاثمئة، وكان ذلك في العشر سنوات الأخيرة من حياته".

ونجد مثالًا آخر على الانحراف عن منهج الإسلام في التعامل مع المرأة في الرواية الآتية [6]:

"كان لرجل من أهل البصرة بنت عم ذات مال كثير، وهو وليها، وكانت له نسوة فأبت أن تتزوجه، فحلف ألا يزوجها من أحد ضراراً لها".

ولا تبيح التعاليم الإسلامية ولاية هذا الرجل على ابنة عمه، إلا أن ميل الرجال إلى التسلُّط والأعراف القبلية والتقاليد الاجتماعية وفتاوى بعض الفقهاء شجعت على استمرار مثل هذا الظلم الفادح بحق النساء.

منذ تلك الأزمنة وحتى عصرنا الحاضر ترسَّخ لدى الرجال الاعتقاد بأن المرأة مخلوق أدنى من الرجل، تحتل مرتبة وسطاً بين الرجل والحيوان، وأن الله أقرَّ قيمومة الرجل عليها لأن قدراتها الجسمانية والعقلية غير مكتملة مقارنةً بالرجل وليس لغاية تنظيم الحياة الأسرية، وفات هؤلاء أنَّه لو كان ادعاؤهم صحيحاً لما فرض الله عليها الواجبات والتكاليف نفسها التي فرضها على الرجل، وكذلك الثواب والعقاب، ويتبين ضعف موقفهم من وقوع أحدهم في تناقض صارخ، تمثل في دفاعه القوي عن دور عائشة في واقعة الجمل ثم مخاطبة منتقديها: "يا عقول النسوان ألم أعهد إليكم ألا ترووا أحاديث البهتان"[7] ، ونسي أن عائشة من «النسوان» أيضاً. ولتسويغ معاملتهم الجائرة وغير المنصفة للمرأة ألصقوا بها صفات وسلوكيات سلبية عديدة مثل الكذب والخداع والنميمة، وبالتالي فإنها لا تؤتمن، وعلى الرجل أن يتقي كيدها ويحذر من غدرها، ويمارس سيطرة كاملة عليها لئلا تغدر به وتخونه، كما فعلت زوجة شهريار به، فاستنتج أنَّ جميع النساء مثلها خائنات، مغلِّباً الظن على اليقين، ولولا دهاء شهرزاد وقصصها لقضى عليها هي الأخرى.

يدَّعي بعض أنصار مثالية الذات أن تردي وضع المرأة العربية عائدٌ إلى اكتساب العرب بعض تقاليد الشعوب الأخرى وعاداتها التي احتكُّوا بها بعد الفتوحات، ومن بين هذه التقاليد ارتداء الحجاب

---

[5] طه حسين، الفتنة الكبرى، 2، علي وبنوه، ص 201 .

[6] أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، الجزء 19، ص 163.

[7] أبو بكر بن العربي، مصدر سابق، ص 160 .

وخلود المرأة في بيتها ومنعها من العمل، كما أن الصورة السلبية عن المرأة تكونت في عصر الجواري. ويعزو بدري محمد فهد نظرة المجتمع إلى المرأة التي "يشوبها بعض الشك في إخلاصها للرجل" إلى سهولة حصول الرجل على الجارية" [8]. وبلا شكٍ جلب النخاسون الجواري من كل مكان لتباع في أسواق المدن العربية، والمعتصم العباسي وحده اشترى سبعين ألف جارية وزوجهن لجنوده المرتزقة من الأتراك وفرض عليهم عدم تطليقهن، واقتنى بعض حكام بني العباس الآلاف من الجواري، واقتدى بهم الوزراء والقادة والموسرون، وفي مخالفة صريحة للتعاليم الإسلامية أجازوا للمشتري النظر إلى ساقَي الجارية وفحص أغلب مواضع جسمها [9] .وفي تقديري فإنَّ إلقاء المسؤولية عن النظرة السلبية للمرأة على الجواري ـ أي على النساء أنفسهن ـ خلط بين السبب والنتيجة، فهذه النظرة السلبيَّة المتمثِّلة بمعاملة المرأة، بوصفها سلعةً جنسية، موروثة من العهد الجاهلي، واستمرت حتى بعد نهي الإسلام عنها. كما لم يلتفت المسلمون بشكل عام إلى تعاليم دينهم التي حضَّتهم على تحرير العبيد من الرجال والنساء، ولم يقتدوا بالصحابة الأوائل الذين اشتروا المسترقّين من المسلمين، من أمثال بلال الحبشي، وأعتقوهم طلباً لمرضاة الله، ولم يتّبعوا سنة الرسول في معاملته لأسرى المشركين في بدر، ولو فعلوا ذلك لما كثرت أعداد الجواري في المجتمع العربي.

ظل تخلّف المرأة واحداً من الثوابت القليلة في المجتمعات العربية وعبر جميع المراحل التي مرَّت بها منذ ظهور الإسلام حتى القرن العشرين، ولم يتغير وضعها في مرحلة الانحدار العثمانيّة عن عهد الازدهار العباسي، إذ تسلَّط عليها الرجل، وأهمل تعليمها، وحرمها من معظم حقوقها، وعاملها معاملة السّلعة.

حلَّ القرن العشرون والمرأة العربية أميَّة في الغالب، مغلوبة على أمرها، محرومة عادة من حقِّها في الإرث. وقبل بداية هذا القرن بثلاث سنوات، أصدر الفقيه البغدادي الشيخ نعمان بن أبي الثناء الآلوسي كتاباً بعنوان :الإصابة في منع النساء من الكتابة، حثَّ فيه على حرمان المرأة من التعلم [10]، وكأن الإنسان المشار إليه في الآية الكريمة:{ علم الإنسان بالقلم }هو الرجل فقط، وأن المرأة ليست آدمية.

المرأة العربيَّة في القرن العشرين

على الرغم من وجود بعض التباين في الطبائع والعادات بين الشعوب العربية إلا أنَّ العرب، وفي النصف الأول من هذا القرن على الأقل متفقون، مثل أسلافهم الجاهليين، وخلافاً لوصايا الإسلام، على إظهار الحزن والتشاؤم من ولادة الأنثى، فالعراقيون استقبلوا مولد بنت لهم بالولولة، بالضبط كما يفعلون عند وفاة عزيز لهم، وهذا ما أكده عزيز جاسم الحجية عندما قال: "إذا كان المولود بنتاً ولولوا" [11]. ويضيف يونس السامرائي إلى ذلك قوله [12] :"إذا ولدت المرأة بنتاً فيكون هذا سبباً من

---

[8] بدري محمد فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد: مطبعة الإرشاد، 1967، ص 274 .

[9] المصدر نفسه. ص 23 .

[10] جابر عبد الحميد جابر وسليمان الحضري الشيخ، دراسات نفسية في الشخصية العربية .القاهرة: عالم الكتب، 1978، ص 121 .

[11] عزيز جاسم الحجية، بغداديات، تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال مئة عام، بغداد :وزارة الثقافة والإرشاد، 1967، ص 39 .

[12] يونس الشيخ ابراهيم السامرائي، العادات والتقاليد العامية في سامراء، بغداد: مطبعة دار البصري، 1969، ص 128 .

أسباب الغم والكراهية. وإذا كانت المولودة بنتاً وتوفيت، يكون هذا من أسباب الفرح والسرور لأهلها؛ حيث يقولون: "خلصنا من شرها".

ولا يختلف الوضع كثيراً في اليمن وفقاً لمحسن ديان الذي كتب: "إذا كان المولود بنتاً فلا زغردة ولا بشارة" [13] .وحتى اللبنانيِّين الذين هم أكثر احتكاكاً بالحضارة الغربية "يفضِّلون الصبي على البنت لأنه يحمل اسم أبيه ويحفظ من بعده ذكره وعقاراته وأمواله، ومَنْ مات منهم وله بنات اعتبر كأنه مات بدون عقب" [14] .ولأن البنت غير مرغوب بها، فغالباً ما أهملت أو حصلت على اهتمام أقل من أخوانها الذكور، وأُسيئَت معاملتها، وأُهينت كرامتها، الأمر الذي أثر سلباً على أحوالها الصحية والنفسية. وتتضح مكانة المرأة في المجتمعات العربية التقليدية، وبخاصة في الأرياف والبادية، من تقاليد تناول الطعام، إذ عادةً ما يبدأ الرجال والضيوف، وبعد أن يكتفوا يحل محلهم الصبيان، أما النساء والفتيات فدورهن في الآخر، وغالباً لا يفضل لهن من أطايب الطعام - إن وجد - إلا القليل.

تشير بعض الدراسات والتقارير الاجتماعية عن أحوال المرأة، وحتى منتصف القرن العشرين على الأقل، في بعض الدول العربية مثل العراق ولبنان وعمان والسعودية، أنَّ قرار تزويج الفتاة يتخذه ولي أمرها .وأكد إحسان الحسن، في دراسته للمجتمع العراقي، أنَّ المرأة لا تختار ولا تقرر مصيرها بنفسها [15]. ولاحظ أنيس فريحة أنَّه "نادراً ما كانت البنت تستشار" في بعض المناطق اللبنانية وحتى الخمسينات [16] .أما في عُمان فيتَّخذ والد البنت أو ولي أمرها قرار التزويج، ولا يؤثر رفضها في قراره ،[17] وبالإضافة إلى سيطرة أبيها المطلقة خضعت الفتاة الريفية والبدوية في بعض الدول العربية لحقِّ ابن عمها التقليدي في اختيارها زوجةً له، وتعسَّف بعض هؤلاء في ممارسة هذا الحق، واستغلوه للحصول على مكاسب مالية مقابل التنازل عنه.

وبسبب عدم وضوح حقوق المرأة المتزوجة وتعرُّض الكثيرات منهنَّ لسوء المعاملة والضرب أحياناً من قبل الزوج أو أفراد عائلته، أو حتى زوجاته الأخريات، تجاذبت الفتاة المقبلة على الزواج مشاعر متباينة من الفرح والقلق، الفرح بتخلُّصها من وصمة العنس، وأملها بتحقق توقعاتها بحياة زوجية سعيدة وبيت مستقل وأولاد وكذلك القلق مما يخبئه لها المستقبل مع رجل غريب وعائلة جديدة، وقد يظهر هذا الخوف والقلق في أول ليلة كما يتبين من الوصف الآتي لزواج تمَّ في نجد أثناء الستينات :[18]

"غالباً ما تمانع [العروس] من الذهاب إلى غرفة العريس فيأخذنها ويدفعنها دفعاً... تدخل الزوجة وتأخذ ركناً بعيداً من الغرفة، ثم يتقدَّم الزوج، ويحاول أن يرفع الخمار، ولكن هذه مهمة شاقة، فغالباً ما تمانع العروس من كشف وجهها حياءً وخجلًا؛ الأمر الذي يدفع الزوج إلى استخدام القسوة أحياناً، وغالباً ما يطول الأمر إلى ساعاتٍ ترتفع معها أصوات الاستغاثة من الزوجة، وأخيراً تحضر والدتها لأخذها وتستبدل ثيابها وتهدِّئ لها من رهبتها، ثم تعيدها ثانيةً إلى زوجها، وقد تتكرر هذه العملية في الليلة الواحدة أكثر من مرتين أو ثلاث".

---

[13] محسن بن محسن ديان، مصدر سابق، ص 118 .

[14] أديب لحود، العادات والأخلاق اللبنانية، بيروت: مكتبة صادر، 1953، ص 31 .

[15] إحسان محمد الحسن، العائلة والقرابة والزواج: دراسة تحليلية في تغير نظم العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي، بيروت: دار الطليعة .

[16] أنيس فريحة، حضارة في طريق الزوال، القرية اللبنانية، بيروت: الجامعة الأمريكية، 1957، ص 93 .

[17] سعود بن سالم العنسي، العادات العمانية .عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1991، ص 125 .

[18] سيد محمد إبراهيم، مصدر سابق، ص 64 .

ويستنكف الرجال العرب عن مساعدة زوجاتهم في أداء الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال وتربيتهم، لأنهم، وفي العراق على سبيل التحديد، يعدُّونها أعمالًا وضيعة خاصة بالنساء ولا تليق برجولتهم. وفي العراق أيضاً يكره الرجال المكوث في بيوتهم ومخالطة أفراد عوائلهم مدَّةً طويلة من النهار، ويعدّون مجالسة الرجل للنساء من أهل بيته ومداومته على ذلك دليلًا على التخنث، [19] ويصرّ الرجال على حرمان النساء من الميراث، ففي العراق يجاهر القبليون بتطبيق العرف الذي يمنع توريث الأرض الزراعية للنساء، وفي العراق أيضاً واليمن [20] يجعلون أملاكهم وقفاً لكي لا تحصل الإناث على حصتهنَّ من الميراث .

ابتدأت أوضاع المرأة العربية بالتحسُّن التدريجي في النصف الثاني من القرن العشرين، ولكن وحتى الوقت الحاضر ظل الآباء يفضلون الأولاد على البنات للأسباب نفسها التي من أهمها التخوُّف من انحراف الفتاة وخروجها على التقاليد وتدنيس عرض العائلة وسمعتها. ولم تحصل المرأة على حقِّها في التعليم بسهولة، فقد تردَّدت الحكومات والإدارات التعليمية طويلًا قبل إقرار تعليم البنات، واستقبل الكثير من الآباء التقليديين هذه الخطوة بالرفض والاحتجاج والمقاومة منادين بأن مكان المرأة هو البيت .وعندما فتحت مدارس البنات في العراق لأول مرة رفض الآباء تسجيل بناتهم فيها؛ الأمر الذي اضطر المسؤولين إلى إغلاقها. وفي المملكة العربية السعودية تأخَّر تنفيذ قرار الحكومة بتعليم البنات إلى الستينات بسبب ضغوط رجال الدين السلفيين. وفي مدينة بريدة النجدية خرج السكان إلى الشوارع احتجاجاً على افتتاح مدرسة للبنات في مدينتهم؛ الأمر الذي اضطر السلطات إلى التدخُّل بحزم، ولم تتخلَّ المؤسسة الدينية عن معارضتها لهذه الخطوة إلا بعد إعطائها الضمانات بأن التعليم سيركز على الموضوعات الدينية والفقهية والتدبير المنزلي وتكليفها بمسؤولية الإشراف على تعليم البنات. وظلَّ تعليم البنات في الدول العربية بشكل عام متخلفاً عن تعليم الأولاد حتى نهاية القرن العشرين. وبالتدريج أيضاً، فتحت أسواق العمالة أمام النساء المتعلمات، وازدادت فرص العمل المتاحة لهن في معظم الدول العربية، واستفادت منها أعداد كبيرة من النساء العربيات، وضمنت تشريعات العمل العربية لهن حقوقهن في الأجر وساعات العمل وإجازات الولادة والأمومة.

ومنذ الخمسينات، طرأت تغييرات ملحوظة على أوضاع المرأة الاجتماعية، أدَّت إلى التخفيف من القيود الاجتماعية التقليدية المفروضة على حرية المرأة في الاختيار وتقرير شؤونها. وتبين الملاحظة العابرة للمجتمعات العربية أنَّ وضع المرأة وطريقة معاملتها وعلاقاتها بالآخرين تتأثر بمدى التزام عائلتها بالتقاليد والعادات والتعاليم الدينية من جهة وانفتاحها على التأثيرات الغربية من جهة أخرى، ولا تزال العائلات التقليدية أو المحافظة ملتزمة بالتقاليد والعادات والتعاليم الإسلامية في تعريف دور المرأة وتحديد سلوكها المقبول. أما العائلات المتأثرة بالمجتمعات الغربية فقد عدَّت دور المرأة فيها انموذجاً يقتدى به. كما توجد عائلات اختارت مساراً وسطاً بين النوعين المحافظ والمستغرب، فحافظت على بعض التقاليد والعادات وتبنَّت بعض المظاهر الغربية، وعلى الرغم من المكاسب الكثيرة التي حصلت عليها المرأة العربية حتى نهاية القرن العشرين تتفق بعض النساء مع التقويم الآتي لأوضاعهن:[21]

---

[19] إحسان محمد الحسن، مصدر سابق .

[20] قائد الشرجبي، مصدر سابق، ص 29 .

[21] عطوف محمد ياسين ومروان أبو حويج، دراسات سيكولوجية ميدانية في البيئة العربية، بيروت: الدار الجامعية، 1982، ص 53 .

"إنَّ المرأة في الوطن العربي عامة... مواطن من الدرجة الثالثة لأنَّها عموماً تعيش بلا حقوقٍ، وتتعرَّض للكثير من ألوان القهر، رغم أنها وصلت إلى الجامعة، وبدأت تشقُّ طريقها إلى بعض ميادين الحياة العملية".

في الختام

ختاماً، يتَّضح من العرض السابق أنَّ الرجل العربي جانب الصواب عندما رفض، أو لم يتقبّل، تماماً الأنموذج الإسلامي للمرأة، واحتفظ بدلًا من ذلك بعناصر أساسية من أنموذج المرأة ـ السلعة الموروث من أعراف الجاهلية وتقاليدها، لذا أهمل بعض التعاليم الإسلامية بخصوص ذلك والتفَّ حول تعاليم أخرى ليحافظ على تسلّطه الكامل على المرأة ويحرمها من حقوقها الأساسية في الاختيار والتعليم والإسهام في بناء المجتمع بأداء دورها على أحسن وجه.

وبدلًا من إشراكها في بناء مجتمع سليم وقوي أهملها وانصرف إلى الجواري وغيرهن من النساء الهامشيات، حتى أصبحت صورة العربي من السلف والخلف على حد سواء لا تكتمل في أذهان الغرباء من دون جوقة من الجواري والمغنيات والراقصات. ولم يتحسّن وضع المرأة نسبياً إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وتحققت هذه الإنجازات المتواضعة من قبل القوى المتأثرة بالحضارة الغربية التي ترفض الاعتراف بفضائل الأنموذج الإسلامي ومزاياه، بل تحمله المسؤولية تجنِّياً عن تخلُّف أوضاع المرأة، وسبب هذا التخلُّف الحقيقي، كما أسلفنا، التقاليد والعادات الاجتماعية ذات الجذور القبلية. ومن المعروف أنَّ الغربيِّين أنفسهم يعترفون بوجود عناصر ضعف كثيرة في مجتمعاتهم، من أهمها تشتت شمل العائلة، وضعف الروابط والعلاقات بين أفرادها، وبين أفراد المجتمع بشكل عام، وتصاعد نسب الطلاق وظهور أنماط جديدة من العلاقات بين الرجل والمرأة تهدد وجود العائلة واستمرارها بوصفها وحدةً اجتماعية. لذا يبدو أن دعاة استيراد الأنموذج الغربي للمرأة يريدون استبدال اختيار غير صائب بآخر أسوأ منه في النتيجة.

الاستنتاجات والتوصيات

استهدف هذا الكتاب تشخيص وتحليل أربع ظواهر رئيسية في مسيرة العرب التاريخية، ولكون هذه الظواهر سلبية عرقلت تطور مجتمعاتهم ونظمهم السياسية والاقتصادية وأعاقت وحدتهم وتسببت بأزمات حادة استحقت اعتبارها انحرافات مصيرية، وشملت هذه الانحرافات استمرار نزعة القوة والتسلط وعلى حساب قيم العدالة والمساواة والحريَّة، وعلى الركون إلى القبيلة والتعصب لها والتمسُّك بأعرافها وتقاليدها بدلاً من الخروج من أفقها الضيق إلى الأمة الإسلامية المتآخية وروابطها، وعلى الاصرار على مثالية الذات الرافضة لمنهج تقويم النفس واصلاحها، وكذلك على معاملة المرأة بوصفها سلعةً بدلاً من آدمية.

ويستدل من التعمق في تحليل طبيعة وفحوى هذه الظواهر المنحرفة كونها ناتجة من اختيار أساسي واجه العرب منذ ظهور الدعوة الإسلامية وهو الاختيار بين نظام الإسلام العقائدي والسياسي والاجتماعي والنظام القبلي العربي، فالقوة كانت محور التنافس والصّراع بين القبائل العربية المتقاتلة حول وسائل البقاء، وكانت الغلبة للأقوى الذي تسلّط وحمى لنفسه وقبيلته مصادر العيش من ماء وكلأ ودفع غارات الأعداء عن أملاكه وطرق تجارته، وعند الحاجة أقدم على نهب أملاك الأضعف منه بالغزو أو استحوذ عليها بالربا الفاحش، كما كانت مثالية الذات صفة مميزة للقبلي العربي الذي تفاخر بنفسه وحسبه وأهله وقبيلته، وشغلت المرأة مرتبة متدنية على سلّم القوة القبلي الجاهلي لذا عاملوها كسلعة تباع وتشترى وتؤجر وتهدى.

كان البديل عن النظام القبلي الجاهلي هو الإسلام، الذي دعا إلى نبذ التسلط والاحتكام إلى القوة في العلاقات بين الجماعات والأفراد، وساوى بين المسلمين، واستبدل العرف القبلي وقانون الأقوياء بشرع الله المبني على العدالة والمساواة والتآخي والمودة، وأحلَّ مفهوم الأمة الواحدة المتآخية محلّ القبائل المتفرِّقة والمتصارعة، ووجه المسلمين إلى ممارسة الرقابة الذاتية ونقد وتقويم الذات، والسعي لإصلاح أنفسهم وتطويرها فكرياً وسلوكياً بدلاً من التغني بأمجاد ومآثر الأجداد الذين حكم عليهم بالجهل والتخلف، وأكد مراراً وتكراراً بأن لا فضل لمسلم على آخر بالحسب أو النسب أو المنصب أو الثروة وإنما بالعمل والأخلاق، والمرأة سواء مع الرجل في استحقاق العدالة وحرية الإرادة والمسؤولية، وقد نصَّ الإسلام على هذه القيم والمباديء بصريح العبارة ودقة البيان والتوجيه الواضح في الوحي القرآني والهدي النبوي من دون حاجة لتفسير المفسرين وتأويل المتأوِّلين.

اتخذ الصراع بين النظامين الإسلامي والقبلي مظهرين: علني وخفي، انتصر الإسلام في العلن، لكن الصراع والتنافس الخفي لم يتوقف، وانتقل إلى داخل الكيان الإسلامي الذي كان قد توسَّع بشرياً وجغرافياً، فالقيم والعادات القبلية الموروثة من عهد الجاهلية لم تختفي تماماً، وظلت ترسبات الماضي القبلي عالقة ومؤثرة في نفوس الكثيرين، كما سعى البعض لاستعادة قوتهم ونفوذهم ومصالحهم الاقتصادية التي قوضها الإسلام، فيما نشط آخرون بدوافع أنانية بحتة لاقتناص الفرص في ظل النظام الجديد. اختلف المسلمون حول اختيار أول خليفة، وارتد قوم منهم وامتنع آخرون عن دفع الزكاة، واستعملت القوة لتوطيد السلطة المركزية، ثم تصاعد التنافس على السلطة بعد الفتوحات الإسلامية، وأُمتحن المسلمون واخلاصهم للدين بعوائدها الضخمة، ولذلك بكى الخليفة عمر بن الخطاب لدى رؤيته لأسلاب كسرى، ولكن تلك الأسلاب لم تكن سوى غنيمة هزيلة مقارنة بالسلطة التي امتدت لتشمل الأمم التي اخضعتها الفتوحات وشعوبها وثرواتها.

شهدت تلك الحقبة التكوينية في مسيرة الدعوة الإسلامية بعد وفاة الرسول ظهور تيارين داخل المجتمع الإسلامي، أولهما: تيار ملتزم بمواصلة الدعوة ومنع محاولات حرفها عن أهدافها السامية

ومنهجها القويم وترسيخ قيمها وأخلاقياتها بالاستناد إلى تعاليم الإسلام، والتي تجسدت في أبهى صورها داخل مجتمع المدينة المنورة النموذجي في عهد الرسول، أما التيار الثاني فدعا إلى اتباع المنهج الواقعي في تطبيق المبادىء الإسلامية، و"تليينها" إن دعت الضرورة، وتكييفها لتكون أكثر ملائمة لمقتضيات عوامل الضعف البشري والأوضاع الاجتماعية الموروثة والمستجدّات الناتجة عن توسع الدولة الإسلامية ودخول أعداد كبيرة من الناس في الإسلام، واعتبر هذا التيار التوفيقي التيار الملتزم المنافس له منهجاً مثالياً أو طوباوياً لا يتفق مع متطلبات الواقع المادي من طبائع بشرية وتنظيمات اجتماعية ومستلزمات الحكم والسلطة، وبرزت تأثيرات التيار التوفيقي في عدد من السياسات والسلوكيات في تلك الفترة التاريخية مثل إلتماس العذر والتبرير لمعاوية بن أبي سفيان، والي الشام، في التشبه بالأباطرة والملوك ونفي الصحابي أبي ذر الغفاري لانه وعظ الناس بأمور "فوق طاقتهم"، وهو لم يدعُ في الواقع إلى أكثر مما فرضه الإسلام.

ترأس دعاة التيار التوفيقي جبهة المعارضة لخلافة الإمام علي وسياساته وأحكامه المعبرة عن المنهج الملتزم، وحُسم التنافس بين التيارين المتنافسين لصالح التيار التوفيقي، وذلك بعد إغتيال الإمام علي واستبدال الخلافة بنظام حكم إمبراطوري سلالي، وتحقق للذين امتطوا موجة هذا التيار ما يصبون إليه من مصالح شخصية ومآرب دنيوية، فاستأثروا بالسلطة والنفوذ والثروة، وهم بالتالي يتحملون الشطر الأكبر من المسؤولية عن احياء النزعات وايقاظ العصبيات القبلية الموروثة، والتي شكلت بمجملها نكوصاً إلى نظام القبيلة الجاهلي المدعوم بالمهارات والخبرات الإمبراطورية في السياسة والإدارة المكتسبة من الفرس والبيزنطيين، الأمر الذي أدى إلى تقليص نطاق التأثير الفعال للنظام الإسلامي على الفكر والسلوك وحصره بدائرة ضيقة، وأُكتفي بالتدين السطحي وتطبيق الحد الأدنى من التعاليم الدينية والالتزام اللفظي بالمبادىء، واعتبرت القيم العليا التي أرادها الاسلام قواعد للكيان الاسلامي مجرد عظات ونصائح لترشيد وتهذيب السلوك الفردي.

أصبح الهدف الأسمى وهو بناء أمة مبنية على العدل والمساواة والأخوة والحرية بعيد المنال على الرغم من الإمكانات الهائلة التي توفرت للعرب والمسلمين في عهدي الإزدهار الأموي والعباسي، وكرس التيار التوفيقي أنماطاً مختلفة من الظلم الاجتماعي والاستغلال، واستأثر الحكام والأقوياء بالثروة ومصادرها، واستغلوا الفقراء والمستضعفين، وكنزوا أو بذروا الأموال، وانغمسوا في الترف والملذات، واقتنوا العبيد والجواري، متجاهلين الآيات القرآنية والوصايا النبوية التي حثت على عتقهم واعتبرت ذلك من أعظم الأعمال، وأدى نظام العبودية الذي دام في بعض المناطق العربية حتى أواسط القرن العشرين إلى استمرار أسوء أنواع الظلم الاجتماعي وساهم في تدني قيمة العمل لدى العرب واهتزاز مؤسسة العائلة وترسيخ النظرة السلبية للمرأة بإعتبارها سلعة جنسية. كما برزت تأثيرات التيار التوفيقي في التمييز العنصري بين العرب وغيرهم من المسلمين وإقامة الحواجز الاجتماعية والنفسية بينهم، الأمر الذي أضعف التواصل والتمازج والانسجام والتآخي بينهم وفي مراحل لاحقة إلى العداء السافر ومن ثم تسلط غير العرب على العرب ومعاملتهم باستعلاء وقسوة كما حدث في العهد العثماني.

وإذا كان العرب المعاصرون غير مسؤولين عن تلك الانحرافات المصيريَّة في مسيرتهم التاريخية فإنَّهم بلا شكٍ معنيون بتبعات استمرار هيمنة التيار التوفيقي وانحرافاته واستغلاله للدين لإضفاء الشرعية على احتكاره للسلطة وإسكات معارضيه، وتكفي نظرة سريعة على أحوال العرب في القرن الواحد والعشرين لإثبات ذلك، فأغلب النظم السياسية العربية تسلّطية، سواءً كانت نظماً تقليدية تستمد شرعيتها من الانتماء القبلي أو الأسري أو المذهبي أو نظماً ذات واجهات ديمقراطية عصرية تتاح فيها مشاركة شعبية محدودة ومقيّدة، وحتى زمن قريب كان البعض منها يرزح تحت حكم الحزب الواحد أو الزعيم المطلق الأوحد، وما زالت السلطة السياسية مهيمنة بصورة شاملة أو شبه شاملة على المجتمعات العربية، بما تمتلكه من وسائل التحكم في كليات وتفاصيل الحياة الاجتماعية

والمصالح الاقتصادية من خلال التشريعات والخطط والبرامج الحكومية، ومع أن دساتيرها تنص على انتسابها للإسلام فقد تعاملت مع تعاليمه وأحكامه بإنتقائية ومرونة.

تلازمت طبيعة المجتمعات العربية ونظمها السياسية المستندة على القوة والاستئثار بالسلطة مع ترسخ نزعة الطموح إلى القوة بين عامة أفراد هذه المجتمعات، الذين عظَّموا هيبة السلطة ووضعوا القوة في صدارة القيم الاجتماعية، وبجَّلوا محتكري السلطة والقوة إلى حد التقديس أحياناً، وأضفوا الصفات الرفيعة عليهم، وتغنوا بمآثرهم وأعمالهم البطولية أو المبالغ بها إلى حدٍ كبير، ونسبوا القدرات الخارقة لهم أحياناً مثل الاعتقاد باستحالة قهرهم أو ازاحتهم من السلطة لما يتمتعون به من توفيق إلهي أو حظ غير اعتيادي، وكان من الطبيعي أن تظهر وتنتشر بين عابدي القوي والمبهورين بها والخاضعين لها بالمطلق سلوكيات وصولية وانتهازية مثل النفاق والتملُّق والكذب، حتى كادت تطمس الحقائق وتضيع بين سيل من الروايات والأخبار الملفقة خدمة لمصالح ومشيئات الحكام وإرضاءً لغرورهم، ووجد الحكام والمحكومون التبرير لهذه النظم التسلطية واستسلام الجماهير لها في الفكر "التوفيقي" القديم، فالحكام وأنصارهم في الداخل والخارج يدَّعون ويروجون بأن أسلوبهم "الحازم" في تسيير شعوبهم وإدارة شؤون بلادهم هو الأسلوب الواقعي الفعَّال في ضوء طبائع شعوبهم وخصائص مجتمعاتهم والعوامل والظروف الموضوعية الأخرى، أما المحكومون الخانعون فيبرّرون خضوعهم وإسنادهم للنظم التعسفية ووصولية وانتهازية البعض منهم بأنها ضرورات – ملحة إلى درجة تبيح المحظورات – يفرضها تعسف الأنظمة، والحاجة إلى اتقاء شرورها، ولتحصيل سائل البقاء والعيش، وهذا الوضع هو تواصل تاريخي للواقع العربي الناتج عن انتصار التيار التوفيقي وتسلطه واحتكاره لوسائل القوة وإهماله لمبادىء العدالة والحرية والمساواة الإسلامية.

فرضت الحكومات العربية سيطرتها على القبائل في الأرياف والبوادي، وقضت على نزعتها الاستقلالية المتمردة، ومنعتها من ممارسة عاداتها القديمة في الغزو وقطع الطرق والسلب، إلا أنَّ التنظيم القبلي لم ينقرض، بل ظل مؤثِّراً وبدرجات متفاوتة على معظم الدول العربية، فالنظم السياسية التقليدية انطلقت من التنظيم القبلي، ومنه استمدَّت جانباً من شرعيتها، ومنحته مقابل ذلك اعترافاً ثميناً ساعده على الاستمرار والبقاء، وإذا كانت القبائل وحتى أوائل القرن العشرين تغزو المدن فتقتل وتنهب ثم تنسحب منها فإنها في النصف الثاني منه هاجرت إليها واستوطنت فيها على شكل دفعات بشرية، وحملوا معهم طرق تفكيرهم وسلوكهم المحكومة بالأعراف والتقاليد القبلية، وورثتها عنهم الأجيال اللاحقة، وظهرت الاتجاهات الفكرية والسلوكية القبلية على كافة المستويات ابتداءً من الحكام ونزولاً إلى رجل الشارع، وكثيراً ما شُبِّهت النظم العربية، التي تنادي غالبيتها بالوحدة العربيَّة جهاراً وتعارضها سراً، بمجموعة من القبائل التنافسة، نادراً ما تتفق، ولا يدوم الصفاء بينها طويلاً، وتقع المناوشات والحروب بينها بين حينٍ وآخر، وفي العقد الأخير من القرن الماضي غزت إحداها جارة لها، كما تبرز تأثيرات القيم والعادات القبلية جلية في قرارات رؤساء المؤسسات الحكومية والخاصة وتصرفات موظفيها، حيث لا تزال العديد منها تدار على الطريقة "القبلية"، إذ توزع المناصب والامتيازات على الأعوان والمحسوبين الذين يشكلون داخلها تكتلات وزمراً متنفذة، ويتنافسون في تقديم الولاء وإظهار الخضوع لرؤسائهم فيما تهمل الجدارة والمؤهلات والخبرات والانتاجية والإبداع، أوتعطى أهمية ثانوية، وإذا كان حملة لواء التيار التوفيقي يتفاخرون بأنهم وآباءهم وأجدادهم حفظوا الدين طيلة أربعة عشر قرناً من الزمن فإن عليهم أن لا ينسوا بأنهم أيضاً حافظوا وطيلة هذه المدة الطويلة على النظام القبلي بعاداته وتقاليده وأعرافه الموروثة من عهد التخلف الجاهلي المعادي للإسلام.

إلتزم دعاة التيار التوفيقي المعاصرون بمبدأ مثالية الذات العربية من دون اكتراث لنتائجه الوخيمة على المجتمعات العربية، وانطلاقاً من هذا المبدأ قيِّدت حرية الفكر والتعبير عن الرأي، وهيمنت الحكومات وأتباعها على دور النشر ووسائل الإعلام، وفرضت القيود على البحث في العديد من

مواضيع السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتعرَّض المفكرون والباحثون للترهيب والترغيب لضمان تقيدهم بهذا المبدأ، فحصل مادحو السلطة على مكافأت مجزية بينما عوقِب الناقدون بالطرد من الوظيفة والسجن، ولا يبدوا بأن المواطنين العاديين أكثر تقبلاً للانتقاد من الحكام والمسؤولين، ويرجع البعض ذلك إلى تغلب العاطفة على السلوك والحساسية المفرطة لكل ما يخدش الكرامة والسمعة، وهي سمة من سمات القبليين.

أعاقت النزعة المثاليَّة وتنزيه الذات عن النواقص والأخطاء عمليات تشخيص المشكلات ومواطن الضعف ومعالجتها بصراحة وموضوعية تمهيداً لحلّها والتخلص منها، وبالتالي أُهملت المشكلات وتوطن الضعف، وتباطأت حركة التطور في المجتمعات العربية، وكانت نكبة ضياع فلسطين أول حصاد مرٍّ ودموي لهيمنة نظم التسلط ومثالية الذات والتشرذم شبه القبلي، وفي غياب حرية الفكر والموضوعية راحت كل دولة وفئة تنزِّه نفسها وتلقي اللوم على غيرها، ولم يتفقوا إلا على إسقاط قصورهم الذاتي على أطراف خارجية مثل الاستعمار والإمبريالية وشركات النفط الاحتكارية، واتهموا هذه الأطراف وأدواتهم الداخلية بالاشتراك في مؤامرة خبيثة خفية لإنهاك الأمة وعرقلة مسيرتها، ولأنهم تجنبوا البحث بموضوعية عن مواطن الضعف الداخلية لم يتسنى لهم التعرف عليها والتعامل معها، ولولا إلتزامهم القوي بمثالية الذات لما تقبَّل الناس تسمية الهزيمة في حرب 1967م تصغيراً بالنكبة، وتبرئة ذمم معظم القادة عن المسؤولية عنها، وضاعت مرة أخرى فرص الاستفادة من دروسها واكتشاف أسبابها وإزالتها، ولأن مثالية الذات نموذج لفظي مصنوع من الشعارات – وكان في الجاهلية عبارة عن أبيات شعر في الفخر والحماسة – تصرف به الحكام ووسائل إعلامهم كما يشاؤون، وعلى سبيل المثال تخلوا ببساطة متناهية عن شعارات القضية المركزية والمقاومة حتى النصر ولاءات التعامل مع العدو الصهيوني واستبدلوها بـ"سلام الشجعان" و"السلام العادل" و"المقاومة السلمية"، وبالأسوب نفسه تحولوا عن نظام الاقتصاد المركزي المسير إلى نظام الاقتصاد الحر والسوق من خلال الخصخصة، أي بيع المؤسسات الحكومية الإنتاجية إلى "أعداء العمال والفلاحين" من الرأسماليين المحليين والأجانب، ولم يتعلموا من هذه النكسات والتقلبات والتخبطات قليلاً من التواضع والواقعية في تقييم الذات، واستمروا في التأكيد على مثاليتهم وكونهم أجدر الناس بالسلطة، لذا كانت وما تزال الطريقة الوحيدة لإزاحة غالبية الحكام ونظمهم السياسية بالقوة.

يتحمل التيار التوفيقي وإنحرافاته المسؤولية أيضاً عن تخلف وضع المرأة في الحاضر كما في الماضي، ولا تزال اتجاهات هذا التيار وأفكاره مؤثرة على نظرة المجتمع إلى المرأة، ومعاملته لها، فما زال يعتبر ولادتها شؤماً، ويبخل في رعايتها، ويهمل تعليمها، ولأن هذا التيار الفكري ذي الجذور القبلية محسوب على الإسلام ويستتر به فقد تصور الكثيرون من المسلمين وغيرهم خطئاً بأنه يمثل التعاليم والقيم الإسلامية، لذا حملوا الإسلام ظلماً المسؤولية عن تخلف وضع المرأة في مجتمعاتنا، وبرروا لأنفسهم البحث عن أفكار وأساليب لتطوير وضع المرأة العربية المسلمة خارج النظام الإسلامي.

يتبين من هذه الاستنتاجات فداحة السلبيات العديدة الناتجة عن انحرافات التيار التوفيقي، ويتأكد من تمسك العرب بدينهم بأنهم لن يقبلوا بإستبدال الإسلام كلياً أو جزئياً بأنموذج مستورد أومحلي، كما أن الاحتماء الشكلي أو السطحي بالإسلام من هجمة التغرب والانحلال الاجتماعي والأخلاقي أو التطرف والتشدد هوعلاج ناقص وغير فعال لمشكلات عميقة ومعقدة أفرزتها هيمنة التيار التوفيقي، والبديل الأمثل في رأيي هو نبذ التيار التوفيقي والعودة إلى الجذور الاسلامية ومبادئها السامية بوصفها أساساً متكاملاً لنظام اجتماعي حضاري شامل قادر على التطور والتفاعل واستقطاب عقول ومشاعر المسلمين.

المحتويات

الصفحة